عندمـــا حـــل الربيـــع فـــؤادي

للكاتبة :نعمـــت مهـــدي البيـــــاتي

الجـزء الثـــالث

الفصل الأول

كنتُ أراقب ولدي (فارس) وهو يحمل تلك الصغيرة ويرعاها كأنه والدها , وهي تكبر تحت انظارنا كأنها أبنة لنا ....لقد تخلت والدتها عنها تماماً مع مرور الأشهر والسنـــــوات ,فهي وان كانت تأتي لرؤيتها في سنواتها الاولى ,بين فترة وأخرى وكأنها زائر غريب وليست امُها !!- فهي لم تعد تأتي لرؤية تلك الطفلة المسكينة ... ولاريب في ذلك ,لأنها كلما جاءت ,تحدث مشادة كلامية بينها وبين (هاني) , الذي لا يحتمل منها تصرفاتها الباردة اتجاه (أبنتها) , فكلما يحاول ان يوجّه النقد لها ,تقوم بتقريعه وتأنيبه كونه قد خالف أرادتها , وزوّج ولدهُ, لابنتي (فرح), وهو امرٌ لم تردْهُ (كاثرين) ولم توافق

عليه !!

وكذلك لم تشأ ان ينتقل ولدها للعيش في ولايتنا وقرب منزلنا !!!.....

هكذا وجدت (الطفلة الصغيرة) نفسها وهي تكبر بلا (أم)!!!

كنت احاولُ في كثير من الاحيان ان اعاملها معاملة (الام) , ولكني كبرت ولم اعد استطيع رعاية (طفل صغير) لم استطع ان افرغ نفسي لتلك الطفلة الصغيرة رغم محاولاتي المستمرة لــ(تعويضها) عن عدم وجود(أمّ) لها .....

فدوامي وانشغالي بمرض زوجي (فؤاد) وتفاقم (السكري) في جسده , جعلني كثيرة المهام والانشغال وغير قادرة على تكريس وقت خاص لطفلة صغيرة كثيرة الطلبات , والاسئلة , و (الحركة) !! وبالأخص الحركة !!.....

لم اعد تلك الفتاة الصغيرة او الزوجة الشابة التي تستطيع الركض خلف الاطفال , والانتباه عليهم , ومراقبة حركاتهم !.....

لكن من كان يراقبها ويتحملها ويرعاها ,(كأم)و(كأبٍ) في انٍ معاً, هو ولدي (فارس) الذي كان قد تخرج من الجامعة آنذاك حينما اصبحت تلك الفتاة الصغيرة التي (أُضيفت) الى عائلتنا, كهدية ربانية على حين غفله !!.....

أقول – أنّ تلك الفتاة قد اصبحت في الخامسة فقط من عمرها بينما ولدي قد تخرج من الجامعة وبدأ عملة (لمدة ثلاث سنوات) بعدها ...

أي إن عمره كان (ستاً وعشرين) عاماً لما كانت (روزالي) الصغيرة في الخامسة فقط من عمرها عندما جلبها ولدها (هاني) إلى منزلنا لتعيش معنا بشكلٍ دائمي بعد طلاقه لأمها بطلبٍ شخصي منها ومباركة خاصةٍ من ولدها الذي_ لم يكنْ لابنتهِ إن تتزوج برجل (مسلم), أو ذي عروقٍ (عربية) على الاطلاق_ ولمّا شكت كاترين لأبيها ما حدث مع ولدهما الذي أحب(فرح) ابنتي البكر, وكيف أن (هاني) قد وافق على شرطي بأن يحيى مع ابنتي بقربي _ بمباركةٍ منه(هاني) نفسه وكانت تلك(الشكاية), كأنما قشة قصمت(ظهر البعير) على حد تعبير المثل _والامثال تضرب ولا تقاس_وهكذا سعى والد(كاترين)إلى تفريق ابنته عن زوجها (هاني) وجعلهما طليقين كما أراد دوماً طوال فترة زواجهما ....

****

كنت اشعر با8لحزن اتجاه تلك الطفلة الصغيرة ,التي حملتْ ملامح والدها وشقرة شعر والدتها ,صحيح أنّ (هاني) كان اشقر ايضا , لكنّ شقرة شعرهِ لم تكن بتلك الدرجة القريبة من البياض , التي امتاز بها شعر (كاترين) علاوةً على كونه ناعم جداً وبدون تسريح .....

اما عيناها فقد ورثت زرقتها من عمها الأكبـــــر (فؤاد) ,فزادها ذلك جمالاً يفوق جمال صفات وجهها الحادة التي ورثتها من والدها الوسيم ... كل تلك الصفات المحببة , جعلتها طفلة (فارس)على حد التعبير , لو امكنني وصف ذلك بدقة .....

كانت تذهب معه اينما يذهب , ولاتنام ألا بسماع قصصه قبل النوم,فهو الذي يضعها في سريرها, وهو الذي يرعاها طوال الوقت .....حاول (هاني) ان يوظف (مربيـــةً) لأبنته الصغيرة , فجلب فتاة مدربة من شركة توظيف مربيات للأطفال في المنازل بعد ان اتصل بالشركة وأتفق معهم على السعر....

مرّ يوم واحد فقط ,عندما اعلنت المرّبية أنها غير قادرة على البقاء لدقيقة اخرى في منزلنا ولما استعلمنا انا وفؤاد وهاني وأمير والدهشة تعلو وجوهنا... ظهر (فارس) خلفها وهو يحمل (روزالي) بين ذراعيه بينما هي تبكي بجنون وتصرخ بشكل هستيري وهي

تردد ....

_لا اريد احداً سوى بابا (فارس) !لا اريد, لا اريد !

نظر الينا (فارس) بغضب وهو يضم ابنة عمه بين ذراعيه بقوة اكبر ويهدهدها ....

_قلت لكم اننا لسنا بحاجةً الى مربية ! هل اشتكيت لكم !

قال ذلك وأخذها بعيداَ وهي تضم رأسها فوق كتفه وتتعلق برقبته بقوة بكلتي ذراعيها ...
تبادلنا النظرات انا وفؤاد الذي كان جالساّ على الأريكة ,فبادلته نظرات الدهشة بينما رمقني بنظرات ذات مغزى ثم غمزني بعينه اليسرى فلم أستطع ان اكبح جماح ابتسامة ارتسمت على شفتي , جعلت كلا من (هاني) و(أمير) ينظران بعضهما البعض ثم ينفجران بالضحك.....
-أنتم تضحكون اذاّ ! ما هذه العائلة !
لن اعمل دقيقة اخرى هنا ! الى الجحيم مع نقودكم ! لا أريـــــدها!؟
قالت المربية بسخط وهي ترمي ورقة توظيفها على المائدة امامنا بعد ان مزقتها بكلتي يديها , وخرجت ساخطة .....
نظرت الى (فؤاد) فوجدته باسما ّ, بينما تبادل النظرات مع اخيه (هاني) الذي فهم مغزى نظراته وابتسامه , عندما شعرت أنا بالأحراج فهتفت بهم جميعاّ...
_ هلا ترغبون بالشاي مع الكعك !!!
_ نعم حبيبتي..... اجلبي لنا الشاي !
هتف (فؤاد) ليخلصني من احراجي حتى ان وجنتيّ قد توردتا من فرط الخجل وبينما أنا أذهب لتحضير صينية الشاي , استذكرت كيف كانت مشاعري لما جلبتني خالتي الى منزلها وكيف حملني (فؤاد) بين ذراعيه مرحباّ بي .....

الفصـــــــل الثـــــاني

كان أميـــــــــر يسكن معنا بمباركة شخصية من (فؤاد) بعد ما كان خير معين لي في فترة مرضه وعدم قدرته على السير بسبب تورم ســـاقيه .....

فأمير هو من يغسل له , وهو من يحمله بعد ذلك الى سريره بمساعدةٍ بسيطة مني ,كأن اجلب له منشفته أو ثيابه , او ان اساعده على ان يُلبس أخاه الأكبر , أو من قبيل ذلك .....

فقد تكلف (أميـــر) بالأمـــــــر بنفسه كممرض متدرب متمرس منذ سنوات !!!.....

ولم يكنْ يرضى لي أن أحاول مساعدة فؤاد على النهوض , بحركةٍ واحدةٍ من يده,

يقول لي فيها, أنّ عليّ أن لا أتدخل في ذلك.....

عندما كنت انظر الى عينيّ (فؤاد) لأرى ما تقولان لي ,كنت استقرئ رضاهما التام عن عمل (أمير) وعدم رغبته أن أفعل ذلك بدلا عن أخيه ! ولما سألته مرة وأنا أناوله طعامه فوق سريره وأحاول أن أطعمه بيديّ ، قال لي بصوته الرخيم..

_ فـــــــاتن !ذلك ليس عملك ! أنت أمرأه لا تقوين على حملي .....

قدماي متورمتان للغاية .....

أنا ثقيل جداً بالنسبة لكِ ....(أمير) أخي , وأنا لا أشعر بأي أحراج معهُ,ولطالما كنا كتوأم , فلا تبالي ولا تشعري بالأحراج لأنهُ يرعاني , فذلك هو الأخ الحق,
أليس كذلك .....؟
ثم أن أمير يعلم تماماً , اني سأفعل أكثر من ذلك له لو انه (لا سامح الله) سيصاب بمثل ما حدث لي.....

_ حبيبـــــي ! شافاك الله وعافاك سريـــــــــعاً !

أسرعت بالهتاف ودموعي تسيل على وجنتيّ دون شعوري ,عندما دلف (أمير) من خلف الباب وخصلات شعره الشقراء تتدلى أمام عينيه السوداويين بينما تعلق طفلاي التوأم بكلتي ذراعيه, كل واحد منهما يمسك ذراعاً

_ مرحباً آسف لأني تأخرت عليكما! إنهما لا يتركاني هتف (أمير) ضاحكاً, فنظرتُ بسعادةٍ فائقة لابنتي وابني التوأم وهما يُقهقهان بضحاتٍ طفولية بريئة ...
_ بابا, بابا, دعنا نلعب معك ... هيا, لنكمل لعبتنا!
نظر الاخوان لبعضهما وابتسما, بينما نهضتُ أنا لأبعد التوأم عن ذراعي والدهما الذي شكرني وهو يقول:-
حبيباي، سأذهب لعمكما الأن، وأذهبا مع(ماما)...
هيا (فؤاد)، (فاطمة) كونا عاقلين!!
_ ماما, ماما, لا لا ! نريد بابا!!
هتف كل واحد منهما وهو يحتج عليّ, فضحكت وأنا أحملهما بعيداَ عن والدهما وأترك الغرفة حيث وقف (أمير) وحيث كان (فؤاد) ممدداً فوق سريره...
لقد تورمت ساقاه في تلك الفترة, وقام بعمل فحوصاتٍ شامله، وأخذِ كورسٍا كاملا للعلاج, حيث قال الاطباء، إن عليه الراحة التامة والالتزام بالأكل الصحي المناسب لمرض السكري بشكل أكبر وأكثر صرامة من ذي قبل, وذلك ما جعلني أعاني من وجبات طعامه التي لم يكن يرغبُ بها، كونه أكثر شخص في عائلة خالتي, كان يحبذّ الأكلات العراقية الدسمة التي تعودّ في طفولته على تناولها من بين يدي خالتي(رحمها الله).....
كان توأماي (فؤاد) و (فاطمه) أكبر من (روزالي) بسنوات ثلاثة تقريباً, وبسبب رعايتي لهما, لم أعد قادرةً على رعاية طفلة أخرى ....وعلاوة على دوامي ورعايتي لزوجي المريض (فؤاد) الذي لم تعدْ صحته بخير كما كان من قبل بسبب استفحال داء السكري في جسده القوي مع كل الأسف.....
دلفت الى الغرفة بعد أن وضعت التوأم في غرفة العابهما التي اشترى كل محتوياتها وجهزها بجهازها الكامل والدهما (أمير)...
كان (توأماي) في الثامنة من العمر آنذاك وقد انتهت فترة رضاعتهما والركض خلفهما في كل مكان والانتباه أين يذهبان,وذلك أمرٌ لم أكن لأستطيع القيام به وحدي لولا مساعدة (أمير) الذي ساندني في كل مرحلة ورعاهما معي, فلّما كنت احمل (فؤاد) الصغير وأرضعه سواء من قنينة حليب أو من صدري, كان (أمير), يحمل (فاطمة) الصغيرة ويرضعها من قنينة الحليب, والعكس صحيح ..... وكنت أشكر الله في سرّي و(أمير) كذلك في كل مناسبةٍ تذكر, لأنني فعلاً بفضل الله لولا وجود (أمير) قرب طفليّ التوأم لما استطعت إن أقوم بتربيتهما سوياً بمفردي!!...

دلفت إلى غرفة (فؤاد)زوجي بعد إن وضعت الطفلين في غرفة العابهما وجلست معهما قليلاً بينهما أنتهى(أمير) من حمل (فؤاد) إلى دورة المياه وتبديل ثيابه.. (قلتُ أنّ ذلك كان في فترة سابقة إذ أن(فؤاد) شفي بعد مرور مدّةٍ زمنية من تورم ساقيه وعاد إلى الدوام مجدداً وكذلك عدتُ أنا معه، لأنني في تلك الفترة تركت دوامي لأجله)...

_ مرحباً!

هتفتُ وأنا أدلف من خلف الباب, فوجدتُ(أميراً) يُلبس أخاه الاكبر بيجامته(سرواله)، فنظرا إليّ بينما أدخلتُ صينية الشاي لهما ووضعتهما على الطاولة امامهما حيث جلس(أمير) على كرسي بجوار سرير (فؤاد) حيث اضطجع...

_كيف أنت الآن يا عزيزي...

هتفتُ وأنا أناوله قدح الشاي , فنظر(فؤاد) إليّ بامتنان..

_بخير حال، ولله الحمد...

التفتُ نحو(أمير) لأعطية قدح الشاي الخاص به...

نظر (أمير) أليّ بامتنان وتناول الشاي بهدوء, وكأنهّ محاربٌ قد أنهى قتاله في معركةٍ داميه قبل قليل و جلس ليرتاح... ظلّ يتنسمّ عبق الشاي بينما يرتشف كل فينة قليلاً منه, ثم هتف وهو ينظر إليّ..

_ لا يصنع الشاي مثلك أحدٌ أبداً يا فاتن! أحبّ الشاي من بين يديك ايتها العزيزة...

نظرت إليه بارتباك ثم إلى (فؤاد) الذي اخترقت نظراته الزرقاء الغيورة روحي... فلقد كان يراقبني بعينيه طوال الوقت ويرقب أخاه في كل حركةٍ و كل نظرة... كنتُ اتحرج كثيراً من التحدث أمام (فؤاد) كما كنتُ سابقاً أتحدث مع أخيه لماً كنا شباباً صغاراً، نمزح ونتحدثّ دون أحراج، وخصوصاً، بعد أن اكتشف (فؤاد) فعلة أخيه معي... ورغم أنّه قد سامحه, وسمح له بالبقاء في منزلهِ لكنّ ذلك كان دافعاً إضافياً_ لزيادة عذاباتي وتأنيب ضميري_ وخاصةً وأنا أرى نظرات (أمير) الخاصة لي كلمّا صببتُ له الطعام أو حملت طفليه أو جلسنا سويةً معهما...

كانت نظراته مزيجاً من شوق وحبّ وشغف ....

وكأنه كان يقول لي فيها انه سعيد بكونه قربي, وأنه مشتاقٌ أن أكون قربه.....

ولو لليلة واحدة.....كل نظراته كانت تتحدث بذلك, رغم أني كنت أصدّقها وأغيّر موضوع الكلام , إن حاول هو أن يشير الى اشتياقه إليَّ بأيَّ طريقة .....

ورغم كل محاولاتي.... ورغم كل شيء.... فقد استطاع في تلك الليلة التي كنت فيها أريد الذهاب الى غرفتي حيث وجدت فؤاد نائماً, أن يعترض طريقي, وكان للتو قد خرج من (غرفتنا), وهو الذي اخبرني ان فؤاد قد نام .....

_ لقد نام (فؤاد)قبل قليل .....أكملت له علاجه الطبيعي واعطيته ادويته بعد أن غسلت له في الحمام .....هل تحتاجين شيئا !!.....

_ كلا يا أميـــــــــر! أنا ممتنة لك للغاية .....

لا أعرف ما أقول !

_ ما هذا الهراء ! لا تقولي شيئاً, دوماً تشكرينني وكأني غريب !

أنا أخوه وابن خالتك ! ونحن منذ الطفولة قد عشنا سويةً

فعلام الشكر يا عزيزتي!!!!.....

_ لا أعرف ماذا أقول ..... لستُ أدري ماذا كنتُ لأفعل لولاك !!

فأنت قد كرست نفسك لرعاية (فؤاد) في مرضه, وكذلك تساعدني في أكثر من هذا ..... أنا ممتنة لك للغاية يا(أمير) .... وعملك في الشركة تضرر أيضا وقد وكلت مديراً للأعمال عنك لأجلنا!ماذا اقول !

_ حقاً! ..... وماذا في ذلك !أنا أشرف على أعمال الشركة ولا أتركها بين يديه, لأنّ عليّ متابعة سير الاعمال من شركتي ..... حقاً يا فاتن! نسيت!

هل تحتاجين نقوداً... قولي فوراً,لقد نسيت ان أسالك خلال هذين اليومين!!

كنت مشغولاً في عملي لأنني لا اريد لموظفيّ ان يظنوا اني اهملتهم!

_ أميـــــر !! كلا! انت تأتي بكل ما نحتاجه ! لستُ بحاجة لشيء ما ابداً!!مطلقاً ! لقد أغرَقتني أفضالك!

_ فـاتن ! كفي عن الكلام ! ليست بيننا أفضال!

قال فجأة بصوت رخيم وأمسك بذراعي لمّا كنتُ مشيحةً بوجهي عنهُ كي لا تلتقي عيناي بعينيه اللتين كانتا تلتمعان ببريق عجيب كلّما نظرتُ اليهما _ أو لربما كنتُ أتخيل ذلك كما كنتُ أوهم نفسي وأقرّعها كل حين .....

_ أنت تعلمين كم أحبّك ! تعلمين أني .....

وصرّ على أسنانه بينما شدّ على قبضته فوق ذراعي وقربني منه, فرفعت عينيّ باتجاهه, لأجدهما تقدحان شرراً.....

_ أنا أحبك وأنت تعلمين ذلك ! ولن أنسى حبك أو أتوانى عنه يوماً أو لحظةً ما!

هل تفهميـــــــــن !!.....

أنا سأظل قربك حتى لو كنت ظلاً لفؤاد ! حتى لو كنتُ لا شيء بالنسبة لك...
سأظل قربك ولن اتركك.....يكفي انني في ساعات عملي وانا في شركتي تلك, أظل أفكر أنني سأعود الى منزلٍ فيه (فاتنتي) التي ستصب لي الطعام من يديها
وستضع طفليّ في حضني, وهما يذكرانني بأجمل ليلةٍ قضيتها في حياتي مع حبّ حياتي الأبدي!
_ أميـــر ! أرجوك ! كفى !
صحتُ بألم وقد تقافزت الدموع من عينيّ.... نظراتي كانت تصرخ غضباً وأنا أبعد ذراعي عنه بالقوة.....
_ أعتذر منك!!
ترك ذراعي فجأة وأطرق برأسه وهرب بسرعةٍ من أمامي بينما كان جسدي كله يرتجف من هول الموقف.....
لم استطع ان ادخل الى غرفتي لأرى (فؤاد), لأنني شعرت (بخيانتي لهُ) رغم انه لا يدري بما جرى .....
شعور خفيّ باطنٌ بالذنب كان يمزق قلبي, ولم اكن اعرفُ كنهه أبداً....
لكنني مع مرور الايام عرفت سرّ ذلك.....

الفصـــل الثـــالث

هل شعوري بالذنب اتجاه (فؤاد) كان فعلاً لأنني قمتُ بشيءٍ خاطئ ...
لم اعلم ماهية الامر حتى تعافى (فؤاد) وغاب (أمـــير) عن المنزل لأشهر بسبب افتتاح فرع جديد لشركة مونتريال, حيث ذهبت لأتعاقد مع شركة حجابات وجلابيب إسلامية هناك ذات مرة لمّا كنتُ طليقة (فؤاد) قانوناً فقط وليس شرعاً.....
ولما كان (أمير) يرعاني بمباركةٍ من اخيه وتوجيهٍ منه.....
عدنا أنا وفؤاد الى الدوام مجدداً ورجعنا الى عهدنا السابق نتسابق فوق مدرج الجامعة, لكننا لم نعد (نركض فعلا)
فقد كبرنا كلانا!!..... أصبحت (فاطمة) و(فؤاد) في العاشرة من عمرهما بينما كبرت (روزالي) تحت كنف ولدي الأكبر (فارس) الذي حمل صفات والده الوراثية الخارجية كلها فأصبح نسخة طبق الأصل منه, وأصبحت(روزالي) بعد عامين من السكن معنا كأبنة لنا جميعاً في السابعة من العمر.....
أما أنا في تلك المرحلة, على حسب ما أذكر وليس بوجه التحديد فقد ناهزتُ الخمسين من عمري, بينما اصبح (فؤاد) الغالي في منتصف الستين او اكثر من ذلك, لا أذكر بالضبط, ولكنهُ اصبح متعبا للغاية بسبب مرضه, ولا يستطيع ممارسة الرياضة كما كان سابقاً أيام شبابه لما بلغ أشدّه في الاربعين, فحقن الانسولين قد انهكتْ قواه, وبسبب عدم التزامه المستمر بالحمية الغذائية الخاصة بمرض السكري فقد تعرّض لأزمةٍ قلبية وانسدادٍ في شرايين القلب كما ضعف بصره وضعفت عيناه الجميلتان اللتان طالما اسرتا قلبي بحنان نظراتهما ودفء أشعتهما رغم لونها البارد
احتضنته كطفل صغير ونحن جالسان نشاهد التلفاز بينما صعد (فارس) حاملاً (روزالي) بين ذراعيه ليضعها في سريرها لأنها نامت فوق الاريكة بينما كانت تتابع التلفاز في الصالة مع اطفالي ..... كانت (فرح) تزورنا مع زوجها _ابن هاني_ بين الفينه والأخرى, لكنها كانت قد انشغلت بعائلتها وحملها بعد سنوات من عدم الأنجاب بطلب واتفاق من ومع زوجها كي يؤسسها حياتهما أولاً قبل انجاب الأطفال.....
(فؤاد) و(فاطمة), كانا يتابعان برنامجهما المفضل مع (روزالي) ابنة عمها,عندما غفت

الاخيرة فوق الاريكة فجاء (فارس) الى المنزل وسأل عنها, وكان قد خرج برفقة اصدقائه خارج المنزل, فوجدها نائمة.....حملها بهدوء ورأسها فوق كتفه وبين ذراعيه فضمّت رقبته بذراعيها.....

نظرتُ الى (فؤاد) وضممتهُ اليّ وهو ينظر باتجاهي بعدما صعد (فارس) الى الطابق الاعلى وتبعه بنظراته..... ذهب (فؤاد) الصغير و أخته الى غرفتهما وألقيا علينا تحية النوم, نظرتُ الى (فؤاد) بحبٍ وحنان وضممتهُ الى صدري وبين ذراعي...

_ حبيبي الغالي ....كيف هو قلبك الأن .... هل يؤلمك أيضاً!!!

_ أشعر بوخزات مستمرةٍ وألم يذهب ويعود كل حين.....

_ شافاك الله وعافاك ايها الغالي ولا حرمني الله منك.....

_ حبيبتي ..... لا حرمني الله عطفك وحنانك.....

قال بصوته الرخيم الحنون .... تلاعبتُ بخصلات شعره السوداء بأناملي, كما كان يحبّ أنْ افعل عندما سمعتهُ يقول لي فجأةً.....

- لماذا لم يعد(أمير) الى المنزل حتى الأن... لقد طالت سفرته!!

دقَّ قلبي بقوة .... رفع (فؤاد) رأسه نحوي لينظر الى عينيّ.....

وكأنه شعر بدقات قلبي المتسارعةٍ.....(ماذا حدث لي)!!

_ هل حدث شيء بينكما ! لماذا ارتبكتِ يا (فاتن)!!

هتف بصوتٍ آمر مستفهمٍ حازم... ارتبكتُ وتهدج صوتي ....

_ كلّا ! وهل هذا سؤال تسأله يا (فؤاد)! ماذا تعني!

بعد هذا العمر كلّه ! ماذا يمكن أن يحدث ؟! هل أنا طفلة ! مراهقة !

_ انتِ لم تكبري البته!!!

هتف بصوتٍ تشوب نبراته الغيرة التي نَطَقتْ بها نظراته الزرقاء وهي تتوجه اليّ كسهام قاتلةٍ مصوبةٍ نحو قلبي....

_ فؤاد! هل تتكلم بجديه! هل تتهمني في شرفي

نهضتُ بغضب من جواره اعتدل في جلسته

ورفع رأسه .....

كلا! أنا اسألكِ ان كان قد حاول القيام بشيء ما وذلك مقصد كلامي ! لاتحوري الكلام ! لماذا ارتبكتِ لمّا سألتكِ عنه , وأصبحت عصبية فجأة ؟!

فؤاد! أصبحت غيوراً الأن وكنت لا ترضى لي ان اغار عليك من قبل !وممن ! من أخيك الذي رعاك !

_أخي ! أخي الذي انجبتِ منه طفلين ! أليس كذلك !
هتف فؤاد بغضب وهو يصرّ على أسنانه.....
نظرت أليه بدهشة وسالت الدموع من عينيّ دونما أرادة وأنا لا أصدق ما تسمعه أذُناي .....
هل لك ان توضح مقصد كلامك !
_ لم أقل شيئاً لم يحدث لقد حدث لمّا كنتُ فاقداً للذاكرة في مكانٍ بعيد حيث ظننتم جميعاً أنّي متّ ولم يعد لي ذكر أو عودة !!.....
ثمّ لماذا ترتبكين عندما أجذب انتباهك إليه!!! ولماذا تغضبينني ؟!
من حقي ان اسألكِ, وارتباكك دلالة وجود شيء ما بينكما !
_فؤاد ! أرجوك ! أنت تقتلني ! وتقتل كلّ شيءٍ جميل بيننا!
_ هه ! حقاً ! لماذا باللهِ عليك ! هل كفرت أذاً أم انني جلبت أسم شيء مقدس لا يجوز لي ذكره ! أوَلمْ تكوني تحاسبينني على ذهابي لرؤية صديقات سابقات
لم تعد تربطني بهنّ أيةُ رابطةٍ سوى زمالةٍ أو مصلحة عمل !هه! ثمّ, أولمْ تكوني تتبعيني حينما ترغبين وبمجرد أن تشعري ان هناك انثى غيرك في دائرة اتصالاتي أو إنْ رنّ هاتفي باسم صديقةٍ ما!؟
_فؤاد ! الفرق شاسع !!
_ قولي لي ماالفرق! أولم تكونا معاً أنتِ وأمير ! وعلى فراشي!! قولي لي انني مخطئ ! هيا, اجيبي !!
_فؤاد ! رحماك يا رب ! لا أصدق انك تكلمني هكذا!!!!!!
ضممتُ وجهي بيدي واجهشت بالبكاء.....
_لقد تغيرت كثيراً يا فؤاد خلال هذه السنوات واصبحت لا تطاق ابداً ! ابداً ! عصبي ..... انتقادي لاذع ! لم اعد اعرف كيف أرضيك, وبشتى الوسائل أبذل كل جهودي وأراها تقابل بالجحود والنكران.....
_ حسنٌ ! قولي لي ما الذي تفعلينه لأجلي بالله عليك ؟
أن لم اعجبكِ فاتركيني ! سترعاني ابنتي وولدي فارس !
أذهبي, فلستُ بحاجةٍ لشفقتك عليّ يا (فاتن)!
_ فؤاد ! فؤاد ! أنت ! ماذا تقول !
_ نامي في غرفة امير !
قال بلهجةٍ امرة وهو يوجه اليّ سبابة يده وعيناه تقدحان شرراً, ثم التفتَ وهو يصعد السلم تاركاً أياي في حالةٍ صدمةٍ وذهول.....

_ أو على الأحرى, سأترك لكِ الغرفة واذهب لأنام في الغرفة التي خصصناها لأمير,الذي لا ترضين ان اذكره ابداً .... خوفاً على مشاعرك الدفينة ان تظهر أمامي!
هتف وهو ينظر اليّ شزراً ثم صعد السلّم غاضباً.....
انكفأت على نفسي وسقطت فوق الأريكة باكيةً بصمت.....
شعرت في اعماقي الدفينة أنّ كلامه قد قتلني وأسقطني من مرتفع شاهقٍ حتى الارض, حيث تحطمت روحي الحزينة وحيث وجدتها قد تشظت الى الاف الشظايا.....
لقد اصبح (فؤاد) خلال سنواته الأخيرة عصبيّ المزاج للغاية وصعب الإرضاء جداً .....
كنتُ اتحاشى ازعاجه او التحدث اليه في اي موضوع يزعجه, لكنْ, أن تصل به الجرأة أن يتهمني بشيء لم اقم به ولم أفعله مع اخيه, كانت تلك هي الطامة الكبرى,
بكيت وبكيتُ حزناً على نفسي .....أوَ بعد ذلك العمر كلّه ... أجدْهُ يستخونني ولا يثق بي ....
بقيت باكية حتى غلبني النعاس فوق الأريكة فغفوت قليلاً لأنهض فجأة على أثر يدٍ كانت قد حطّت على كتفي بينما انا منكفئةٌ على نفسي..... رفعت رأسي لأجد (أمير) !!!!!
_ رباه !! أمير ! متى وكيف؟!
_ لقد عدت من السفر قبل قليل وقلتُ لنفسي ان آتي هنا لأبيت في منزلكم, فدلفت بنسخة المفتاح التي اعطانيها فؤاد مسبقاً! ماذا بكِ يا فاتن !!
انهضي لتنامي في غرفتكِ! هتف (أمير) بصوت
حنون ودافئ....
_حمداً لله على سلامتك ! لقد طال غيابك يا امير!
هتفتُ بصوتٍ يشوبه الاشتياق وأنا أحاول النهوض لأرحب بقدومه عندما تذكرت اني كنت بلا حجاب, فارتبكت واسرعت بوضع غطاء ملقى على الاريكة فوق رأسي,فانتبه أمير للأمر وارتسمت ابتسامةٌ ساخرة على شفتيه و كأنه يقول لي بها (لا يهمنّي حجابك ! فأنا أحفظك عن
ظهر قلب)!! وكأنّ نظراته أشعةٌ سينية تخترق المعادن وتكشف ما خلف الجدران الحديدية !!
فما بالكم بحجابي البسيط !! لم أعدْ اعرف ما أفعل أمامه ....
تلعثمتُ وانا اقول له متداركةً الموقف.....
_ هل انت جائع ! هل اعدُّ لك الطعام !
_ كلا !فاتن الغالية !
إذهبي لترتاحي ! أهمّ شيء هو راحتك عندي .....أرجوك.....
نظرت اليه بامتنان واسرعت بالذهاب نحو السلم لأصعد نحو غرفتي انا و
(فؤاد)..... لمّا فتحت الباب ودلفتْ, اسرعتُ أتفقدّ سريرنا , فلم أجد (فؤاداً) هناك .....

دقَّ قلبي بقوة ..... وشعرتُ بذعرٍ كبير ....(سوف يعلم اذاً) هتفت في سريرتي وذُهلت كيف تظافر توقيت مجيئهِ مع ابتداء شجاري مع اخيه ..... لم افهم لماذا غاب طيلة تلك الاشهر, لكنني كنت في أحيانٍ كثيرة وأنا اغسل الصحون, أو أعدّ الطعام, أذكر كلماته الاخيرة قرب باب غرفتي وهو يحدثني عن مقدار حبّه لي, حيث اختفى بعد ذلك من كل مكان حولي, ولم أرهُ صباح اليوم التالي!!

الفصـــــل الرابـــــــــع

في صباح اليوم التالي, نهضتُ لأجد سريري فارغاً, ليس فيه (فؤاد)!!....
شعرت بالغرابة وبذعرٍ داخليٍّ خفي.....
تعودتُ منه احتضانه لي كل صباح وان اقول له أنني (أحبّه) حتى ونحن بذلك العمر,وقد كبرنا معاً ومع تقلبات مزاجه .....
نظرتُ الى الساعةِ فوجدت الوقت مبكراً وهناك متسع من الوقت لأنهض واعمل الفطور وأوقض الاطفال وأرتدي ثيابي بعدها لأذهب الى الجامعة ....فجأةً فُتح باب غرفتي ودلف (فؤاد) الذي ارتبكت نظراتُهُ لمّا التقتْ بنظراتي المعاتبة.....
أبعدَ عينيهِ بسرعةٍ عني وذهب نحو خزانة ملابسه ليرتدي ملابس الدوام ....
قررتُ أن أُلغي كبريائي (كما اعتدتُ طوال فترة مرضه الذي تفاقم عليه لمّا تورمت ساقاه)....
_ فؤاد ! سأعمل الفطور, فلا تذهب قبل أن تتناوله !
لم يجبني وتعمدّ التجاهل , فنهضتُ غاضبةً وذهبتُ لأعداد الطعام عندما اصطدمتُ بـ(أمير) الذي خرج من الغرفة المجاورة , حيث كان (فؤاد) نائماً بالأمس , فنظر اليّ نظرةً عرفتُ منها مباشرةً أنهّ قد علم أن هنالك خطباً ما بيني وبين (فؤاد)...ألقى عليّ تحية الصباح ... كان رغم كونه في منتصف الخمسين من العمر تقريباً , لايزال محتفظاً ببنيته العضلية وقوته , وكأنّه شابٌ في الثلاثينات من العمر !! كنت أراهُ في نظري آنذاك أكثر رجولةً من أية مرحلةٍ عمريةٍ أخرى !
_ حسنٌ ! هل نمت جيداً يا (أمير) !
_ نعم ! شكراً يا فاتن ! ولقد اندهشتُ لوجود شخصٍ ما ينام في سريري !

قال ذلك وهو ينظر اليّ بنظرات ذات مغزى , فقلت:
_ اذاً ! أين نمت يا (أمير) !!
_ أين ! طبعاً بجواره ! (وأشرّ برأسه نحو باب غرفتي)....
_ اه ! رباه ! لقد اصبح (فؤاد) عصبياً للغاية ولم أعد اعرفُ ماذا دهاه ! لا أجادله ولا أناقشه .... عصبي جداً !
_ لا بأس يا فاتن ! عزيزتي , لقد احتضنته ونمنا سوياً !
قال أمير ساخراً ليدفعني الى الضحك , وبالفعل فقد كانت حركاته الساخرة وأسلوب طرحه للكلام دوما ما تضحكني جميعاً ,فانفجرت بالضحك معه , عندما وقف (فؤاد) أمامنا وقد ظهر من خلف الباب واجماً ,وقد لذنا بالصمت ونحن ننظر إليه ... هتف (أمير) بعد دقيقة متداركاً ....
_ صباح الخيرات يا أخي !
_ صباح الخير يا أمير ...
_ هيا لنتناول الفطور ! سوف لن اتأخر في اعداده .....
هتفت بهما لأبعد عنهما واتدارك الموقف بسرعة بينما تركتهما يتفاهمان وحدهما ويقضيان على أي أرتباك او موقف محرج لا طاقة لي بتفاديه أو القضاءِ عليه !!
عندما اخذتُ اعدّ الشاي وأُقلّي البيض , سَرَحَت افكاري بعيداً ,ووجدتني أتخيل وجه (أمير) أمامي وهو يبتسم ويهوّن عليّ إحراجي .... شعرتُ بوخزةٍ في ضميري وصحتُ بنفسي ...
(كفى! لماذا تفكرين في (أمير) وماقاله ومافعله معك...
عليك التفكير في (فؤاد) فقط !! هو حبّ حياتك وزوجك ووالد طفليكِ , و(والدك) ان صحّ التعبير ومن رعاكِ دهراً).....
وكتمتُ تنهيدةً خرجت من صدري حسرةً على نفسي عندما تخيلتُ شكلَه وهو يصرخ بوجهي ويهددني أن لا أنام بقربه , بحركةٍ من أنامله أشعرني معها أنه يتقزّز مني ...شعرتُ بالعار وذهبتْ افكاري بسرعةٍ دون ان ادري الى تلك الليلةِ التي اقتحم (أمير) فيها غرفتي وأصبحتُ أماً لطفليه التوأم .... حاولتُ جاهدةً ان اجدَ ثغرةً اقرّع فيها نفسي وألومها , فلم اجد ... لأنني لمّا استذكرتُ ذلك , لم أجد ابداً نفسي مذنبةً في شيء ... فأنا قاومتُهُ بكلّ ما أُتيت من قوة ! لم أستطع فعل شيء ....شعرتُ فجأةً بالعار وطردتُ تلك الذكريات من رأسي وأنا اقلّي قطعاً من (الهمبركر) بعد أن وضعتُ صحن البيض المقليّ

على مائدة الطعام بينما كان الشاي فوق نارٍ هادئةٍ وتحته شبكة حامية كي لا يؤدّي فوران مكوناته الى ذهاب طعمه اللذيذ في بداية إعداده وتحضيره ....
اعتصر قلبي وانا اذكر فجأةً كيف اصبح (فؤاد) يصرخ بي ويحاسبني بشكل مستمر _ انْ كلمت هذا الاستاذ الجامعي أو ذاك _ كنت اعذرُهُ كلّ حين واعلم انّ غيرتَهُ تلك , دلالة حبِّهِ لي , ولكنّني أصبحتُ اتألم كونه لم يعد يناديني (فاتنتي) ! ولم يعد يراعي مشاعري لمّا أبكي بسبب مزاجِهِ المتقلب .... فعندما أضع له طعاماً خاصاً بنظام السكري ينظر اليه لبرهه ويسأل عن ماهيته ثم بحركةٍ من أنامله, يشير اليّ ان احملَهُ بعيداً عنه ... وعندما اسأله بعد ذلك ما الذي يريدُ أن احضّره له , فلا يجيب ... وذلك ما يُشعرني بالاحتقار والإهانة .... ولمّا الحّ عليه , ينظرُ بغضبٍ ويصيح بلهجة آمرة ...
_ دعيني وشأني يا (فاتن) أنا رجلٌ مريض ولا فائدة مني !
كان ذلك التقلب في مزاجه قد ازداد بعد حادثة تورّم قدميه بسبب مسمار دخل في احدهما بينما احترقت باطن قدمه الأخرى دون ان نكون على علمٍ بذلك وهو يدفؤها في ليلة شتاءٍ قارصة البرد أمام المدفأة جالساً فوق كرسيّه الأثير جلسته الملوكية))
تلك مستنداً بذراعه الأيسر الى ذراع الكرسي الوفير , بينما رأسه مسندٌ الى يده الأخرى وكأنّه غارقٌ في تفكير عميق .... لم يشعر (فؤاد) بما جرى له , لم يعلم بإصابة باطني قدميه بسبب تلف في أعصابه الطرفية وذلك عائدٌ الى ارتفاع في نسبة السكر في دمه , وإهماله مراجعة الطبيب وعدم انتظام في طعامه.....
تورمت ساقاه بعد مدّه ولم يستطع السير , فذهبنا به الى الطبيب لنكتشف انّ لديه (ساق سكري) ..... لقد اثّر ذلك الوضع في نفسيته الى حدٍ كبير ... ولقد تحملت نزق طباعه قدر الإمكان , وكنت لااجادلهُ , ولا أُجيب عليه , إلا بنعم وحاضر .... ورغم خضوعي وعدم مجادلتي إياه ولو بكلمةٍ واحدةٍ مراعاةً لمرضِهِ وحبّاً له , إلا إنّه كان يزدادُ عصبيةً ونزقاً في خلقُهُ , بحيث لم اعد اعرفُ كيف أُرضي تقلبّ طباعه ....فعندما أُخرجُ له ثيابه , يرميها على الارض ويقول بأنهُ يريد غيرها لأنهُ قد ارتدى بالأمس شبيهاً لها , ولمّا أقوم بإلباسه جواربه , لا أرى منه شُكراً أو اعترافا برعايتي إياه .....
(لقد تغيرتْ يا (فؤاد) للغاية وأصبحتَ شخصاً لا أعرفه!)....
هتفتُ في سرّي وأنا أُخرج قطع (الهمبركر) بينما وضعتُ شرائح الـ(توست) في جهاز تسخين الخبز .....
دلف (فؤاد) الى المطبخ , التقت عيناه بعينيّ , حاولت أن أستقرأ منها حباً أو عطفاً أو

(ندماً) لما فعلهُ معي بالأمس , لكنني لم أجد شيئاً من ذلك , فأبعدتُ نظراتي عنه لتلتقيا بعيني أمير اللتين كانتا تشعّانِ حباً واشتياقاً وكأنه يقول لي : (صباح الخير يا حبيبتي ..... لقد اشتقتُ الى النظر اليك في الصباح عند الفطور والأكل من يديك ...)
وبالفعل فقد عبّر عن جزءٍ من ذلك وهو يتناول الطعام برفقة أطفالي وتوأمه مع (فارس) الذي جلس بجوار (روزالي) .....
كانت عيناه تنطق حبّاً .... (لكنْ , رحماك يا رب) !!
هتفتُ في سري وضميري يؤنبني ....(لقد اصبحتِ امرأةً مسنةً يا فاتن ,وما عادت قصص الحبّ تليق بك , وعليك مواصلة رعاية (فؤاد) وعدم التفكير ولو للحظةٍ بنظرات (أمير) أو اهتمامه , أو كلماته ...)....
_ يا له من فطور مميز ! الله ! الله! يممّي ! يممّي ! هتف أمير بحماس وهو يحتسي الشاي بينما يضع قطعةً صغيرة من الهمبركر بواسطة الشوكة في فمه ويمضغها ....سرحت أفكاري بين تناقض شقار خصلاته المنسدلةِ على كتفيه وعينيه السوداوين,وعادت إليّ نفسي عندما تأملت بينما كنتُ اصبّ الشاي لطفلي، كم هو يشبهُ (فؤاد) في جمال تقاسيم وجهه، بأنفه المستدق ذلك وحاجبيه العريضين وفمه الذي يرتسم بشفتين رفيعتين أسفل ذلك الأنف المستقيم الرفيع... كانا كالتوأم، وهما يجلسان بقرب بعضهما... رفع(فؤاد) نظراته نحو أخيه بعد ملاحظته الأخيرةِ تلك وهتف به وهو يبتسم...
_ لماذا غبتَ عنا يا (أمير) ! لقد افتقدتك! حتىّ أنك لم تتصل بي ! ماذا جرى بالله عليك... خبرّني ...
_ أوه, فؤاد ! لقد فتحت فرعاً جديداً لشركتي وكنتُ مشغولاً للغاية, ولقد أرسلت لك رسالة الكترونيه بذلك...
_ نعم لكنك لم تحاول الاتصال طوال تلك الأشهر على غير عادتك, حتىّ أنك لم تسأل على طفليك التوأم
ابتلع(أمير) لقمة بسرعه ليدافع عن نفسه وقد بانَ الاحراج في عينيه اللتين ارتبكت نظراتهما وهما تلتقيان بنظراتي بينما قدمت له الشاي بعد نفاذ كوبه منه....
_شكراً لك يا (فاتن)! حسناً , (فؤاد) ! انا ...
_على كلِّ ..... لابأس !
هتف (فؤاد) وهو ينظر الى عينيهِ مباشرةً وكأنه قرأ كل شيءٍ فيهما ...
نظر (أمير) الى أخيه بدهشة لبرهه , ثم صمت عن الكلام واستمر بشرب الشاي ليتلافى احراجه....

عندما خرج الاطفال من المطبخ , ولمّا وقفتُ لأغسل الصحون , على عجل كي أذهب إلى الدوام , سمعت (فؤاداً) يكلم (أمير) في الصالة القريبة جداً من المطبخ...
_حسناً! أنت تحبها يا(أمير) ! ذلك واضح ولستُ غبياً ياأخي! أنا احفظك عن ظهر غيب! وكلّما تختفي فأنت تهرب من نفسك ....
تهرب مني ومنها ... تحاول إن لا تحرجني , أليس كذلك ! أنا اعرف كل شيء واقرأ الواقع !
_ ماذا تقول بالله عليك يا (فؤاد) !
_ أريد ان اعرف فقط ! هل هناك شيءٌ بينكما مؤخراً دفعك للمغادرة هكذا بدون سابق انذار ... أصدقني القول ! انت تعرفني , لنْ أفعل شيئاً , فقط أريد أنْ اعرف حقيقة مشاعر (فاتن) اتجاهي الان!
_رباه ! (فؤاد) !! أَوَ تشكُّ في إخلاص (فاتن)! اوَ لذلك وجدتك بالأمس نائماً في غرفتي !!
_ كفّ عن المراوغة في الكلام يا (أمير) !! أنا لا احب كثرةَ الكلام! اجبني بصدق مثلما تعودنا البوح بكل اسرارنا لبعض يا (أمير) !
أنت تعرف كم انتَ قريبٌ مني ! فطوال عمرنا , كنّا أخوين وصديقين في آن معاً
_ فؤاد !
هتف أمير بصوت حانٍ وحاولت ان انظر اليهما لكنّ ذلك كان معناه , ان يراني فؤاد , فوقفت في مكاني , ثم جلست فوق إحدى المقاعد في المطبخ منهارة القوى...
_ أخي ! عليك ان تفهم شيئاً واحداً ! فاتن تحبّك ولم ولن تنظر الى سواك !!
نعم ! لقد... سولت لي نفسي ان احدّثها عن حبّي لها في تلك الليلة ... لكنّها صدّتني كما كانت تفعل , لأجلك ! أوَ ترى , أنا اكرهك وأحبك في آن , فأنت اخي وغريمي !!
لاذ الأثنان بالصمت ولم يتكلم (فؤاد) بعدها , عندما هتف أمير ...
_ فعلا أنت تعرفني . وقد هربت من هنا ولم اسأل حتّى عن طفليّ...
أنا لا أبُالي بنفسي دون أنّ اشعر ان(فاتن) بخير ...لا أعرف... أنا مجنونٌ حقاً ... لكني سعيدٌ لأنها معك , وحزينٌ لأنك اخذتها مني في نفس الوقت !!(فؤاد)....إرحمني! انا اسف ! انا اسف ! ولكنيّ لا أستحق ان اعيش تحت سقفك في بيتٍ واحد , لانني ... لأنني ... أحب زوجتك ! أحبّها ! احُبّها حبّاً جنونياً ... لا أستطيع ان انساها لما أكون مع أمرأةٍ اخرى ! لا أستطيع , مطلقاً !! بعد كلّ هذا العمر !...
_ أمير ! كفى ... أرجوك !

_ هل انت غاضبٌ مني أكيدٌ أنك كذلك ! سآخذ طفليّ وأرحل من هذا المنزل ذلك افضل لكلينا ...
_ لا داعي ان تأخذ طفليك فهما بحاجةٍ لوالدتهما وهي ايضاً لاتستطيع الاستغناء عنهما...ثم عليهما أن يعيشا مع اخيهما الاكبر كي تبقى صلة الأخوة والمحبّة متأصلة فيهما ...
_ نعم سأرحل لوحدي ! أنت محقٌ يا(فؤاد)! نعم ...
_أمير ! من قال لك أن ترحل ! أنا بحاجةٍ ماسةٍ لك يا أخي ... فالمرض اخذ يأكل جسدي .... أنا متعبٌ جداً , ولم اعد قادراً حتى على تمالك أعصابي ....
_ فؤاد ! أنا أفديك بروحي يا أخي الأكبر ... (صَمَت الأثنان)
_أرجوك ! (فاتن) أمانةٌ في عنقك... أعلم انني لربما لن أعمّر طويلاً....
_ لا سامح الله ! عمرك طويلٌ أن شاء الله !
_دعني أكمل يا (أمير) !
_ نعم ! أنا ...أنا آسف !...
_(أمير) ! أنا الذي اعتذر منك ... لقد اخذت حبَّ حياتك منك ... و(فاتن) إنسانهُ رائعة , فلقد تحملت تقلب مزاجي , وحتى أنني أتهمتها بالأمس بأنها , و.... إياك !... وارتبك (فؤاد) كما بان في نبرات صوته قليلاً ثم تابع ...
_لقد عَزُوتُ غيابك عنّا اليها ووجهت التهم اليها وانا أعلم أنها بريئة .....
لكني , اصبحت عصبياً جداً ...
_ نعم ... أفهم ذلك ...
_ أرجوك امكث معنا , وإن متّ أو حدث لي شيئاً ما , فأنا ابارك لك زواجك منها وأطلب منك رعايتها ورعاية ولدي الأكبر (فارس) , و(روزالي) مع الحرص على ابنتي الوحيدة (فرح) ...
_ رباه ! أفديك بحياتي يا أخي , لا تقل مثل هذا الكلام ! أرجوك !
_(أمير) ! أنا أشعر باقتراب موعدي ... إني مريض جداً ...!
_ كلّا ! لاتقل هذا ... أرجوك !
سمعت صوت النشيج , بينما وجدتني أذرف الدموع دونما شعور وذقني مستندٌ إلى باطِنِ كفيّ الايمن ...
(لماذا قال (فؤاد) هذا الكلام (لأمير)؟ ..... هتفت في سريّ بينما قلبي يعتصر ألماً عليه ولأجله وبسببه في نفس الوقت.... هتفت في سري ...
(حبيبي فؤاد)... لاحرمني الله منك , وأطال الله في عمرك ... أنا لن احُبّ

سواك ولن ارتضي ان اكون زوجاً لغيرك ...أرجوك أن تقاوم هذا المرض وأن تصمد , فهناك العديد ممن أصُيبوا به ويصابون , وهم مستمرون في حياتهم
بشكل طبيعي, فلماذا يا(فؤادي) يحدث معك كل هذا الألتهاب والانسداد في الشرايين و(الالتهابات في الاعصاب ! رحماك)....

الفصل الخامس

كان (فؤاد) قد أدار ظهره إليّ وهونائم .... تأملتُ شعرهُ الأسود من الخلف ومددت ذراعي لأحتضنه عندما التفتَ إليّ فجأةً ....كانت نظراته تتكلم وكأنّه يودّ البوح بسرٍّ خفي .....
_ ما الأمرُ يا (فؤادي)! تكلّم ... وكأن هنالك جبلاً فوق صدرك ! قل لي يا حبيبي ما الأمر؟ ؟
_ فاتن صغيرتي ! (هتف بصوته الحنون) .... أنتِ تعلمين جيداً كم أحبك وكم أحببتِك من قبل ...
_ لماذا تقول لي هذا الكلام الأن يا فؤاد ! ما الخطب؟!
_ أنا أُريد أنْ أقول لك شيئاً واحداً !
_ قل لي يا حبيبي , فأنا كلّي آذانٌ صاغية !
_ لقد فكرّتُ كثيراً في الأمر ... أنا يا (فاتن) قد ظلمتكِ معي كثيراً ... ظلمتك وأنا اتقلّب بمزاجي عليكِ وظلمتكِ بمرضي هذا الذي أخذ يتفاقم عليّ وأنتِ لا تزالين بحاجةٍ لمن يضمّك ويحتويكِ ويحبّكِ .... أنا اصبحت شبه عاجز ....
_فؤاد ! كفى كلاماً بهذا الشكل !أرجوك !
_ كلا! اسمعيني .... إنّ من يحبّ شخصاً يفضلّه على نفسه ... وأنا أحبك أكثر من نفسي , فأنتِ ... أنتِ ابنتي التي جاءت من العراق لتحيا بيننا , ربيتك بين ذراعيّ هاتين وكم من ليالٍ احتضنتك فيها وكأنكِ (فرح) , طفلتي....

ولمّا كبُرتِ أحببنا بعضنا , وعشقنا بعضنا , وتزوجنا عمراً كاملاً , تزوجت فيه (فروحة) وكبر فيه (فارس) .... لكنني الآن , أصبحتُ بلا نفع .... بلا فائدةٍ تذكر..
_فؤاد ! يكفيني أنك بقربي ,أن تضمنّي اليك كطفليك ...
هذه الساعة عندي تعادل الدنيا كلّها .... لا حرمني الله منك ....
_ فاتن ! انتِ تعلمين بسبب تقلب مزاجي وعصبيتي !....
أنا مريض , ولم اعد مثل (فؤاد) الذي كنتهُ .....قوياً, مليئاً بالشباب والحيوية ... حبيبة قلبي , لقد قررتُ قراراً لا رجعة فيه ... وأرجوكِ أن تتفهمي الأمر , ولا تضجري ....
_تكلم ! ما الأمر ! لقد اقلقتني !
_انتِ تعلمين كيف هي علاقتي مع اخي (أمير) ...
_ نعم .. أعرف جيداً ! لقد عشنا سوياً جميعنا ... كيف لا اعرفكما بالله عليك !!؟
لفّ (فؤاد) ذراعه حول جذعي وضمني أليه بقوة وهمس في أُذنيَ همساتٍ شعرت انّه قد كوى بها عنقي... ذرفت الدموع ونظرت اليه بألم وانتفضت غاضبة ... نهض (فؤاد) من اضطجاعه وجلس على السرير وظهره موجّهٌ اليّ...كانت أنفاسي لاهثة , واختنقت العبارات في فمي فلم أستطع أن أبوح بها أو أنْ أُخرجها ....لقد عرفتُ من نظراتِهِ تلك , أنّ لا رجعة لقرارِهِ ذاك, وأنّه قد قررّ قراراً حازماً وبدوم تردّد , كما هو طبعُهُ دوماً لمّا يقررّ أمراً ما...
_(فؤاد) !

هتفتُ بصوت تخنقه العبرات ....
_أنا لستُ موافقة ! القرارُ لا يعود لك فقط ...
_ أنا لا أستطيع الاستمرار يا (فاتن) ! أرجوكِ ! لا تعذبيني أكثر ... أرجوك .. ابتعدي ولا تدخلي غرفتي بعد الآن إلاّ كأبنة خالة ,وطليقة ... وزوجة أخ ... فقط ... وأيضاً أم عظيمة لطفليّ وذلك أمرٌ مفروغٌ منه غاليتي .... قال ذلك ثم اختنق بعبرته فجثوت عند قدميه أقَبلّهما ...
_أتوسل اليك ! لاتفعل هذا ... أنا أحبك يا (فؤاد) ! لا ....لا تتركني هكذا ... لنكمل مشوارنا سويةً....

_أنا لا أنفعك ! فاتن ! اذهبي فوراً .... لم أعد أنفع إلاّ للمرض ... أنا إنسانٌ عاجزٌ الآن ... لقد عاد التهاب الأعصاب الطرفيةِ إليّ مجدداً ولم أعد أقوى على الحركة مثلما كنت ... أنتِ لا تعلمين أني قد قدّمتُ على اجازةٍ لمدّة سنةٍ بلا راتب من الجامعة , على أمل أنْ أشفى- وذلك

أمرٌ مستبعد كما أظن – لأعود لتجديد عقدي مع الجامعة ....عزيزتي !... وجود (أمير) ضروري بيننا ... وأنا لاأتحمل رؤيته يتعذب ... ولا أتحمّل أن أراك تتعذبين بسبب سوء طباعي , فأنا ... أنا .... أعترف ,,, أنني أُسقط غضبي وعجزي كلّه عليكِ وفيكِ ... وذلك ظلم ... أنا لستُ (فؤاد) الذي رعاك في صغرك ولستُ (فؤاد) الذي يخشى عليك من الوقوع بين يدي رجل ظالم, أصبحتهُ أنا بنفسي .... كفى , كفى دموعاً يا حبيبتي ,ارفعي رأسك .... سيظلّ حبنا كما هو يا حبيبتي , فهل سيتغير شيء ... سأظلّ أحبك حتّى آخر نفسٍ لي في هذا الوجود ,يا أعزّ الناس .... أحبك !... و(احتضنني)...

الفصل السادس

هل من المعقول , بعد عمر طويل ,قضيتُ فيه أجمل سنواتِ حياتي مع شخصٍ أحببتُهُ بكل كياني وعنفواني , أنْ أترك ذلك الشخص , لأجله وبطلبٍ منه , كي يرتاح من تأنيب ضميره , وكي أرضيه فيما قررّ وطلب !!

لم أصدّق نفسي وأنا أدخل الغرفة التي خصصتها لأمير لمّا سكن معنا قبل سنوات طوال ... نمنا كأخوين كتلك المرّة التي تزوجنا فيها لليلةٍ واحده....كان (أمير) مندهشاً مثلي , مذهولاً , لا يلوي على شيء!...

فبعد قضاء مدّة عدتي بعد (تطليق فؤاد لي) وجدتُ فؤاد يرسل بطلب الشيخ ليعقد قراني على أخيه الأوسط , بمباركةٍ شخصيةٍ منه!!... كان الأمر اشبه بقصة خيالية , لم أستوعب ما يحدث لي رغم أنّي خلال أشهر عدّتي كنتُ أقوم بواجبي كلّهُ اتجاه (فؤاد) , من رعاية واعتناء وأعداد طعامه , وتحضير دواءه , وكأنّ شيئاً لم يحدث , لكننا لم نكن ندلف نفس الغرفة في المساء, وكذلك لم يعد (فؤاد) نزق الطباع معي , على الأطلاق ! نظر (أمير) أليّ وهو مستلقٍ الى جواري , نظرتُ إليهِ بدهشة وحرتُ جواباً لنظراتِهِ المبهمة ... ظلّ ينظر إليّ وأطفأ المصباح الجانبي بجواره ونام .....

بقينا هكذا , أنا و(أمير) , مجرد أخوين , وابني خالةٍ لا غير ... كلّ ما تغيّر بيننا , هو أنّي قد خلعتُ حجابي أمامه , ولم أرتده بعد ذلك أبداً! حتى أمام (فؤاد) ! وكأنني بعملي ذاك , كنت أقوم بردّة فعل عكسية , لأنني لم أصدّق كوني لم أعد زوجةً لفؤاد, شعرتُ بكياني مشتتاً متصارعاً مع ذاته, منقسماً على نفسه ....

هل أحببتهما كليهما ! لا أعلم !من احببت أكثر من الآخر , لا جواب ... لم أستطع أن اجيب نفسي وأنا بين ذراعي (أمير) الذي ضمنّي اليه فجأة في احدى المرات بعد مرور شهرين على زواجنا , وهمس في أذني , أنّه يعشقني حدّ الجنون ... كنتُ بحاجة للحب , بحاجةٍ للعطف ... بحاجةٍ لذلك الحضن الذي ضمنّي إليه , فلم اعترض ,
ولم أقاوم .....أصبحت مع مرور الأيام , أشعر بحبٍ شديد لهُ .. له هو (أمير) ! أمير نفسه الذي صددته عن دربي عدّة مرات .. (أمير) ألذي لم اكنْ انظر اليه اكثر من (أخ) أكبر مني بخمس سنين !! أصبحت فجأة مدللته التي لا يرفض لها طلب , وأصبح (أمير) يعاملني كـ(أميرة) !! أو بعد ذلك العمر كلّه , أعود الى الحب من جديد! ذلك أمرٌ لم اكن اتوقعهُ يوما ما.... فقد اخذني (أمير) الى (باريس) لقضاء (شهر عسل), ولمّا عدنا بعد سفرتنا تلك , وجدتني لا أستطيع الحياة بدونه...فهو لم يتغير تجاهي , بل زاد حبّاً لي ورعاية ...(نظراتي) عنده أوامر , وطلباتي (رغباتٌ مقدّسة لابدّ أن تنفذّ)... لكنْ... لكنْ... هل من المعقول أن اعيش هذه السعادة, و(فؤاد الغالي) ينظر اليّ من طرف خفي , وكأنّهُ يستقرئ كلّ ماحدث معي وتبدل مشاعري اتجاه اخيه, فأرى في نظراته الغالية المحبّبة إليّ , ناراً من الغيرة , زرقاء كأنها تخترق روحي ...كلّ نظرةٍ كنت أشعر بها , وكأنها خنجر يطعن قلبي لم اعد اعرف ماأفعل ,,, لم اعد اعرف من الذي احبّه أكثر , هو, أم (أمير) الذي اغدق حبّه علّي بشكلٍ لم اعتدهُ من قبل ولم أصدق أنّي اعيشه .... كيف اصدّق كلّ هذا الكمّ من الحبّ , وأنا التي عشت حياتي كلها في صراعات , منذ صغر سني ... فقد عذبني زوج عمي, ثم عشت صراعاً طويلاً ببعدي عن بيت خالتي , ثم عدتُ الى سجن عمي سبع سنين عجاف , ورجعت بعدها الى احضان خالتي , لأعاني من عدم بوح فؤاد بحبِهِ لي , ولمّا اعترف بالأمر بقيتُ أنا معذبةً لسنين , اخشى ان ابوح له بحبّي خوفاً من أن أكون زوجاً فعلياً لـ(حسام) الذي لم يك يملك من مقومات الرجولة شيئاً ... ولأنني كنت زَوْجَهُ شرعا ولشدّة جهلي وعدم وجود (أم) تعلمني مبادئ الحياة , فقد ظننتُ أني زوجٌ فعلية لـ(حسام) العتيد وبقيتُ أسيرة أفكاري الحمقاء الساذجة حتى اقتحم (فؤاد) تلك

الشباك الفكرية ومزقها بذراعيه, ليضمّني الى أحضانه ... ولكن... ما أن بدأت الحياة تبتسم لي حتى غاب عني خمس سنوات في حادثةِ سقوطه من فوق الجسر , وعشت معاناةً لاأُحسد عليها,,, لكنْ... قبل ذلك , كنت في صراعات مع معجباته, وحبيباته السابقات من الأميركيات , أو العراقيات المهجرات, أو المستوطنات اللاتي تعود أصولهنّ الى الشرق , وهنّ يتكالبن عليه , الواحدة تلو الاخرى , فلم أرَ في حياتي الزوجية إلا عواصف هوجاء,انتهت بمرض دمّر جسد (فؤادي) وحطّم نفسيته ...أو بعد كل هذا وذاك.... أجد نفسي ,أعيش حباً جديداً ... لقد جعلني (أمير) أُحبّه رغماً عني ... رغماً عني فعلاً قد أحببتهُ ... لكنّ قلبي لم يترك حبّ أخيه الأكبر , وخصوصاً وأنا أرى نظراته الحزينة, وهو ينظر الينا بينما يجلس أمير الى جواري على مائدة الطعام أو يناولني الطعام ويحاول أن يطعمني أحياناً بنفسه كما أعتاد أن يفعل عندما كنت مريضة .... فـ(أمير) عاملني معاملةً لا تحلم أمرأة على وجه الأرض بمثيلها .... شعرتُ أني (أحسد) نفسي ,
فجأة , بينما أنظر إليه وهو يضع شعري تحت خدّه ويقول لي....
_لا أستطيع النوم بدون احتضان خصلات شعرك الغالية يا حبيبتي ....أنت منية قلبي وحلم حياتي الذي تحقق ... أنتِ حبيبة قلبي وعمري كلّه ومن حلمتُ دوماً أن تكوني بقربي , فماذا أريد بعد سوى أن أشكر الله كل يوم في كل لحظةٍ تكونين فيها بقربي ....

غاليتي ... أنتِ حبي الأوحد ... معك , لا أريد ولا أحبّ امرأةً أخرى ... خَبَرْتُ مختلف النساء ولم أجد في قلبي حباً لسواكِ ... أنتِ فاتنتي التي أسرت قلبي منذ مراهقتي الأولى ....
لاحرمني الله منكِ... أنتِ توأم روحي ! قبّلتُ يديه وضممتها الى صدري ... قفزت دموعٌ من عينيّ, دونما أرادة ... لستُ أدري , لماذا, ولكني كنتُ في كلّ هذا وذاك , لا أفتؤ أذكر (فؤاداً) ... وأظلّ أستذكر لحظاتي معه ,وحبّي لهُ , وأشعرُ بذنبٍ عظيم ,لأني لم أعد بجواره ... كان خبر تطليقه لي كالصاعقةِ على رأس (فارس) و(فرح) اللذين دهشا واستفسرا عن الأمر , فلم أجبهما إلا بأنَّ تلك المسألة هي رغبة والدهما وأنني لم أكنْ راضيةً ابداً عن شيءٍ من ذلكم , إلاّ بإصرار منه وقرار حازم.....

الفصـــل السابـــع

كانت نظراته تلاحقني كسهام ليزرية زرقاء ... في تلك الليلة , وجدته ينظر اليّ بشكل غريب ... كانت (فرح) قد سهرت عندنا مع زوجها واحتفينا بحملها بطفلها البكر وسعدنا بمقدم (هاني) معهما , حين انّه قد سكن مع ولده بقربنا في منزل مستقل , وجلسنا كلنا , كعائلة واحدة سعيدة , نتجاذب أطراف الحديث ويضحك الأطفال حولنا , فشعرتُ بسعادةٍ لامثيل لها , وبأني لاأفتقر الى شيءٍ أبداً ... شعرت وكأنّي قد حققّت كل ماتصبو إليه نفسي , فدفء العائلة هو ما كان ينقصني دوماً, وبكوني قد أنشأت تلك الأسرة الصغيرة الكبيرة في آنٍ معا , فقد احسستُ بالرضا التام عن ذاتي , وبأني أشعّ حياةً وطاقةً ... ولقد لاحظتْ (فرح) ذلك عليّ لما جاءت لزيارتنا تلك الأمسية , أذ هتفت وهي تحتضنني وتقبلّ وجنتي بعدما نزعت قفازيها ومعطفها ...

_أماه ! أنظري , أنتِ تشعيّن جمالاً وطاقة ... وكأنك صغرت بالعمر عشر سنواتٍ وأكثر ! ماأجملك ياأماه ! قبّلني زوج ابنتي وابن (هاني) الذي غمز (فرح) قائلاً !

_ مرحى لي , إن بَقيتْ زوجتي بهذه النظارةِ والشباب عند الخمسين كأمها , سأكون أسعد زوجٍ في الكون وأكثرهم حظاً !!

_طبعاً هي كذلك وأكثر !(هتفتُ بسرعةٍ محتجةً عليه)... كنتُ سعيدةً بتلك الأمسية للغاية , وطفلاي التوأم يلعبان حولنا أنا و(أمير) الذي كان يحيط كتفي بذراعه وهو ينظر اليّ نظرات الحبّ والهيام . (التي لم ألحظ كيف كان فؤاد يتربص بها ويراقبها من طرفٍ خفي) .... وكان هاني يتجاذب أطراف الحديث مع فؤاد وهو يحتسي الشاي الذي قدمتُهُ لهما بعدما تناولوا جميعاً طعام العشاء الذي أعددته خصيصاً لتلك المناسبة ... كانت أعياد رأس السنة قد دخلت وتلك الليلة بالذات كانت عيد رأس السنة , عندما اتفقنا على الاجتماع سويةً كما كنا نفعل كل عام منذ كنّا في منزل خالتي ونعلّق الهدايا على شجرةِ الميلاد رغم أننا لسنا مسيحيين , غير إنّ خالتي كانت تحبّ إحياء تلك المناسبةِ جداً , ولقد زرعت حبها في قلوبنا جميعاً وهي تشتري الهدايا لنا وتخبؤها حتى الصباح لنا ولأجلنا ...ذهبتُ نحو غرفتي بعد أن غسلتُ صحون العشاء مع (فرح) ابنتي وساعدتنا روزالي في ترتيب الأواني بعد تنشيفها في مكانها المخصص ... كنتُ مرهقةً للغاية بعد يوم كامل من التسوق لإعداد هدايا لأطفالي , كما أني كنتُ قد اشتريتُ هديةً خاصة لــ(فؤاد) ولأمير ... شعرتُ برغبةٍ عارمةٍ في النوم ,فصعدتُ السلم على عجل ... وقبل أن أفتح باب الغرفة , شعرت بحركةٍ قربي ... التفتّ , فأذا بنظراته الزرقاء تخترق روحي ...

_ كـــــــــل عام ,وأنتِ بألف خير , أيتها الفاتنة .. حبيبة (فؤاد) كما كنت ادعوك ....

كانت نظراته ملتهبة بسنانٍ نارٍ أزرق اللهب ,ونبرات صوته مدوية وكأنها تختفي إعصاراً من الغضب ....

_(فؤاد) شكراً لك, وأنت كذلك عزيزي ...

_ عزيزك !! لا ! لم أعد عزيزك ... لم أعد حبيبكٍ .... لم أعد شيئاً يذكر بالنسبةِ لكِ ...

أنتِ .... أنتِ تحبين ذلك المدعو (أمير) ! وأنا السبب ! كلّ ذلك بسببي

_(فؤاد) ! رحماك يا ربي ! أنا لم أعد اعرف ما افعل ! أنت من جنيت علينا !!! أنت تعلم كم أحببتك!!

قفزت الدموع من عيني بينما أحاطني فؤاد بذراعيه واعتصرني بقوة ... حاولت الافلات ولكنّه فتح باب غرفة أمير ورمى بي فوق سريره وأغلق الباب خلفه وهو يصّر على أسنانه غضباً ...

_ ألم تشتاقي إلى (فؤادك) ! أم أنني أصبحتُ لا شيء !! أنتِ طبعاً لاتريدين (فؤاداً) لأنه مجرد رجل مريض عاجز!

_(فؤاد) ماذا جرى لك ! ... لقد توسلت إليك أن لا تطلقني ....أنتَ الذي رفضت ! أنتَ الذي دمّرت حبنا ولقد قلت لك مراراً وتكراراً وقبلّت قدميك وقتها أن لاتطلقني !أنت الذي...

_ هه ! كفى ...

وضع يده على فمي وكأنّه كان يتعمد إيذائي ليشعرني بما يعانيه من ألمٍ لغيابي عنه, فصمتّ

والدموع تسيل من عينّي....

_أنا احبك يا(فؤاد) وأنت تعلم! لاأزال أحبك ولم أنسى ذلك!

_حقاًّ! حقاً لاتزالين ! كيف ذلك... وأنتِ تنامين بجوار(أمير), وأراه يضع ذراعه على كتفك ويضمك اليه كلّ حين ويناديك بعزيزته وحبيبته, وتهرعين أنتِ إليه, بينما أصبحتُ أنا (نكرةً), بدون وجود ولا كيان ولا شيء يذكر!

_فؤاد ! أرجوك!!

_ أردت فقط أن أعرف, هل يلاطفك مثلما كنتُ أفعل... أنا فقط أطمئنّ عليكِ من باب الحرص لاأكثر تكلمي! لاتبكي!لا...لاتبكي !!.....هه, تكلمي! تكلمي! أيتها ألحقيرة ... أنت حقيرة... أخذ يصيح وهو يضربني على خدّي بكلتي يديه ودموعي تسيل مدرارا وأنا لاأستطيع الأفلات من قبضته القوية, ولاإخراج جسدي من تحت ثقل كاهله, وبقيتُ أنادي (أمير) في سرّي أن يظهر ويخلّصني منه, لكنْ,هيهات, فقد استذكرتُ أنه هو من أرسَلَهُ ليجلب له دواءه من صيدليةٍ بعيدة....أستذكرت فجأة كلماتِ (فؤاد) وهويتظاهر بأنَّ أبر الأنسولين قد نفدت لديه, فدهشتُ لذلك وكدتُ أُعقّب على كلامه, عندما نادتني (فرح) لتحدثني عن حملها وتشورني في مسائِلِهِ كأمٌ وابنتها,فانشغلت عن ذلك, وهبّ(أمير) بعد أنتهاء سهرتنا العائلية بالتبرع للذهاب لجلب دواء أخيه الأكبر,أذ كان (فؤاد) قد تعمّد كسر أنبوب الأنسولين,وذلك مابرّره بكونه لم يسيطر على حركات أصابع يديه فأفلتت الأنبوبة من بينها وتناثر محتواها على أرضية المطبخ...

_أو تبكين !فاتن! كفى .... أنا آسف...أنا آسف ياحبيبتي .... ياالهي!ماالذي أفعله..... ماذا أفعل ياربي!سامحيني!أخذ يمسح دموعي بأنامله وهو يقبلني بجنون ... حاولتُ أبعاده بكل قوتي, لكنّه فجأه نظر اليّ بغضبٍ مسعور, وشعرت أنّه قد تحول الى وحش كاسر,أذ اخذ يصرّ على أسنانه وهو يزمجر

_ أوَ تدفعينني الآن! أو لا ترغبين بي بعد الآن !حقاً!فقد أصبحت عجوزاً منبوذاً, أليس كذلك... أيتها العجوز المراهقة... لكنني لاأزال (فؤاد) نفسه,أتفهمين....

_(فؤاد)!أتوسل إليك... أتوسل إليك... أتوسل إليك....وصرخت بأعلى صوتي كي أبعدُه عني فنهض, ومأأن نهض حتى سقط على الأرض لاهثاً فجاء (أمير) فجأه ووجده على الأرض فساعدهُ على النهوض وتركاني كلاهما.... تركاني ألوذ بنفسي الى حيث لاأدري...شعرتُ أني أموت , أني أهوي الى ركن سحيق... لم أعد أعرف ماأفعل ... لملمتُ أشلاء روحي الممزقة وأنا أبكي بجنون... فتحتُ دولاب ثيابي وارتديت ثوباً ولبستُ جلباباً فوقه وحجاباً وأخرجت كل ماعندي من نقود لأضعها في حقيبة يدي وأفتح باب غرفتي وأنزل الى الطابق السفلي, وبدون تفكير وجدتني أرتدي معطفي المعلق خلف باب منزلي ,وأفتحه وأهرب من ذلك المكان ... وجدتني أهرب وأهرب كأنّ هاتفاً في داخلي يقول لي....ارحلي ... اذهبي ....ارحلي... لاتلتفتي ابداً...لا....لا...هيا....لم يعد لكِ مكانٌ هنا... أيتها النكرة المشؤومة!هل ظننتِ أنّ الحياة قد تبسمت في وجهكِ ! كلا! فلترحلي فوراً أو لتموتي بعارك إن بقيت في تلك الدار!

الفصل الثامن

ووجدتني في ولايتي الأولى,حيثُ وُلدت,وجدتني بعد أن حجزت تذكرة الطائرة,متوجهةً الى مسقط رأسي ,الى العراق...دون وعيٍ ودون تفكير,ودون أن أخبر أحداً....ذهبتُ دون(جهاز نقال)ودون وسيلة أتصال....ذهبت دون ثياب.. فقط ماأرتديه.. وتذكرت ذلك اليوم الذي هربتُ فيه من عمي وابنه الذي ليس فيه من الرجولة شيءٍ..... تذكرتُ كيف كنتُ أرتجف وأنا أصعد الطائرة مودّعةً قبلها ذلك السائق الطيب (جارنا)ومتوجهةً نحو منزل خالتي, في مغامرةٍ مجنونة.... ومأأشبه اليوم بالأمس !!نزلتُ في مطار بغداد الدولي وأستأجرت سيارة أُجرةٍ نحو ولايتي (كربلاء) لأني لم أكن أعرف أحداً قد ظلّ لي (هناك) سوى زوج عمي التي بحثتُ عنها لمّا وصلت, وسألت الجيران وتعمدّت عدم الذهاب الى منزل العجوز الذي ساعدني لمّا كنت في الثامنة عشر, كي لايسألني, ولا أتكلم ولاأضطر للتبرير أو قول أي شيءعن أيّ شيء لأن قلبي كان ممزقاً وروحي تائهةً وعقلي غائباً عن الوعي تماماً عثرتُ عليها بعد جهدٍ جهيد, بذلتهُ بأقصى ماتبقّى لي من طاقةٍ فكرية....لأنني كنت مضطرةً للعثور عليها, كي أمكث معها, ففي ولايتي تلك, أن تستأجر أمرأة منزلاً أو شقةً بمفردها, تعتبر جريمة عند الناس(وليس عند القانون), إذ تكثر علامات الاستفهام حولها, وتتعرض لكلام لاحاجة لها به....عثرتُ عليها وأنا أركب سيارة أُجرةٍ متوجهةً نحو منزل صغير لم يكن في حيٍّ بعيد عن حيّنا, حيث نشأت في منزل جدي (رحمه الله), حيث وجدتُ نفسي مضطرةً لتحمل عذابات زوج عمي وابنها اللذين لم يرعيا الله فيّ....طرقتُ

الباب بعد أن دلفتْ هي الى المنزل , صاحت بصوت متهدّج متعب ,أذ كانت تمشي بصعوبةٍ كما رأيتها عبر نافذة (التاكسي) متلفعةً بعباءتها التي تحوّل سواد قماشها الى لون أقرب للون الأخضر منه الى اللون الأسود .... شعرت بالشفقة عليها, فأجبتُ سريعاً كي أُجنبها أي ألمٍ أو تعب..

_إنها أنا ..فاتن!! ابنة حميك

_لعنة الله عليك ! أهذه أنتٍ حقاً ! ماذا تريدين! أجئتِ لتأخذي منزلي هذا أيضاً؟

قالت العجوز وهي تفتح الباب بشكل لا تسمح لأحد معه الدخول وتضع يدها على فتحته الثانية.... لقد كَبرُتْ للغاية,تأملتها وحاولت أنْ أدافع عن نفسي, عندما صاحت فجأة وهي تبكي..

_ياربي ! إنها (فاتن) ! أنتِ ....أنتِ... سامحيني يابنتي ...تعالي الى حضني... تعالي إليّ...

كل ماجرى لي , كان بسبب أذيتي لك ... هجرني ولدي... هجرني الجيران... لاأحد لي....

سامحيني! فاتن! فاتن! ... أهذه أنتِ.؟!

دفعت الباب لتفتحه على مصراعيه وضمتني اليها فأجهشتُ بالبكاء دون شعور مني, لأنني أحتجتُ كتفاً أبكي عليه ...دخلت معها الى الدار ودموعي لم تنشف بعد .... التفتت اليّ بغضب...

_ ماذا تفعلين هنا! لعنةُ الله عليكِ ... لقد دمرتِ حياتي !

_ يازوجة عمي ! رحماك يارب....

وأخذت تلطم على صدرها وهي تبكي ...

_ أين ولدي! لقد مات! .... سكرٌ وعربدة .. وَرَحَلَ عني ولم أعرف عنه شيئاً ...لم يخبرني أحد...

أين عمك؟! تمرض ومات وتركني! كله بسببك.... كله بسببك...أنتِ أنتِ! أمسكت بيدها وأحتضنتها فأخذت تبكي مثل الأطفال ووضعتْ رأسها على صدري فأخذتها نحو أريكةٍ وحيدة في تلك الغرفة المفردة كي أُجلسها فترتاح... أخذت اهدهدها مثل الأطفال وأناغيها وأنا

أنظر الى خيوط العنكبوت المتدلية من سقف الصالة .... لقد كانت داراً صغيرة ليس فيها سوى تلك الصالة وغرفة نوم ومطبخ وصحيات... كانت الأريكة متهرئة, وقد فُرشت على

أرضية الغرفة سجادة بالية أكل الدهر عليها وشرب... ولم يغسلها أو يكنسها أحد.. إذ كان التراب يعلوها حتى غار لونها ولم يعد يبين ماهو لونُها الأصلي!!

أخذتْ زوج عمي تنشج مثل الأطفال وهي تتمسك بي وتردد...

_لا ... لاتتركيني ! أنا متعبة... أريد أن أنام, أريد أن أنام ...

_نامي ياحبيبتي ... نامي... هيا, هيا, نامي , أنا معك....أخذتُ أربتُ بيدي على ظهرها وأنا أحتضنها ودموعي تنهمر من عينيّ دونما شعور... جئتُ أريدُ المواساة فوجدتني أُواسي غيري وأشفقتُ على حال زوج عمي كثيراً فلا ولد يرعاها ولازوج قربها بعد وفاته ..فلم يعد لها أحد ...ولعلّ عقلها قد ذهب نصفه بسبب ماجرى لها.. فلم تعد تعرف ماتقول أوتفعل...

قررتُ في سرّي أن أرعاها ماأستطعتُ لذلك سبيلاً وتألمتُ لأني لم أكن اعرف ماجرى لها طيلة تلك السنوات, وإلا لما أصبحت في تلك الحال!!! نمت بجوارها ذلك اليوم.. على سرير قديم

حاولت نفض أغطيته وتنظيفه قدر الأمكان قبل أن أقرر شراء فراش جديد لها...

في اليوم التالي...كان لديّ مبلغ محترمٌ من المال والدولارات الأميركية تكفيني أن أعيش لمدّه من الوقت دون أحتياج أحد, ولكنْ, مع منزلٍ كمنزل زوج عمي ذاك, كان لابدّر لي من صرف

جزء لايستهان به من ذلك المال لتجهيز المنزل بوسائل الراحة , والعيش الكريم .....فزوج عمي

تلك لم تك تملك حتى مدفأة نفطية ولاجهاز تبريد ... لم يكنْ لديها تلفاز ولاغسالة ثياب !....

لقد عطف الجيران عليها واشتروا لها ثلاجة مستعملة وجدتُها مليئةً بالعفن والفئران! فرميتها

في الشارع !!.... قمتُ بتنظيف المنزل بنفسي وسألتُ الجيران عن وجود من تعمل بخدمة

التنظيف مقابل أجور في المنطقة... فلم أحصل على جوابٍ شافٍ في البداية....

عندما توطدت إقامتي في منزل زوج عمي وعرّفت نفسي الى الجيران على أني قريبتها.. وقد جئتُ لأسكن قربها لأجل سماعي عن كونها وحيدة, ولأجل زيارة المشاهد المقدسة في ولايتي (كربلاء), أخذ الناس حولي يطمئنون لي رويداً رويداً, فبعثت إحدى الجارات, بعد مرور شهرين ابنة أخيها لتساعدني في تنظيف المنزل مقابل مبلغ مادي وقالت لي أنها تعمل عند من تثق بهم فقط- وكانت تلك الجارة في مستوى معيشي صعب مع كثرة أطفالها ومتطلبات الحياة ..ويسكن قربها أخوها الذي هو مقعد في كرسي مدولب وليس له عمل ...

كان لابد لي من العمل .. كي أكسب نقوداً لأنه لم يعد لي أحدٌ أعتمد عليه ...ولعل عملي قد شغلني بشكل كبير وأنا أدرسّ مجاميع من الطالبات من مختلف المراحل في منزل زوج عمي التي أخذت صحتها تتحسن تدريجياً مع رعايتي لها, وخصوصاً, وأعني بصحتها- صحتها العقلية- فقد أخذتْ تشعر بالراحة بينما أقوم أنا برعايتها وغسل ثيابها وإعداد الطعام لها.... كما وأنّ عملي ذاك, جعلني أنام بسرعة من شدّة التعب, بدلاً من قضاء الليل بجوار زوج عمي, وأنا أذرف الدموع وأُفكّر في أطفالي وأشتاق لهم , ولا أدري ماذا يفعل(فؤاد) في كل ذلك أو (أمير) معهم, وهم قد تُركوا بدون أمهّم على حين غفلة....كم كنتُ أبكيهم في الليالي... كم كنتُ أشتاق لهم ,لكنْ...لكنْ كلما تذكّرت مافعله (فؤاد) معي, يتوقف عقلي عن التفكير, وأصاب بصدمة لاأستطيع معها أن أصل الى أية نتيجة أو حتى أن أبكي معها....أشعر أني سقطتُ في هاوية سحيقة وأنّ قلبي يعتصر بشدة .... كنت أردد على شفتي

_ ساعدني يارب .... ساعدني ... (ثم أنكفيء على نفسي لا ألوي على شيء)نظراته كانت تلاحقني وصوته وهو يسحقني كحشرةٍ صغيرةٍ أسفل منه وهو يردد(حقيرة...حقيرة)يلاحقني كضوضاء عالية, فأهرب منها جميعاً بعدم النوم جيداً والأنشغال بالعمل قدر أمكاني ...كنت أهرب من نفسي, ولكن إلى أين؟ لم أعلم..... لكنَّ

ماعرفته في داخلي, أنّ عليّ الهروب من كلّ ماحدث لي ومامررتُ به, قدر الأمكان, وأن أظلّ أهرب, دون أن اعرف الى أين !!....

الفصل التاسع

انتشرت سمعتي كمدرسة خصوصية كالنار في الهشيم وذلك كوني قد قضيت جزءاً كبيراً من حياتي في (أميركا) ورجعت الى ولايتي بعد ذلك ..فقد كانوا يسموّنني (المدرّسة الأميركية), حتّى أنّ طالباتٍ من أحياء راقية في مدينتي أخذت بالوفود الى منزل زوج عمي الصغير كي يحظين بتدريس اللغة الفرنسية لأنني أعلنتُ بعد فترة لم تتجاوز الستة أشهر عن طريق طالباتي أنني أدرس اللغه الفرنسية,فكانت صديقاتهنَّ في مدارس أُخرى بحاجةٍ لمدرسة اللغة الفرنسية.. وبالأخص – طالبات المدارس المتميزة في مدينتي.. ذلك أنّ اللغة الفرنسية لم تك تعطى كمنهج تعليمي إضافة للغة الأنكليزية إلاّ في مدارس المتميزات كـ(نازك الملائكة) في كربلاء وماشاكلها ...كنت آخذ زوج عمي الى طبيب أمراض عصبية كل فترة.. وذلك مادفع صحتها إلى الأفضل بفضل الله.. وكأن الله أراد لي أن أعود إلى ولايتي وأن يحدث لي ماحدث كي أرعى تلك العجوز التي آذتني في طفولتي وظلمتني... ولم أفهم أو أعلم ما الحكمة من ذلك سوى أن أعمل الخير لوجه الله...كنت قد قررت عمل كل ذلك في سبيل الله وأن لاأنتظر أجراً من أحد.. وبالفعل ..فقد كانت رعايتي لزوج عمي تنسيني كل مامررت به مع (فؤاد) وتجعلني أنشغل تماماً عن نفسي وعن التفكير فيه ..أو(بزوجي)- أمير – أو أطفالي ... لم أستطع أن أتصلّ بأي منهم ...لم أكن أقوى على مواجهة (أمير) بعد ماحدث لي مع أخيه ..ولم أستطع تخيل نفسي أقف أمام (فارس) ولدي الحبيب ووالده ينظر إليّ بألم أو احتقار أو أي نظرةٍ من نظراته التي كانت تخترقني كأشعة الليزر.... لم أستطع تخيّل نفسي أحيا بين (أمير) و(فؤاد) بعدما جرى لي معها....

أصبحت كارهةً لأنوثتي ..كارهةً لشخصي ...لم أعد أعرف ألاّ شيئاً واحداً.. ألا وهو أن أختفي وأتناسى... فكلّما حاولت الاستذكار نسيت... وكلما تخيلتُ وجه (أمير) ينظر إليّ بحب وحنان ..

أبعدتُ تلك الذكريات عني .....

عندما كنت أستيقظ في الصباح, كانت ذكرياتي مع (فؤاد)ومع (أمير) تعودان من عقلي الباطن ..فلاأدري, أكنتُ لاأزال أحلم.. أم أنني صحوت ولازلت لم أنهض بعد!؟!

كنتُ أحلم بفؤاد وهو يضمنّي إليه كل صباح ويقبّل عنقي من الخلف وقد ضَمَّ

جذعي إليه بذراعه القوية... قبيل أستيقاظي كل صباح..لكنّ(أمير) يبرز فجأة في ذلك الحلم

وهو يضمني الى صدره واضعاً خصلات شعري تحت خده بعد أن يقبلها ليقول لي هامساً

بسعادة حقيقة لايشوبها شيء – وكنت أردد والدموع في عيني

(كلّه بسببكَ يافؤاد... كله بسببك !!)

_ شكراً لك يابياض ثلجي... شكراً لهذه السعادة غاليتي....

..أفتحُ عينيّ لأرى سراباً فتنهمر الدموع من عينيّ مجدداً وأرى زوج عمي على سريرها- ذاك أني قد اشتريت لها سريراً خاصاً بها – كما وأني خلال تلك الفترة,..قمت بتوسعة الدار وبناء غرفتين إضافيتين في الطابق العلوي... كم كنت أبكي أطفالي كلما اختليت بنفسي..وما كنت لأختلي بنفسي إلا قبل النوم لشدّة انشغالي وازدياد أعداد الطالبات اللاتي قسَمّتهُنّ الى مجاميع في أوقات مختلفة من اليوم...هذا علاوةً على رعايتي لزوج عمي.. واعتنائي بطعامها ودوائها..مما لم يترك لي مجالاً للراحة.... وأثر ذلك في صحتي كثيراً....

الفصل العاشر

ومرّ عامان وأنا على ذلك الحال... أعمل وأرعى زوج عمي, وأحاول تناسي ذكرياتي كلها مع (فؤاد)و(أمير) وكأنّي لم أحيا معهما, لكنّ ما كان يؤرقني ويقضّ مضجعي, هو اشتياقي الشديد لرؤية (فارس)و(فرح)و(فاطمة)و(فؤاد)!!... أطفالي الأحباء.. أبنائي ... كيف تحمّل قلبي البعد عنهم طيلة ذينك العامين؟! كان (فؤادي) يتفطر ألماً كلّما رأيت أطفالاً في عمر توأميّ(فاطمة) و(فؤاد) لكنّ ذكرى (فؤاد), وكلماته, ونظراته ومافعله معي, كانت, كلّ تلك الأمور مجتمعةً معاً, تقضّ مضجعي وتلسعني كأفعى سامة, فلا تدع لي مجالاً للتفكير , إذ إنني أجد تفكيري فجأة قد شُلّ... لم أستطع الاتصال بهم, ولا لمرةٍ واحدة, لأنني لم أرد لأي شخصٍ أن يعلم أين أكون أو ماذا أفعل؟! لقد كنتُ أتخيل الموقف مع نفسي , لو أنني اتصلتُ ب(فارس), ماذا سيفعل؟! سيسأل بالتأكيد عن مكاني ولن يرتاح أو يهدأ بالُه حتى يعرف أين أكون فيعيدني الى نفس ذلك المنزل, حيث أجد قلبي قد أنشقّ الى نصفين, حيثُ أجد روحي تتعذب بسبب (فؤاد), و(نظرات) فؤاد, وكلام (فؤاد), ومافعلهُ معي (فؤاد) من أمرٍ لايُغتفر...

هل كنت قد سامحتُهُ في سرّي, كلا!؟.... هل أستطعتُ أن أسامحهُ ؟ لا!!لم أستطع... فأنا قد سقطتُ في بنايةٍ شاهقة وقد أخذني بيديه إليها وقال لي أنني سأسكنُ كملكة فوقها ولن يأخذ أحدٌ مكاني ابداً ... فإذا به يختلس الوقوف خلفي ليدفعني من فوقها فتتحطم عظامي وأموت

نعم... أنا كنتُ ميتةً عند نفسي, وهكذا أعتبرت نفسي قد متّ وهكذا أردتُ جميع أفراد عائلتي, أن يظنّوا, وماكنتُ أفعله مع زوج عمي, ورعايتي الدائمةَ لها, والمبالغة فيها – وكأنني أعوّض نقص حبي لأطفالي وأشتياقي لهم, وماكنتُ أفعلهُ مع زوج عمي, وماكنتُ أفعلهُ من أنغماسٍ في تدريسي الطالبات حدّ الأعياء, كلّ ذلك كي أنسى, أو أتناسى, أو أعيش أياماً خارج أيامي , وحياةً غير حياتي, وكأنني لستُ أنا, أو كأني لستُ(فاتن) التي عرفتها طيلة أيام حياتي,

ذلك كوني قد متّ بالنسبة لنفسي واعتبرت نفسي ميتةً عند أطفالي وعند(فؤاد) و(أمير) لأني لمتُ نفسي وقرّعتها أكثر من مليون مرة .... لمتُها كثيراً لأني سمحتُ لنفسي أن(أحبّ) سوى (فؤاد) دون أن أعلم متى وكيف؟... أو كان ذلك في نوبات غضبه وصراخه عليّ, أم أثناء ما كان أمير يلاحقني بنظراته المستترة بين الحين والأخر ثم كلامه المستمر عن حبّه لي, بينما يحاسبني (فؤاد) على أقلّ (هفوة), بل ولم يعد يرضى على أي فعل أفعله أمامه, إذ أصبحتُ مرصداً لانتقادات لا تحصى, وكلام يصل نخاع العظم فيحطمّه, فلا أعود قادرةً على السير باتزان بعد كلّ ضربهٍ أتلقاها منه مكونّةٍ من نظراته الثاقبة ممزوجةً بكلمات قليلة ولكنها مليئة بما يعادل قوة طلقة مسدس أو مطرقة ضخمةً تأخذ بضرب نخاعي فجأةً وتتركني معاقة! بلا حول ولاقوة... كم ضربةً على مرّ الأيام والأشهر والسنوات تلقيتُ من شخص أحببته أكثر من روحي؟!؟ لم أكن أفهم ماذا جرى لذلك الحب الذي عشناه... وهل كان يحبنّي حقاً, أم أنّه نسي حبّه لي؟ لم أعد أعرف ماذا دهى(فؤاد) حبيبي الذي حملني في صغري كطفلته ورعاني وحماني حتى من نفسي لمّا كنتُ أبكي في زوايا المنزل مستذكرةً والديّ, فلم يكن أحدٌ يشعر بغيابي سواه... يهرعُ اليّ, يحملني ويضمنّي بين ذراعيه ويهدهدني بلهجة عراقية, تجعلني أشعر بدفء في قلبي... نعم, أحببتُهُ منذ تلك اللحظات, لأنّه عوضني نوعاً ما عن حنان أبي... كنتُ أرى فيه الأب الذي غاب عني فجأةً دون سبب ... لماذا عذبتني الحياةُ هكذا؟ لطالما تساءلت؟!... لم أكن أفهم مايحدث لي.... ولمّا ابتعدتُ عنه عنوةً تلك السنوات السبع العجاف, وجدتني في دوامّةٍ ليس لها نهاية...عشتُ آلاماً شديدة.. فلما رجعتُ شابةً في ريعان شبابي وقمّة فوران مراهقتي في الثامنة عشر تماماً, وجدته رجلاً مكتمل الرجولة... في الثالثه والثلاثين من عمره,وجدته أروع وأوسم مما كان... أحببنا بعضنا حدّ الجنون... ماكنتُ قادرةً

على العيش دونه, أحببته أكثر من نفسي... ولذلك تحملتُ تقلبات مزاجه وعصبيته وصراخه عليّ لما أصيبت ساقاه وتورمتا, لكنني لم أفهم لماذا أخذ يحاسبني على تصرفاتي وينتقد أفعالي... أخذت أكره نفسي فكرهته في سرّي بعد ذلك الحبّ العظيم, لأنّه حطم ثقتي بذاتي بمعولٍ ضخم بعد أن كان يسدّد ضرباته اليومية لي, عن قصدٍ أو بدون قصد... وبين تلك الضربات الصغيرة أحياناً والكبيرة أحياناً أخرى, كانت هنالك ضمادات توضع من قِبَلِه على جروحي, فاحتضانه لي وشعوري أنّه لايزال محتاجاً إياي, وقبلاته لخصلات شعري كل صباح وهو يقول لي: ((لا حرمني الله منك)), كانت بمثابةِ مرهم شافٍ لما تفعله جراح كلماته طوال اليوم ...

تقريعه, ومحاسبته, بنظراته الثاقبةِ تلك... لكل فعلٍ أفعله, وكل نظرةٍ أنظرها, وكأنّه يتصيد لي أية زلّةٍ مع أخيه كي يتركني, أو كي يدعني أتركه!! لم أفهم لماذا تغير؟ لم أفهم ماذا جرى لــ(فؤاد) المليء عطفاً وحباً وحناناً! كيف تغير؟ ولم تغير هكذا!! هل المرض يغيرّ البشر؟!... كم بكيتُ حبيبي (فؤاد) الذي ذهب ولم يعد... كم بكيته.... لمّا ظهر (أمير) في حياتي, هرعت إليه دون أن أشعر, أحببته دون أن أتوقف.... لا... لن أكذب على نفسي... أحببتهما كليهما.. تمنيتُ لو يكونان شخصاً واحداً... أن يعطي (أمير) شبابه وصحته لــ(فؤاد) كي يعود حنوناً غير عصبي,ولا يكون شخصاً آخر غير (فؤاد) الذي أحببته يوماً ما!!... لكن... ماذا جرى لي... متى أحببت(أمير) وكيف؟ لم أعلم.... كلّ ما عرفته, هو أنيّ سمحت لنفسي أن أعيش؟ (مراهقة) مرّة أخرى وأنا في أحضان (أمير)... وكأني, أنقذ نفسي من براثن (فؤاد) التي غرزها في قلبي وأحرّر نفسي من قبضته التي أحكمها على روحي وجسدي... تغافلت, وتناسيت نظراته, وأنا أُحدّث (أمير) ولم أعد أبالي بما يقوله أو يتحدث به, وكأني أعيش قصة حبّ جديدة ما الذي دهاني؟ كم لُمْت نفسي , وأنا أتقلب ذات اليمين وذات الشمال في

منزل زوج عمي ذاك في تلك الغرفة الصغيرة, وقلبي يعتصر ألماً ... أستذكر معامله(أمير) لي ونحن جالسان على مائدة الطعام وفؤاد على رأسها, وكأننا مراهقان, دون مراعاةٍ منّا لمشاعر

(فؤاد) وهو صامت, لايتكلم, لايقول أي شيء ... لم أعلم إنّ بركاناً كان يستعر في جوفه...

لم أعلم أنّي هربتُ منه, لأني أحبّه... ولأني بحثتُ عنه فوجدته مكرراً في أخيه , نسخةً ثانيةً... أبحث فيها عن الحنان والعطف اللذين أفتقدهما بعد أن أغدق عطاءهما عليّ, هو,(فؤاد), ثم تركني دون رواء, كصحراء قاحلة, لا قرار لها...كم بكيت وبكيت, دون أن اعلم لماذا؟...

ولم أعرف ما العمل... هل سأحيا هكذا حتى نهاية عمري... لابدّ وأنّ (فرحا) قد أنجبت وأني اصبحتُ جدةً الآن! كم بكيتُ ألماً لأني لم أساندها ولم أكن معها... وكنتُ مثال الأم السيئة... لم أعُوضها عما فقدتُهُ أنا, لمّا كنتُ محتاجةً الى (أمي) في كل وقت تحتاج البنت فيه امها.... رباه! ماذا كان بأمكاني أن أفعل؟ فكلما فكرّت بما جرى لي, يتوقف عقلي عن التفكير, ولااستطيع فعل شيء , وأُصاب بالشلل في روحي وعقلي... لقد عطبت روحي... لم أكن قد لمتُ(أمير) في فعلته عندما غاب (فؤاد) عنّا وظننّا موته, مثلما لمتُ(فؤاد) وكرهتُ نفسي بسببه وكرهت العودة لحياتي معه, لكنني لم أستطع فعلاً كرهه!...

لم ألُم (أمير), مثلما لمتُ(فؤاداً), بل سامحتُ(أمير), رغم كل شيء, لأني شعرت دوماً بظلمي له... كوني لم ألتفتْ إلى مشاعره... أمّا(فؤاد), فقد كرَّستُ عمري وقلبي له...

الفصل الحادي عشر

_ فاتن! رحمـــــاك يارب! أنتِ هنا! كيف لكِ أن تفعلي هذا بي!

هتف (أمير) وهو ينظر إليّ بألمٍ شديد فنظرتُ اليه بألمٍ وبكيت لأضمّ وجهي بين يديّ... فجأةً ظهر (فؤاد) من خلفه, ليثقب روحي بنظراته الزرقاء... فصرخت بألم...

_ أبتعد عني! لا أريد رؤيتك! لا أريد أن تلمسني!! لا...لا! أنا أكرهك.. أكرهك! إبتعد عني

فجأةً سمعت صوت زوج عمي وهي تقرأ المعوذات عند رأسي... شهقت وأنا أفتح عينيّ لأجد

نفسي قد نهضتُ من كابوس مرعب.... أخذت زوج عمي تردد آية الكرسي وهي تمسح على جبهتي المتصببة عرقاً... ثم أخذت تهدهدني...

_ سلامتك حبيبتي... سلامتك...

_ رباه! ارجوكِ لاتتركيني.....

إحتضنتها وأخذتُ أنتحب بجنون ... لاأعلم ماذا دهاني...احتضنتني زوج عمي وهي تربّت

على ظهري...

_ لابأس ياحبيبتي... لابأس يا(فاتن)... حتى وأن لم تحكي لي ماحدث لكِ هناك , لكنني لن أتركك.... سامحيني لما فعلته معك في طفولتك... سامحيني..

_ رباه!

صدمتُ مما قالته... رفعتُ رأسي لأنظر الى عينيها ... كانت تنظر اليّ بألم, نظرات العقلاء المتزنين, وذهبت عنها تلك النظرةُ البلهاء الحائرة... لقد فعل الدواء والعلاج مفعوله معها وكذلك, أثمرت معاملتي الطيبةُ معها, لترتاح نفسيتها وتعالج جراح روحها المحطمة, بعدما نبذها الجميع ولم تجد من يعينها بعد وفاة زوجها وفقدان ولدها الأوحد الذي انغمس في الرذائل حتى أهلكته....

_ زوج عمي!

هتفت وعيناي تدمعان ... قالت لي بصوتٍ رخيم حازم...

_ لن أدوم لكٍ ياحبيبتي... انا عجوز كبيرة طاعنةٌ في السن...ولو لا رعايتكِ لي لكنتُ هائمةً على وجهي في الشوارع... فجزاك الله خير جزاء لما فعلتِهِ لأجلي... لكنْ... عليكِ ان تعودي لأسرتك... لأحبائك... رغم أنّك لم تحكي لي يوماً ولم تقُصَّي عليّ ماحدث معك... لكني امرأة... وأفهم أنّ عطباً كبيراً قد أصابك... مهما كان ومهما حدث, على اية حال... عليكٍ أن تعودي يوماً ما... لربما بعدما أموت... لاأدري!

_ معاذ الله! أطال الله في عمرك ودفع عنكِ كل سوء!

_ ليتني ألحق زوجي الذي ظلمته لما تمرض! ولم أرعَ حقّ الله فيه! فسلّط الله ولديّ الأوحد عليّ... نعم, كنتُ ظالمة... لا تقولي شيئاً.. لقد ظلمتكِ... فدفعتُ الثمن في نهاية عمري... دعيني واذهبي.. عودي الى أُسرتك, أطفالك!...

عودي يا(فاتن), يا(ابنتي), عودي....

_ آه! ليتني أستطيع!

وبكيتُ بألم فاحتضنني بحنان...

_ لابأس... لكنكِ ستعودين يوماً ما...

_ لا! لا أريد العودة يازوج عمي... أرجوكِ عيشي لأجلي... ونظرنا الى بعضنا وعينانا مغروقتان بالدموع .... فجأة دقّ جرس الباب فامتعضتُ وأنا أنظر الى الساعه...

_ إنّها الثامنة صباحاً! من غير المعقول أن تأتي حلقة طالبات في هذا الوقت...

_ سأذهب أنا لأفتح الباب يا صغيرتي... أنتِ متعبة...أخَذَتْ عكازتها ونهضت محنية الظهر تمشي على مهل...نهضتُ من فوق سريري لأنظر وجهي في المرآة... (رحماك يارب... لقد كبرتُ حقاً! وفعلاً... لابدّ لي من العودة الى أطفالي... ولكن كيف .. كيف... أنا اتعذب حقاً!)

ضممتُ وجهي بين أناملي عندما ظهرت زوج عمي من خلف الباب متوجمة وهي تهتف بي بصوتٍ خفيض...

_ هنالك زوّار لكِ...

_ ماذا! من!؟

_ لاأعلم! تعالي وانظري بنفسك!

_ زوج عمي! من ! قولي... هتفت وأنا أسعى خلفها, فتحت باب غرفتي حتى صرتُ في الصالة, حيث وجدت تلكما العينين تسددان لي نظراتهما الليزرية الثاقبة, بينما علت صرخة فرح من بين شفتي شاب انتفض ليهرع نحوي ويحتضنني بقوة وهو يبكي... لم أحتمل عدم البكاء, بل أخذتُ أبكي بصوتٍ عالٍ وأنا أدفن رأسي بين جنحيه, تنبهتُ فجأةً لوجود(أمير) الذي نهض مع (فؤاد) لمّا دلفتُ الصالة وكأنّ على رأسهِ الطير....

_ أمـــــاه! ظننّا انكِ... أنكِ قد متَّ أو....أو...كان فارس(يردد) وهو يبكي ثم تركني لما تنبّه لعمّه ووالده, فوقفتُ لاألوي على شيء... كنت أشعر بذعرٍ حقيقي....

_ فاتن!! هتف (أمير) بألم...

_ كيف تسنى لكِ أن....

أبعدتُ وجهي وأنا أقاوم دموعاً تريدُ أن تندفع فصمت (أمير)

عن الكلام...

_ أماه!... ستعودين معنا!

_ لا! لن أعود! لا...

قلتُ له بغضب... ذهل (فارس) وهو ينظر إليّ بألم...

_ ماذا جرى يا أماه! لماذا هجرتِ أولادك! كيف تسنّى لك تركنا هكذا دون مقدمات ! ماذا فعلنا!

_ سامحني يا فارس! أنا.... لاأستطيع! فقط! لا أقدر!

_ أماه! لقد أنجبت(فرح) فتاةً سمتها باسمك!

وهنا انهرت ولم أستطع الوقوف,

فقد شعرت بالأَرض تلفّ تحتي ولم أسمع سوى صوت صراخٍ باسمي... لقد ارتطم رأسي بالأرض بقوة وأصبتُ بنزيف في الدماغ... كنتُ سعيدة الحظ, لنجاتي, فقد فتحتُ عينيّ لأجد نفسي في مشفى أميركي في غرفة خاصة, ووجدتُ شخصاً بقربي يبكي وهو يمسك بيدي وقد

بللّها بدموعه... كان يقول لي دون أن يعلم أني أسمعه...

_ فاتن! سامحيني... أنا أُعيد ترتيل هذه الكلمات كل يوم هنا, أمامك, كأني أُردد كلاماً مقدساً... حبيبتي... سامحيني... أنا الأحمق الذي فعلتُ بك مافعلت... أرجوك, عودي, أرحلي, أذهبي,

أفعلي مابدا لك, لكنْ عودي الى الحياة, وأتركي غيبوبتك... لقد مرّت عدّة أشهر وأنت على هذا الحال.... لاتحسّن يُذكر, وكل الأطباء يقولون لنا أن نفصل الأجهزة ونتركك لمصيرك,و لكنني رفضت! وأرفض!! أتعلمين لماذا! لأنني ببساطة, سأفصل قلبي عن الحياة! لا... لم ولن أسمح لهم, حتى آخر يومٍ في حياتي أن يفصلوك عني... ياطفلتي, ياحبيبتي, يازوجتي, ياأم ابني وابنتي... أنا أحبك وسأظل أحبك الى الأبد.. سامحي حماقتي, سامحي ذلك الوحش الذي أصبحتُهُ والذي حطم حبنا وجعلك تبتعدين عني...(فاتن)... أرجوك, أنا اعلم ان روحك تسمعني... أعلم أنك لاتزالين تحبينني ولذلك هربت مني.. لأنك لم تصدقي مافعله حبيبكِ بك.....فهربتِ من نفسك الى حيث لا تعلمين ولم تعودي قادرةً على العودة رغم أنك راغبةٌ فيها.....حبيبتي ... أنا أفهمك...أنا السبب في كلّ ماجرى لكِ... سامحيني... أنا...أحبك... وسأظلّ أحبكِ... سامحيني يا غاليتي... فاتنتي الصغيرة...حبي الكبير....

عودي اليّ أرجوكِ عودي... عودي, لاأريد سوى رؤيتك...كوني لأمير, كوني لأي شخص, فقط كوني سعيدة... وعودي! لقد جعلتك تتزوجين (أمير) لشدة حبي لكِ, لكنني لم أستطع الصبر على غيرتي!لم أصدق ماسمعت.....(رباه! لقد قضيت أشهراً هنا دون أن أشعر!!)... حاولتُ أن أتحدَّث, بكل قوة حاولت, لكني لم أستطع... لربما محاولتي للنطق, أسفرت عن تحريك إصبع من أصابعي التي بللّها(فؤادي) بدموعه, فشعر بحركته, ورفع رأسه مندهشاً

والدموع تملؤ وجهه.... تغيرت ملامح وجهه وهو ينظر الى عينيّ السوداوين بينما عيناه الزرقاوتان لاتزالان في نفس جمالهما وروعة نظراتهما, لم تتبدلا....

_ فاتن! حبيبتي... حاولت الكلام... لكنني تأوهت فقط, ثم حاولت الكلام فقرب فؤاد وجهه مني ليستمع

_ ماذا ياحبيبتي ... قولي لي... ماذا....

_ فؤاد.... فؤاد.....

_ حبيبتـــــــي.....

نظر اليّ بألم... ثم حاول أن يستمع الى كلماتي وهو يبكي...

_حبيبتي الغالية, لاتتكلمي.... أنا لاأستحقك... لقد فرّطت فيكِ لأكثر من مرّة... أتعلمين! لقد فرّطتُ فيكِ لمّا تركتك أوّل مرّةٍ ترحلين بمفردك لمصير مجهول! كنتُ جباناً(نذلاً)! نعم, أنا كنتُ كذلك كما أنا الآن, عندما فعلتُ مافعلت بدافع أنانيتي وشفقتي على نفسي... أنا لاأستحق حبك! فعلاً (أمير) هو أفضل لي منك.. الحمد لله على سلامتك غاليتي ... كم انت عظيمةٌ يافاتن! أو ترعين من كانت تضربك في صغرك وتؤذيكِ.... لقد بكتْ عليكِ كثيراً ونحن نحملك بعيداً عنها...

_آه! زوجةُ عمي!

تمتمتُ بألم وأنا أستذكر زوج عمي المريضة وكيف أنّها قد تُركتْ وحدها, لكنْ(فؤاد) تداركني بكلامه قائلاً...

_ فاتنتي الصغيرة! (كم أحببتُ تلكما الكلمتين!) لقد أخذتُ زوجة عمك الى دار العجزة هنا عندنا في أميركا, لاتخافي َعليها بعد الآن... لقد دبرّتُ كل شيء لرعايتها

_ آه! فؤاد!

تقافزت الدموع من عينينا ونحن ننظر الى بعضنا وكأن روحينا التقتا من جديد واتحدتا مرّةً أُخرى بعد فراقٍ طويل.... بقينا ننظر بعضنا بينما يدي بين يديه ودموعه قد بللتها بالكامل

_ هل ستسامحين هذا الكهل الدنيء الذي لن يسامح نفسه يوماً!

_ (فؤاد)! أرجوك! كفى! لااريد الكلام!

_حبيبتي!! أخذ يشبع يدي قبلاتٍ ساخنه ويمرّغها بوجهه وبدموعه الحرّى...

وبينما هو يفعل ذلك, إذ ظهر (أمير) من خلفه مندهشاً, فتقافزت الدموع من عينيه وهويهتف....

_ رحماك يارب! لقد استفاقتْ (فاتن)!

_ أمير! (هتفت بصوت خفيض وغصّةٌ صغيرةٌ قد خنقت صوتي وأنا أحاول الكلام عبثاً)....

_ كفى! لاتتعبي نفسك ياحبيبتي! صاح أمير وهو يجثو قرب سريري أسفل من كرسيّ (فؤاد) حيث كان جالساً بجوار سريري, ولما رأى يدي بين يدي (فؤاد) , ارتبك وحار جواباً, بينما ترك (فؤاد) يدي والألم يرتسم على قسمات وجهه....

_ عذراً منك ياأخي! أنا آسف ياأمير!

_ بل أنا الذي أعتذر ياأخي.... فأنّ مايربطكما ليس زواجاً, وليس أطفالاً, أبداً!...

أنا أعلم ذلك يا(فؤاد)! وأقدّر هذا تماماً... كيف انتِ ياغاليتي الآن! هذا مايهمني فقط!

هتف (أمير) وهو يبتسم في وجهي متعمداً التغاضي عن ذلك الموقف بينما شعرتُ (أنا) بالتشتت

بين عينيهما, وبين كلماتهما... بكيتُ بألم, وأشحتُ وجهي عنهما....

_أرجوكما!... أنتما... كلاكما... أنا, لااعرف, ولاأستطيع أن اختار بينكما! لاأستطيع!

_أنتِ زوجة (أمير) يافاتن! أنتِ زوجه....

هتف(فؤاد) بألم وهو ينهض, فأدرتُ وجهي نحوه وكأني أُناديه بـ(قلبي) وبنظراتي كي لايبتعد... لقد كنتُ أتخيل نفسي تلك الطفلة الصغيرة التي أجلسها مرّةً في مطبخ خالتي لتشرب الحليب في تلك الليلة عندما علمتْ أنّها سوف ترحل بعيداً.... تلك الطفلة التي ضمّها بين ذراعيه وأخذ يهدهدها... نظرنا الى بعضنا بألم... قلتُ له بنظراتي أني سامحته... سامحته وسأسامحه مهما حصل, لأنّ حبي له يفوق كل شيء في الكون....فهو أبي, و
أخي قبل أن يكون زوجي ووالد طفليّ (فارس)و(فروحة) ....لكنْ, ماذا عن(أمير)... نظرتُ الى عينيه وهو يخترق روحي بنظراته الحائرةِ الخائفة مني وعليّ... كان يخشى خسارتي, أو تركي له, ولطالما قال لي أنني سأعود يوماً ما إلى(فؤاد)... شعرتُ بالأنقسام والتشتت مرّةً اخرى والضياع فبكيتُ وأشحتُ بوجهي بعيداً...

_ لا! لاأستطيع العيش معكما!

هتفتُ بألم... وهنا نظر الاخوان الى بعضهما بينما نظرتُ إليهما وأنا أبكي لأُحاول تبرير كلامي فوجدتُ(فؤاد) يضع أنامله فوق شفتي وهو يهمس لي مهدهداً...

_ حبيبتي... نحن كلانا تحت أمرك وطوع أشارتك... فاتنتي الحبيبة.... أنا لاريد سوى رؤيتك سعيدة, لاريد شيئاً ابداً, أرجوك لاتفكري ولاتعذبي نفسك...

_ وكذلك أنا يافاتن... مستعد أن أعطيك حريتك وانا تحت امرك فيما تطلبين... لاريد سوى رؤيتك سعيدة.... أنتِ ابنة خالتي وأختي قبل ان تصبحي حبيبتي وزوجتي, واماً لتوأميّ...

أرجوكِ كلنا نريدك ان تكوني بخير, ولانريدُ سوى راحتك... نحن سعيدان بعودتك (يافاتن) لاتفكري بنا.... قال (أمير) ذلك وهو يشدّ علي يد فؤاد الذي أحاط رقبة (أمير) بذراعه القوية ...(ياالله)! كان لايزال وسيماً في نظري رغم كبر سنه وذبول قوته بسبب مرضه, لكنه في

نظري لم يزل, أوسم رجل في الدنيا, وأحبّ الناس الى قلبي (أنا)... بكيت ولم أستطع ان اتفوه بشيء وانا ارى ابتسامتهما الجميلة بينما امسك (أمير) بيدي وقبلّها بسعادة ثم وضعها فوق حجره وهو يربّت عليها بيده الاخرى واخذ يقول مشجعاً...

_ أوَ لستٍ مشتاقةً الى الأولاد ايتها الام القاسية؟؟؟؟

_ يا الهي! لا ادري ما أقول! انا.. انا... اسوء ام في....

_ هه ! فاتن كفى !

ووضع فؤاد يده على فمي مرّةً اخرى ليُصمتني بينما اتصل (أمير) بجهازه النقال ليخبر فارساً بما جرى... لم تمر ساعة, حتى وجدت اولادي كلهم امامي .. كم كانت فرحتي برؤيتهم كبيرة! لاأستطيع وصف شعوري وهم يحتضنونني ويبكون...

_ اماه! حمداً لله على سلامتك...

الفصل الثاني عشر

عدتُ الى منزلي... عدتُ الى أطفالي... لكنْ... لم أعدْ زوجةً لــ(أمير)!! ذاك لأنه طلقني!! نعم, لقد جلب الشيخ وقام بتطليقي منه دون أن اطلب أنا ذلك... لكنني لذتُ بالصمت ووافقته بصمتي على فعلته رغم أنّه كان يتألم في سريرته التي فضحتها نظراته الحزينه وهو ينظر إليّ عندما طلب الشيخ مني إن كنت موافقةً ام لا على ذلك الطلاق!!! بقيت مع (أمير) و(فؤاد), كابنة خالةٍ لهما كما كنتُ سابقاً, مضافاً لذلك(كوني أماً لطفليهما)...عدتُ ارعاهما وأطبخ لهما, ولم أعد الى الجامعة, لأنني شعرتُ بكبر سنّي ورغبتي في الراحة من عناء التدريس, (خصوصاً بعد تلك الحلقات الخصوصية التي انهكتني لمدّة عامين في العراق لمّا رجعتُ الى منزل زوج عمي فوجدت ماوجدت وناضلتُ لأجل لقمة العيش) كنّا نجلس سويةً على نفس المائدة, ونتبادل اطراف الحديث, أنا و(فؤاد) و(أمير), كما كنّا سابقاً, بل وكأننا أصبحنا أكثر قرباً من بعض, فلم يعد(فؤاد) ينظر اليّ بتشكك, ولم يَعُدْ يُسمعني كلماتٍ تؤلمني وتقلل من أحترامي لذاتي امّا (امير) فلم يعد يرمقني بنظرات الحسرة والألم لعدم وجودي قربه, أو بتلك النظرات (الخاصة) التي تربكني فيما سبق زواجي منه, بل على العكس, وجدتهما كليهما يتسابقان لنيل رضاي, كي لاأحزن, ولاأتألم.... وسمعتهما ذات يوم يتحادثان بينما كنت على وشك دخول الصالة حاملةً الشاي لهما, إذ هتف (أمير) بصوت حزين وهو يكلّم (فؤاداً).....

_ يجب أن نراعى نفسيتها, فقد تعرضت لنكسةٍ قوية يا(فؤاد)!

_ أنا أعلم هذا... ولستُ مستعداً للعيش في تلك الدوّامةِ من تقريع الضمير, كتلك التي عشتها

لعامين كاملين, وانا لااعلم ماحلّ بها... ظننّا انها ماتت , او انتحرت, او... خُطفت وقُطّعت اعضاؤها وبيعت من قبل عصابة مرتزقة ما!! الهي! كم فكرةً وفكرةً كل لحظة كانت تنتابني, وأنا لادري ماحلّ بها.... إنها الآن في حالة سلامٍ نفسي ياامير... أوَ ترى...إنها لاتستطيع الأختيار بيننا...

لقد هربت منا ياخي...

_ ماذا! لاأصدق! لا, لا... لم تهرب منّا!

_ هي نفسها لاتفهم نفسها بقدر ماأنا افهمها! أوَ نسيت انني قد ربيتها... وهي شبهُ ابنةٍ لي ! صدقني ...يا امير! إنها تحبّكّ ولذلك شعرتُ انا بالغيرةِ القاتلة ... ولذلك... لا اريد أن أُعيد تلك الذكريات... لكنْ... لذلك, أنا... لم احتمل... سامحني يا(أمير)... لكن....

_ نعم! أنا أفهمك تماماً... لكن.... مستحيل أن تكون (فاتن) تحبني مثلما تحبك! كلا! أنت وهي, قصةٌ أُخرى ...

_ أمير! لقد أحبّتك! وهي لاتزال تحبّك... عليك أن تفهم هذا جيداً, ولذلك قررت أن تنفصل عنك, لأنها, لاتعرف او بالاحرى لاتستطيع أن تختار بيننا ! أو لاتفهم!

_ رحماك يارب! ومالحلُّ اذاً! أولا.... فؤاد! ... أنت تعلم, ولكن... دعني اسألك دون أن نفكر في أنّ(فاتن) هي من نحبّها كلانا! دعني اقول لك شيئاً او بالاحرى اسألك...

_ هيا, سلني ماشئت!!

_ فؤاد... لا ادري كيف أصيغ كلماتي, لكني .... أحبّها حقاً وأشتاق اليها بكل وجداني... وسؤالي لك.... أولا تشتاق إليها... كن صريحاً معي, رجاءاً!

_ أوَ تمزح معي ياأمير! رحماك يارب! أنا أشتاق لها حتى عندما تجلس قربنا!! إنّ حبي لها حبٌّ روحي قبل أن يكون اي شيء آخر.... لكنني اشتاق لها كل حين, ولا اعرف كم وإلى

متى يمكننا أن نبقى هكذا....

_ آه!! إذاً فأنت مثلي تماماً!

_ سبحان الله! نحن أخوان فما الجديد في الأمر!؟ ثم... آه .... لقد أبطأت (فاتن) في جلب الشاي لنا .... ماذا حدث!؟....

_ حقاً... سأذهب لأطمئنّ عليها..... هرعتُ بسرعةٍ عائدةً الى المطبخ وقلبي يخفق بسرعة , عندما دلف (أمير) خلفي الى المطبخ وهو يهتف بحماسة بينما تظاهرت أني أنتظر تجهيز ابريق الشاي....

_ فاتن الغالية! يابياض الثلج, ماذا حدث للشاي اللذيذ!

_أمير! عذراً فقد كنت اتصل بالهاتف ونسيته... الآن سأصب الشاي وأجلبه لكما... أذهب لترتاح...

_ هل أساعدك؟

_ كلا! كلا! شكراً لك....

_ هل انتِ بخير؟ تبدين شاحبة ياعزيزتي !

_ انا بخير ! شكراً لك....

لكنني لم اكن بخير ابداً.... كتمتُ دموعي عنوةً وأنا أقدّم الشاي لـــ(فؤاد) بينما وضعت الصينية على الطاولة أمام (أمير) الذي تلقف قدح الشاي مني على عجل وأحذ يرتشف بسرعةٍ منه وهو يقول بسعادة...

_ الله! الشاي لذيذ من يد (فاتن)! لاأستطيع الاستغناء عنه ابداً!

_ عافاك الله وهنّأك يا(أمير)!

قلت مغالبةً شعوري بذلك الألم الشديد الذي اعتصر قلبي... ولاحت مني التفاتةٌ نحو روزالي وهي تهرع نحونا هاتفةً....

_ خالتي! ألم تري فارس! أين ذهب؟ لقد وعدني أن يذهب بي الى النزهه معه؟

أين هو خالتي!

_ حبيبتي ! لستُ أدري فعلاً! هل تريدين الأتصال به...

_كلا! شكراً لك, سأعثر عليه الآن بمفردي....

رفعتُ ناظري نحو (فؤاد), فشعرت بسهم قد اخترق فؤادي! كان ينظر إليَّ من خلف نظارته السوداء, نظراته تلك ذاتها! (رحماك يارب)!! رددتُ في سرّي ونهضتُ بسرعة وقلبي يخفق بشدة... كانت مدّة عدَّتي من (أمير) قد انتهت آنذاك وتجاوزت الاربعة اشهر بقليل....

تظاهرتُ بأني ذاهبةٌ للبحث عن ولدي(فارس) لأجل روزالي وكان ذلك مافعلتُهُ فعلاً عندما نهضت لألمح(أمير) وهو ينظر إليّ من طرفٍ خفي نظراته (العاشقة) التي اعتاد إرسالها لي كل حين... شعرتُ بذعرٍ في سرّي, وهرعت خارجةً من الصالة لا ألوي على شيء سوى التذرع بالبحث عن ولدي كي أُنهي احراجي وأُبعدَ عن نفسي ذلك الألم الناتج من حب شخصين في آنٍ معاً!!.... أخذتُ أُبعد الافكار عن رأسي وأنا أبحث عن (فارس) كي أهرب من كلّ ماحدث وما يُمكنُ ان يحدث كما اخذت أفكاري المتلاطمة تخيّلُ لي, وهي تنسج قصصاً مرعبة تحت عنوان(ماذا لو؟) و(ماذا سيجري لو؟) صعدتُ الى غرفة فارس بشكل لاأرادي ودون ان ادري لماذا ذهبتُ هناك؟ وبدون ان أنقر الباب, بينما افكاري المتلاطمة تستنجد بأي شيء كي تبعد نفسها عن رأسي الصغير الذي شعرتُ بأنّه سينفجر من كثرة وكثافة تلك الأفكار وعشوائيتها!... أقول أني لم أعد أعرف ماذا افعل ولم انتبه اني لم أطرق

الباب لمّا دلفت بسرعة فإذا بي أرى (فارساً) يثبُ من فوق فراشه مذعوراً وهو يقف باتجاهي مندهشاً, ليهتف ماسكاً ذراعيَ بكلتي يديه...

_ ماالأمر ياأماه! هل أنتٍ بخير!

_ نعم! نعم ياحبيبي! انا بخير... كنتُ... كنتُ أبحثُ عنك في الحقيقة, لأنّ, لأنّ (وتلعثمت)!... لأن روزالي كانت تبحث عنك طويلاً!.... ابتسم (فارس) بارتباك وهو يضع يده على رأسه عندما قفزت (روزالي) من فوق سريره هاتفةً...

_خالتي! لقد وجدته قبلك, وكنتُ هنا معه!! نظرتُ بدهشة شديدة وشعرتُ بوخزةٍ في صدري, لستُ أدري كيف شعرتُ وأنا اقلّب نظراتي بين ولدي وروزالي, تلك الفتاة التي اصبحت في التاسعة من عمرها... نفس عمري عندما رعاني (فؤاد), وخلصتني خالتي من براثن (عمي) وزوجته وحسام!!... لم أصدّق أني أرى نفسي مكررةً في (روزالي) وكأن الزمان يعيد نفسه.... شعرتُ بنوعٍ من الغيرة على ولدي... شعرتُ أنّ (روزالي) قد استأثرت بمشاعره, وخفتُ عليها أيضاً كونهما قد مكثا في الغرفةِ بمفردهما, ولذلك تبادرت اسئلة كثيرة أسرعتُ برميها على ولدي دون تفكير, لأن أفكاري كانت متعبة أصلاً

_ولدي الغالي! لكنْ! هل كنتما نائمين بجوار بعضكما!؟

_ ماذا! أماه! ماذا تعنين؟ أنا من ربيتها!؟ إنها طفلتي! شعرتُ أنّي اصبحتُ أمرأة حاقدةً بلا مشاعر, وأنا أرى الدموع تتقافز من عيني (روزالي) التي فهمتْ مغزى كلامي, فقالت وهي تدافع عن نفسها....

_ كان بابا (فارس) يحكي لي قصة, وكنّا قبل ذلك نشاهد فلماً أشتراه لي لنراه معاً لأننا

أحببناه, وعَرضَه لي هنا في تلفازه بواسطة عارض الفيديو, وهذه هي القصة!!....

ذهبت روزالي نحو السرير لتجلب الكتاب الذي كان (فارس) ولدي يقرأ لها القصة منه,

فشعرتُ بأحراج شديد وخصوصاً وأنا أنظر الى (فارس) الذي رمقني بنظراتٍ دهشةٍ وعتابٍ شديدين, بينما شعرتُ أنا وكأنّ الارضَ قد انشقّتْ تحتي, او كأنها سوف تبتلعني.... شعرتُ بذعرٍ شديد وأشحتُ بوجهي بعيداً عن فارس و(روزالي) التي كانت على وشك مغادرة الغرفة باكيةً عندما أمسكت بذراعها وسحبتها نحوي باتجاه (فارس) وأنا أُقبّل وجنتيها المليئتين بالدموع...

_ سامحيني حبيبتي! أنا لم أقصد شيئاً! إذهبي لتكملي القصة مع (فارس) ... أنا متعبةٌ جداً وكنتُ ... كنتُ بحاجةٍ للتحدث مع ولدي, لكنْ... أنا الآن بخير...

قلتُ ذلك وأنا أرفع رأسي باتجاه (فارس) الذي نظر إليّ بقلق ومدّ يده ليمسك ذراعي قبل أن أخرج...

_ أماه! ماذا هناك؟! هل أنتِ بخير!! التفتُّ نحوه وعيناي حائرتان, لم أعرف بم أُجيبه...

كنتُ أريد التخلص من إحراجي فحسب, فأبعدتُ يده بسرعة وأنا أُردد بشكل قاطع ونبرةٍ حازمة....

_ لا شيء ابداً! أنا جد آسفة ياولدي, لقد تكلمت بدون قصد, ولم أعرف ماذا قلت... أعتذر منك... أعذرني الآن! قلتُ ذلك وأنا أهرب بسرعةٍ من أمامه, عندما شعرتُ أنَ نظراته ظلت خلفي على طول الممر حتى اختفيت اسفل السلم .....

الفصل الثالث عشر

_ حبيبتي! أين أنتِ.... (فاتن)! ياألهي! أنتِ هنا؟! رحماك.... هتف فؤاد وهو يحملني من فوق جذع الشجرة لمّا هربتُ من المنزل عندما جاءت بي خالتي أوّل مرّة... كانت تلك الذكرى قد تسارعت الى مخيلتي وكأنها قد حدثت بالأمس وبالأخص, وأنا انظر عبر نافذة مطبخي المطل على حديقة الزهور, الى (روزالي) وهي تجلس على الارجوحة بينما يهز بها ولدي وهما يتبادلان الضحكات بإنسجام تام...

_ تعالي إليّ.... على مهلك يا(فاتن)!

_ كلا لن أنزل!

هتفتُ (بالعراقية) وأنا فوق الغصن في الشجرة التي بنى لنا فوقها (فؤاد) منزل الالعاب الصغير الخشبي وحيث كنتُ العبُ انا و(هاني) شخصيات وهمية, فأُمْلي عليه شخصياتٍ يلعبها فتارةً اجعل منه أميراً وتارة (حيواناً اليفاً)!! وكان هو ينصاع لأوامري حتى جاء يوم شاهدنا فيه (أمير) متسللاً الى منزلنا الخشبي وظل يضحك علينا خصوصاً وأنا أصعد فوق ظهر هاني الذي كان يمشي على يديه ورجليه متظاهراً أنه (حيواني الاليف) وأنّي (سيدته)!

أخذ فؤاد يناديني ويكلمني بالعراقية- لأنني لم أكن أعرف من الأميركية شيئاً أوّل وصولي الى كاليفورنيا مع خالتي بعد ان وجدتني ابكي في ذلك المخزن اسفل السلم والدماء تسيلُ من يديّ بسبب زوج عمي وابنها... استذكرت كيف أنني بقيتُ فوق الغصن الذي كاد ان ينكسر بينما (فؤاد) يناديني بصوت متوسل و(أمير) ينظر إليّ متخصراً وهو ضجرٌ متبرمٌ مما أفعله,

يكلمّ (فؤاد) بالأميركية ظاناً أنيّ لن أفهمه – وكان سبب صعودي الشجرة هو انزعاجي من تبرمه المستمر منّي وانتقاده الدائم لتصرفاتي بلغته ونظراته التي أشعرتني دوماً بالدونية أول تعرفي به, وكأنني عنصر غريبٌ حلّ على عائلته, وتبسَمّتُ في سرّي, لأني آنذاك وبعد عمري هذا كله, قد عرفتُ أنّ ماكان يفعله معي(أمير), هو مجرد(غيرةٍ) وتصرفاتٍ صبيانية لأنه كان مراهقاً يكبرني بأعوام خمس وإذا بِهِ يرى من ينافسُهُ في حبّ أمّه وعائلته بدون سابق إنذار وهو الذي بدأ للتو يكتشف رجولته ويودّع مرحلة الطفولة....فماذا تفعل تلك الطفلة الصغيرة اليتيمة التي جاءت من وراء البحار, من آخر العالم, إن صحّ التعبير, لتستأثر بحبّ أهله ورعاية والدته واهتمام اسرته كلها؟! تلك الفتاة التي كنتها أنا, والتي نظرتْ إليه بعد أن حَدَّثَ (فؤاد) قائلاً وهو يصيح متبرماً ضجراً ويداه فوق خاصرته كلٌّ على جهة وقد تخصّر بذراعيه باعتداد غاضباً....

_ أخي! ما هذه الفتاة الحمقاء المغرورة! اتركها لتسقط وتحصل على جزاء فعلتها, فلماذا فعلتْ ذلك ولماذا جعلتنا نبحثُ عنها لساعاتٍ طويلةٍ ونحن نظنها قد ضاعت أو حدث لها مكروه, ولم تخبرنا لمّا خرجتْ من البارحةِ وجعلت والدتي تبكي عليها وأدخلت المنزل كلّه في حالة

انذار بينما هي نائمةٌ فوق! هناك! وياليتها فعلتْ ذلك فحسب, بل لقد رمت السلم الخشبي الذي صنعناه سوياً أنا وإياك, ولففناه بإتقان بالحبال! رمته من فوق! ونزلت على الاغصان بكل

وقاحة!! لماذا فعلتْ ذلك؟ يجب أن تعاقب!! لا أن تتوسل اليها! دعها بمفردها!

لم يلتفت (فؤاد) إليه, بل كانت نظراته الخائفة المتلهفة منصبةً باتجاهي ومركزةً عليّ خوفاً من سقوطي على حين غفله, ولكنّه ردّ عليه بصوتٍ حازم قوي بالاميركية...

_ ليس هذا وقت هذا الكلام ياأمير! لاأريدها أن تسقط!

وعند ذاك استشطتُ غضباً من (أمير) وقررتُ أن أواجهه لأتكلم بلغته واثبت له أنني لستُ بأقلّ منه, لمّا كان يستهزئ بي وبانتمائي العربي العراقي وكيف انني لا اعرف التحدث بلغته وكم انني كنتُ هزيلة صغيرة...

لقد كنتُ قد قضيتُ فترة أشهر هناك تعلمتُ فيها اللغة واكتسبتها, لكنني لم أكن اتحدثُ بها...

وفجأةً, شعرتُ وأنا فوق الشجرة, أنني في مكانةٍ اعلى من حيث أنّني كنتُ أشرفُ على المكان

الذي يقف فيه (أمير) أسفل مني, وعند ذاك, صحتُ بصوت عالٍ وبكل عنفوان!

_ لقد هربتُ بسببك! نعم! أنت تستهزئ بي دوماً وتعيب شكلي ولغتي وبلدي, وكل شيءٍ فيّ

وتظنّ أنّي لا أفهمك, لكنني أفهم جيداً كل كلماتك! أنت السبب!

وهنا فتحتُ عينيّ بعد أن اغمضتهما بـ(انفجاري) ذاك, لأجد (أمير) مذهولاً, و(فؤاد) ينظر الى أخيه شزراً بينما أخوه مندهش وكأنّ

على رأسه الطير!! توقفتُ عن الكلام وذرفتُ الدموع, فشعرتُ أنّ (أمير) قد شَعَرَ بالخجل من

نفسه وخصوصاً بعد ان قال له فؤاد مقرّعاً...

_ عار عليك! إنها يتيمة وقد فقدت والديها وأخاها!

_ ياالهي! أنتِ تتحدثين الاميركية إذاً! وكنت تفهمين!

لم اتكلم بعد ذلك, بل بقيت دموعي تنهمر مدراراً... التفت فؤاد إليّ وأخذ يكلمني بصوتٍ حنون... لم أستطع إلا الاصغاء إليه بينما أخذ الغصن ينكسر فتشبثت بالشجرة وانا أرتجف, وهنا لم أجد نفسي إلاّ محاطةً بذراعي (أمير)

الذي صعد بسرعة ليأخذني ويتلقفني من فوق ذلك الغصن فوجدت نفسي بين ذراعيه ينظر إليّ

بندم وحنان وكأنني طفلته الصغيرة وهمس لي بصوتٍ خفيض قبل أن يُنزلني نحو (فؤاد) الذي تلقفني بحذر.... أقول- قال لي, هامساً (سامحيني يافاتن, أنا أحمق)....

ثم قال لي بصوت يسمعه (فؤاد) جيداً ....

_ والآن, سوف أُدليكِ نحو فؤاد, ولكنْ, أمسكي بيديّ جيداً كي لاتقعي...هل فهمتِ ما أقول؟

أشرتُ برأسي دلالة الايجاب, عندما تدليت بسرعة وأمسكني (أمير) بقوة وهو يقف على غصنٍ غليظ, بينما تلقفني (فؤاد) وضمني اليه بحنان, فبكيت وأنا أُحيط رقبته بذراعيّ:- بابا (فؤاد)!

شكراً لك ....

_ لقد أمتني رعباً! لاتكرريها مرةً أخرى! هل تفهمين! سوف يغضبُ (بابا فؤاد) منكِ للغاية عندها!

_ كلا! أبداً! لن أفعلها! أعدك.... انا آسفة...

ومنذ تلك الحادثة... لم يعد (أمير) يؤذيني بأية

كلمةٍ ولانظرة, بل على العكس, أخذ يعلمني كيف أعزف البيانو معه وكنّا نغنّي سوياً أُغنياتٍ يعلمها إياي...

بل أخذ يلاطفني كثيراً ويجلبُ لي الحلوى معه, وكراسات للرسم, لأنه علم أنني أحبُّ التلوين وقضاء بعض الوقت في خربشاتٍ صغيرة....قفزت دمعتان من عينيّ بعدما استفرغتُ تلك

الذكرى الجميلة, وقد رأى ذلك (أمير) الذي وجدته قد انتصب فجأةً أمامي...

_ ماالأمر يا(فاتن)! هل أنتِ بخير ياعزيزتي!

_ أوه!! أمير!

هتفت بارتباك وانا أنظر الى روزالي التي كانت تلعب مع فارس حيث جلس بدلاً عنها فوق الارجوحة في تلك اللحظات, وكانت تحاول ارجحته وهي تضحك وتقهقه,بصوتٍ يصل مسمعه إلى حيث جلست ... نظرتُ الى (أمير)

_ أوَ تصدّق ماذا استذكرت...

_ ماذا! هيا قولي بسرعة...

نظرتُ الى (أمير), ياالهي.... لقد زادته سنوات العمر وقاراً و رجولةٍ وجمالاً ووسامةٍ... كان يذّكرني كثيراً بفؤاد لمّا كان في عمره تماماً... بادلني (أمير) نظرات دهشةٍ وتعجبّ...

_ لاشيء حقاً!

_ كلا, كلا! قولي فوراً! حالاً والآن!

_ أمير! استذكرتُ لمّا هربتُ من منزل خالتي بسبب غضبي منك, لمّا كنت تسخر مني دوماً! هل تذكر ذلك؟

نظر (أمير) إليّ بدهشة واتسعت حدقتا عينيه السوداوين.. ..

_ ياالهي! أووه! مالذي ذكرّك بهذا يافاتن! كنّا صغاراً جداً! رباه! .... وقتما صعدت على الغصن المكسور!

_ نعم, ياأمير! عندما صعدتَ إليّ وأنقذتني!

_ رباه! يالتلك الذكرى! أنا لم أنقذكِ, بل أنتِ من انقذتني فاتن!

تمتم أمير بصوتٍ حزين مليء بالشجن وبين طياته حنين...

_ بالعكس ياأمير! كيف ذلك؟

رفع (أمير) عينيه المليئتين بالحب والحنين... ارتبكتُ كثيراً ...

_ لأنك علمتني درساً عن الاخلاق, وكيف انني كنتُ أنانياً ! أدبتني وعلمتني كيف أتصرف كأنسان!

_ امير! كلا أنتَ تبالغ! دع عنك هذا!

نهضتُ بسرعة لأتدارك ارتباكي وأهرب من ذلك الموقف, عندما أمسك (أمير) بيدي بقوة وأوقفني ناهضاً باتجاهي...

_ لقد اشتقتُ إليك يازوجتي الغالية ... الى متى هذا الوضع؟ خبّريني يافاتن! أوَ لاتشتاقين إليّ أبداً!!

_ لم نعد زوجين يا(أمير)! أرجوك, دع يدي !

قفزت دمعتان أُخريان من عينيّ, فارتبك (أمير) بشكل كبير ...

_ أرجوك! أنا آسف حقاً! لكنني... حقاً...حقاً ...

همس بصوت خفيض وكـأنّه يحدّث نفسه...

_ أنا أحبك ياغاليتي و لا أستطيع البقاء بعيداً عنكِ....

_ وكذاك (فؤاد)!

هتفتُ بألم , عندها ترك(أمير) يدي وقد تحولت نظراته الى نظراتٍ حازمةٍ غاضبةٍ....

_ أعلم هذا جيداً! لكنْ, ماذا عنكِ أنتِ! قلبك هو القادر على الاختيار وإنهاء عذابنا ثلاثتنا! أنتِ تعلمين جيداً!

_ كلا ياامير ! أرجوك! ألم نتفق أن نعيش كما كنّا كأبناء خالة, دون شيئٍ آخر .... أرجوك! لماذا تعذبني!؟

_ لماذا! ياألهي! (هتف يغضب) ثم دفعني نحو الجدار ووضع ذراعه فوق رأسي وهو يقترب مني هامساً...

_ لأنني أحبكِ, ولأنك كنت زوجتي, ولأنني أُريدُ حلاً لرؤيتي اياك أمامي كل يوم دون ان اقدر

على لمس يدك او الاقترابِ منك؟

اخذتِ الدموع تنهال منّي.... بينما تابع هو دون ان يلمسني...

_ ارجوكِ يافاتن ! انت تعرفين أنّ كلينا نحبك... تعرفين أنني أراك كزوجةٍ لي...

كنتِ لاتزالين بالنسبةِ لي, ووجودك عذابٌ لي... انتِ لاتفهمين....

_ لذلك هربتُ واختفيتُ(ياأمير)! ارجوك... أرحمني!

وهنا لانت قسمات وجهه ورفع يده من فوق الجدار أعلى رأسي و ابتعد بسرعة مشيحاً بوجهه عني....

_ سامحيني أرجوكِ... ألم أقل لكِ أنك تنقذيني دوماً, لأنني أناني حقير! أعتذر منك جداً يافاتن! إنسي ماقلت رجاءاً, ولاتذكري شيئاً لفؤاد! ارجوك....

التفت بسرعةٍ إليّ لينظر إليّ بألم شديد,

ثم ابتعد عن المطبخ بسرعة هارباً مني... ولربما من نفسه و تركني في نفس المكان , كأنني واقفةٌ على نفس ذلك الغصن أكاد أسقط منه كل حين, بل يكاد ذلك الغصن أن ينكسر فأسقط من فوقه الى الارض...دون أن ينقذني أمير هذه المرة أو أن يتلقفني فؤاد....

الفصل الرابع عشر

صعدت نحو غرفتي وأنا اغالبُ دموعاً تنهمر من عينيّ... شعرت أني لم أعد قادرةً على المقاومة أكثر... لم أعد قادرةً على البقاء على مبادئي وتربيتي مع كلّ تلك الكلمات الجياشة, والمشاعر المتدفقة من بين شفتي أمير... لم أعد قادرةً على مقاومة نظراته, ولاكنتُ قادرةً على مقاومة نظرات (فؤاد) ... شعرت بروحي ضائعة في غابةٍ شاسعة في ليلةٍ مظلمة شديدة السواد, وأنا اركض بمفردي نحو مصير مجهول حتى وجدتُ نفسي وفجأةً وقد سقطتُ في حفرةٍ عميقة جداً, لم أعد أستطيع الخروج منها... سمعت فجأة صوت (فؤاد) وهو يصيح بألم من غرفته, فهرعتُ نحوه قبل أن ادلف غرفتي....

فتحتُ باب غرفته دون أن اطرقها خوفاً مني عليه, فوجدتُهُ فوق سريره مستلقياً, التفت اليّ بجذعه كلياً وهو ينظر بدهشةٍ نحوي فارتبكتُ جداً, وقلتُ له متداركةً لأبرر موقفي ...

_ سمعتُ صوتك وأنت تصرخ متألماً! أنا, أنا آسفة لأنني لم اطرق الباب, لقد ظننتك, ظننت حقاً, أنك.....

_فاتن, صغيرتي الغالية....فاتنتي الصغيرة...

هتف فؤاد بصوته الحنون وهو يقف فجأةً أمامي ليمنعني من الخروج من الباب, وتابع بصوتٍ رخيم ممسكاً ذراعي وقد صار قبالتي مباشرةً...

_ فعلاً كنتُ أتألم! إنك تسمعين صوت قلبي يافاتن!

_ فؤاد! أرجوك!

قلت بألم, فلم يتكلم فؤاد بل ظلّ ينظر إليّ بعينيه اللتين اخترقتا روحي اختراقاً.... بعد دقائق طويلة ظننتها دهراً, قال بعد ذلك بصوت خفيض متوسط....

_ كنتُ أتألم فعلاً بمفردي, فجسدي يؤلمني من رأسي حتى أخمص قدميّ المتورمتين ....

عظامي تؤلمني جداً! أنا عجوزٌ هرم, وأنتِ تعرفين ذلك, وأصبحتُ عجوزاً وحيداً...

لم يعد هنالك من يرعاني في مرضي ولم يعد لي أحد, وسأقضي نهاية عمري بمفردي...

عليّ أن أرتضي بمصيري هذا وأقبل به.... تصبحين على خير يافاتن !!!

أدار (فؤاد) ظهره إليّ وذهب نحو سريره ليتمدد فوقه ويضع رأسه فوق ساعده بالاتجاه المعاكس لي حيث وقفت, تاركاً إياي على حين غفلة....

الفصل الخامس عشر

قررتُ بعد ليلةٍ طويلة من الارق لم يغمض لي فيها جفن, وأنا أتقلّب يميناً وشمالاً وقد أحكمتُ إغلاق غرفتي بالمفتاح وكأنَّ ذعراً خفياً نشب في قلبي ووجداني, أن أذهب في أولى تباشير الصباح إلى منزل ابنتي, فأما أن ترتضي لي المكوث معها للأبد, أو أن أرحل مجدداً إلى مكان آخر لااعرف ماهيته, فقد شعرتُ أني أنقسم الى نصفين وكأنّ ناراً حارقةً تكوي قلبي وروحي فتارةً أتقلّب ذات اليمين لأحلم بعيني (أمير)وكأنه معي يكلمني ويدعوني إليه, (أيّ عذابٍ هذا ياإلهي)!! كنتُ أحدّث نفسي, ولمّا أتقلب ذات الشمال أرى فؤاداً بقربي وكأنّه معي, وهو يناديني أن أضمّه بين ذراعيّ, فأشعر بتلك النار تكويني أكثر وتحرقني بشدّة... لقد ظننتُ يوماً ما أنني محظوظةٌ جداً بحبّ (فؤاد) لي, ولمّا وجدتني أحببتهُ (أميراً)

كزوج وكمحب مخلص, دغدغ ذلك الشعور وجداني الأنثوي ووجدتني أمارس مراهقتي المتأخرة بشكل رائع, لكنّ ذلك انقلب فجأة عليّ, إذ اصبح كلّ ذلك وبالاً ونقمةً عليّ, ففي تلك الليله تخيلت نفسي وقد وقعت في شباكها كليهما.... (ماذا سيكون مصيري؟) هل سأكون منقسمة الفؤاد بين (أمير) و(فؤاد)؟! ان تحب شخصاً, وهو قمة مايطمح له البشر وأجمل شيء في الوجود وثم أن تجده يبادلك الشعور ذاته, ولكنْ, أن يكون هنالك شخصان... أن يكون هنالك

رجلان يتنافسان لنيل (حبك)! فذلك عذاب في عذاب؟! خاصة وأنك تعلمين عن قلبك لمن يميل ومن يحبّ اكثر !! وخاصة وأنك تعلمين في نفس الوقت ان ذلك الشخص الذي تميلين إليه, أصبح مريضاً لايستطيع سوى الرثاء لحاله ويظّل يصرّ على أبعادك عنه وكأنك طبق طعام يقدّمه لغيره ثمّ يندم ويريد استرجاعه بسرعة!! لم أعد أعرف ماالصواب وما العمل؟ وكيف لي أن اعرف ماذا أفعل وقد كنتُ أنظر الى (بابا فؤاد) ليدلني إلى الصواب ويرشدني فوجدتُهُ هو نفسه حائراً لايعرف ماالعمل ويريد مني انا الاختيار!! كيف لي أن أختار؟ هل احرق قلب (أمير) مرةً أخرى!!هل اجعل فؤاد يتألم ألماً مضاعفاً فوق ألم مرضه؟! كيف لي ان افعل كل هذا معهما! فأي عذاب أعيشه وكيف الحل؟ نعم, كان لابدّ لي أن أهرب بعيداً عنهما! لأن مقاومتي بدأتْ تضعف أمامهما ولم أعد أعرف ماذا أفعل؟ وكيف لي أن اتحدث معهما وهما يلمحان لي بشكل جلّي عن الأشواق وعن زواجنا وعن كل مامررنا به من مشاعر؟! كنت اتمنى لو يجتمعان كلاهما في شخص واحد كي أرتاح!!! لم أعد قادرةً على رفض (أمير) وكسر قلبه كل حين, خاصةً وقد وجدتني كزوجةٍ له, أسعد (أمرأةٍ) في العالم, عندما كنّا معاً إذ لم يؤذني ولم يسمعني كلمةً جارحةً في أي وقت.... وكأنه كان في سباق مع نفسه ليثبت لي كم أحبني؟ فهل لي بعد كل ذلك أن أجرح شعوره, أو أن أختار أخاه دونه أو أن أُفضّل أخاه عليه؟ أي نكرةٍ سأكون حينها....(رحماك يارب)... بقيتُ أردد في سرّي حتى الصباح بعدما

صليت الصبح وبقيت أقرأ القرآن علّني أرتاح من قلقي وذعري ....(أمير) و(فؤاد) أصبحا شقّي معادلةٍ رياضيةٍ صعبة الحل, ولم أعد أعرف كيف أصل الى نتيجة حتمية لها, أو لعلها مبرهنةٌ لايمكن اثباتها أبداً من قبلي مثلما اراد لي أن افعل.... لملمت بعضاً من ثيابي وحزمت حقيبةً صغيرة وخرجت من غرفتي وأنا أشعر أنّ دوري في الهروب يتكرر في كل مرحلة عمرية من مراحل حياتي, وكادت الدموع تسقط من عينّي مدراراً وأنا اهبط السلّم مبتعدة عن تلك الغرفة التي سكنتها مذ عدتُ من المشفى وقررّ (أمير) و(فؤاد) أن يتركا لي حريتي.... كان قلبي يعتصر ألماً وحزناً فمجرّد شعوري ببعدي عن (فؤاد) كان يُمزّق نياطه ويجعلني لاأعرف كيف اتصرف.... تخيلتُ منظره وهو يدير ظهره إليَّ متألماً ليخبرني أنّ جسده يؤلمه وأنه قد اصبح عجوزاً عاجزاً.... واعتصر قلبي ثانيةً وأنا أتخيل عيني (أمير) وهو ينظر اليّ بحب منتظراً إشارةً مني كي أُعيد له امله في حبي مرةً اخرى.... وغلبتني الدموع عندما فتحت(فرح) باب منزلها لي وهي تنظر الى حقيبتي لتصيح مذعورة بينما عيناها معلقتان بدموع عينيّ

_ ما الامـــر يا أُمّـــــاه! ماذا حدث لكِ؟ أرجوك ما الأمر؟

وظهر هاني بسرعة من خلفها وقد خطّ الشيب فوق شعره الأشقر في كل مكان وكان يرتدي كنزة صوفية فهتف بي:

_ فاتن! ماذا جرى؟ هل أنتِ بخير!

_ هاني! هل يمكنك أن تنقذني من نفسي! أنا محتاجةٌ اليك! وارتميت فوق كتفه باكيةً فضمّني إليه بحنان الاخ الذي طالما كنتُ أنشده فأجده عنده حتى لمّا كنا مراهقين....

_ فاتن! غاليتي! تعالي وأدخلي, إحكي لي, فأنا تحت امرك

ودلفنا الى غرفة المكتب وأشار

لفرح بعينيه أن تتركنا بمفردنا وأغلق الباب خلفه ونظر إليّ بقلق هاتفاً بي....

_ فاتن! هل آذاك أحدٌ منهما, اخبريني فوراً....

_ كلا, كلا, هاني! ليس الامر هكذا!

قلتُ وأنا أكفكف دموعي بينما جلستُ على الاريكة متداعية... أنحنى هاني نحوي وهو يقول هامساً بصوت خفيض...

_ لاتظنّي أني لم أعلم بما فعله (فؤاد) آخر مرّةٍ لمّا هربتِ....لقد حكى لي كلّ شيء واعترف أمامنا أنا و(أمير) وهو يبكي بجنون, إنّه يحبّك يا(فاتن), لكنّ غيرته من (أمير) قد دفعته لفعل مافعل, وكذلك الأمر بالنسبة لأمير فهو يحبك جداً(قاطعته فجأه وأنا منهارة)

_ ولذلك هربت! ولذلك أنا لاأستطيع البقاء يا هاني! ساعدني!

ودفنتُ وجهي بين يدّي وأجهشتُ بالبكاء... وضع هاني يده فوق كتفي مربتاً وأعطاني منديلاً لأكفكف دموعي وقال مواسياً...

_ حسنٌ يافاتن الغالية, كفاكِ بكاءاً أرجوكِ! أرجوكِ!

كفكفتُ دموعي وأنا أنشج بين الفينة

والاخرى وشعرتُ أني أختنق فجلس هاني بقربي مربتاً على ذراعي وهو يهتف بي

_ فاتن! كفاكِ بكاءاً! لابدّ من وجود حلّ ما! دعينا نهدأ, وقولي لي ماذا استجد في علاقتك مع أخويّ!! ألم تكونوا جميعاً بخير, وكنتم في سلام وسعادة! ألم نزركم قبل يومين وكنتم في قمة السعادة مجتمعين مع فارس وروزالي والتوأم بينكم فَرِحَينِ يلعبان!؟ ماذا استجدّ بالله عليك؟

حاولت أن اتنفس جيداً وشهقت وأنا اكفكف دموعي لأقول:

_هاني! أنا لاأستطيع الاستمرار هكذا.... أنا فعلا لااعرف ماذا أفعل؟ دلنّي كأخٍ لي, أرجوك! أرجوك! قام هاني من فوق كرسيه وجثا قرب كرسييّ مربتاً على ساقيّ....

_ لاتقلقي! أنتِ أختي الوحيدة في هذا العالم ويشهد الله على ذلك, فأنتِ تعلمين كم أحبك وكم أأتمنتكِ على كل أسراري لمّا كنّا مراهقين... أنا أذكر كيف ساعدتني مرّةً على استرجاع علاقتي ب(كاثرين) عندما تخاصمنا, بطريقتك الانثوية التي جعلتها تغيّر عليَّ منكِ ولم تكنْ تعلم أنكِ ابنة خالتي وأختي الغالية.... أرجوكِ يافاتن.... افتحي قلبكِ لي وتكلمي بكلّ مايحزنك ويهمّ قلبك هذا!

قال ذلك وهو يشير الى صدري وعيناه تشعّان حناناً... تنهدت بألم وأنا اضع كلتي يديّ على قلبي وأشهق

_ هاني! أرجو أن لاتخبر أخويك بما سأقوله الآن!! أرجوك ياهاني.... لكنْ... لكنْ, هل أخبرك (فؤاد) بما فعله معي قبل ان ارحل من هنا, لمّا غبتُ لعامين؟! هل أخبرك بفعلته حقاً! هل

أخبرك أنهُ هو الذي رفضني كزوجة ودفعني دفعاً الى الطلاق كي أتزوج (أمير)!...أمير الذي

ظلّ أخاً لي لمدّة شهرين من زواجي به! بقينا هكذا حتى ملّ الصبر منّي وشعرتُ أنّي أسوء

زوجة له رغم طيب معاملته لي؟! ولمّا وجدتُ (فؤاداً) قد أهملني تماماً بسبب تفاقم مرضه,

أو بسبب رثائه لنفسه, لاأعرف ماذا أقول ياهاني! أنا, أنا, لاأستطيع أن أتكلم عن أخويك هكذا أمامك, لكنْ, لكنْ, لمنْ سأحكي, قل لي .... أريد أن أبوح بسرّي, أريد أن أقول وأن أشكي

همي لبشر !تعبتُ ياهاني! تعبت....

وبكيتُ مرّةً أُخرى فأمسك هاني بيديّ وأبعدهما عن وجهي

وقال بحزمٍ وهو يضع يديه فوق كتفيّ ليهمس بحنان

_ تكلمي ياأختي العزيزة.... أنا هنا لأجلك, ولن أخبر أخويّ.. أنا أحبك مثلما احبهما... تكلمي وأزيحي عن كاهلك كلّ أذى وألم عن صدرك كل هم... نظرتُ الى (هاني) والدموع تتسابق من عينيّ دون أن أستطيع كبح جماحهما لأقول له :-

_ هاني! هاني! وبكيتُ مرةً أخرى....

_ هاني! أنتَ لاتفهم أنّ مرض (فؤاد) آذاني كثيراً فقد أصبح صعب المراس لمّا كنتُ زوجته وأخذ يكيل لي التهم أني على علاقة ما مع (أمير) وهو يعلم تماماً أني أصدُّهُ دوماً وماذنبي يا(هاني) لمّا غاب (فؤاد) خمس سنوات عني, ماذنبي أنّ (أمير) ظلّ يريد الزواج مني..... هل ذلك ذنبي.... ثم أنت تعلم ماحدث بعد ذلك (وأطرقتُ بخجل)...

_ فاتن! أكملي.... ماذا حدث بعد ذلك....

_ لقد.... لقد أجبرني على تركه والزواج من (أمير) ثم... ثم لما تزوجته كما تعلم, وكما حكيت لك الآن, ياهاني... لاأعرف ماأفعل ياهاني.... لقد أخذ يغار من أخيه, وبشكل مبالغ, بحيث أنني أحذر النظر الى أمير أمامه أو الكلام معه, ولم أعد أعرف ماذا أفعل....هاني! أنا أعيش صراعاً مضاعفاً... لقد سامحتُ (فؤاد) كما سامحته دوماً على كل شيء... سامحته لأنه حبي الاول والاخير.... سامحته لمّا آذاني وضربني ثم حاول أثبات ذكورته التي يشعر أنّه يفقدها بسبب تفاقم مرضه.... ماذا أقول أنا وبماذا أهذي؟ ياربّ... أنا متعبه للغاية ياهاني... ورميت رأسي فوق كفّي مرّةً أخرى لأنتحب من جديد... لم يتكلم(هاني) بشيء, بل وجدته ينظر الى الارض وكأنّه يشعر بالعار لما سَمِعَهُ مني وكأنّه يسمعه للمرّةِ الاولى, فهتفتُ به وأنا امسح دموعي وأسئلةٌ كثيرة في ذهني

_ هاني! ألم تقل أنّ (فؤاداً) قد حكى لكما ماحدث؟

رفع (هاني)رأسه خجلاً وهو يحاول إبعاد نظراته عني, فشعرتُ بالعار والذنب الشديد لبوحي بذلك السرّ الذي كتمته في قلبي عن (فؤاد)

ولم أحكِهِ لأحد طوال ذينك العامين ومابعدهما لمّا عدت للعيش في منزلي مع (فؤاد) و(أمير) وأطفالي....

_ آه! ياويحي! لقد كشفتُ أمري إذاً!

_ فاتن! كفى! بل أنتِ أكثر إنسانةٍ يجب أن يكون لها الحق بالكلام, فأنا لم أكن أعلم بما حدث معك, أنتِ و(فؤاد) قبيل مغادرتك دون علمنا, لمّا بقينا نبحث عنكِ في كل مكان حتى ظنناك متِّ أو أصابك مكروهٌ ما!! لقد قال أنّهُ أهانك فحسب؟!! فاتن يجبُ عليك أن تزيحي عن كاهلك هذا السر... تكلمي... قولي كل شيء... لكنني.. يجب أن أُحاسب (فؤاداً)... واعتذر لكِ إن قلتُ ذلك, فأنتِ أختي ولن تذهبي الى ذلك المنزل بعد هذا ابداً... لن اسمح لك ولن اسمح لــ(فؤاد) بتعذيبك هكذا والتلاعب بمشاعرك, أبداً, أبداً...

رفعت رأسي نحو (هاني) وشعرت وكأنّ دفقاً من ماء دافيء قد انسكب فوق (فؤادي) مع تلك الكلمات الحانيات منه, بل شعرتُ أنني عُدت الى منزل والدي في العراق وكأنني بين ذراعيه, بعدما كنت أشعر بالأمان بين ذراعي (فؤاد) فأصبحتُ أخافه أكثر مما أشعر بالأمان معه, وأتجنب نظراته أكثر مما أحبّ أن ينظر إليّ... لقد فقدتُ (الامان) مع (فؤاد)... فقدت شعوري السابق مع (فؤاد) بأنني(ابنته)

التي يرشدها, ويحميها, وكم(كنت افتقد ذلك الشعور)... لم أشعر وأنا أحتضن (هاني) بذراعيّ وأشكره مراراً بينما يربتُ هو على ظهري إلاّ لمّا دلف (فؤاد) مع (أمير) وهما يتسابقان للعثور عليّ بينما (فرح) تحاول ايقافهما....وقف الجميع مذهولاً.... لقد فتحا الباب فوجداني قد احتضنتُ (هاني), لكنْ ذلك الحضن كان (أخوياً) بحتاً وكلانا يعرف ذلك- أقصد هاني وأنا- أما هما- أي (أمير) و(فؤاد) فقد صعقا ولم يفهما مايحدث, وكذلك دهشت (فرح) التي تعرف جيدا أنني اتجنب (المصافحة) فماذا عن غيرها؟

_ (فؤاد)! (أمير)!

التفت هاني نحو أخويه مندهشاً, فقطب (أمير) مابين حاجبيه بينما هتف (فؤاد) باقتضاب....

_ لقد قلقنا على ....(فاتن)....(قال اسمي بوهنٍ شديد)....

_ (فاتن)! ألا يكفيكِ مافعلتيه معي من قبل! كيف ترحلين دون أخبارنا, ولو حتى برسالة, أو أتصال! لماذا تهربين دوماً! كفاك تلاعباً بأعصابنا!

صاح (أمير) بغضب, فصاح (هاني) بسرعة....

_ أرجوك! كفى.....(فرح) أخرجي لو سمحت ودعينا لوحدنا, لاأريد لابني ولاأبنتك ان يدخلا علينا, مفهوم؟؟

_ حاضر ياعمي! (قالت فرح بدهشة وهي تغلق الباب)

_ أجلسا رجاءاً ! ففاتن لن تغادر منزلي هذا! أبداً!

قال (هاني) بحزم شديد, فبانت الدهشة على ملامح (أمير) الذي جلس بسرعة بينما ظل (فؤاد) واقفاً, عندما هتف به (هاني)...

_ إذاً! أوَ لاتريد أن تعرف لماذا تركت (فاتن) المنزل؟ أم انك تعرف جيداً ولا تريد لأمير أن يعرف؟

شعرت أنّ الارض قد أنشقّت تحتي وحاولت أن أفتح فمي لأوقف (هاني) عن الكلام, لكنني وجدتُ أطرافي مشلولة, ولا أستطيع النهوض من فوق ذلك الكرسي الوفيرحيث جلست... ضاقت عينا(فوائد) وشدّ على قبضتيه، عندما هتف فجأه...

_ لا أريد سماع شيء يا هاني! هي حرّةٌ اينما تذهب!

_ (فؤاد) !الا... أنت لم تعطيها حريتها !! أنت توهمها بذلك؟ بل أنت سجانها وهي مقيّدةٌ إليك بقيود لا ترضى أن تفكها! أو تدري لماذا يا (فؤاد)... أو تدري ! أنت تتلذذ بتعذيبها !

_صه, وإلا ضربتك يا(هاني)!

قال (فؤاد) وهو يصرّ على أسنانه, لما هتف (أمير) محتجاً

_ ما الذي تقوله يا(هاني)! أنت لابد تهذي!

_ أوه! ربما أهذي.... ربما.... لكنني أبنُ خالة(فاتن) والوحيد بينكما هنا, الوحيد الذي لايفكر فيها إلا كأختٍ لي.....

_ ذلك واضح كما شاهدنا!

عقبّ (أمير) ساخراً, فبان الغضب على (هاني) وصاح....

_ أنا على الأقل! لم أؤذها مثلكما! ولم أدعها تشعر بالعار دوماً! ولم.... ولم أمسّ شعرةً منها دون موافقتها مثلما فعلتما أنتما الأثنان بدون خجل!

دفنت وجهي بين كفّي وأخذت أصيح:- (رحماك يارب)! (توقف ياهاني)... توقف! أخذتُ أردد عندما صاح (أمير) بألم وهو يمسك

بتلابيب (هاني) مزمجراً وقد شدّ على قبضته ليلكمه في وجهه....

_ ماذا تقول يا تافه! سأُحطّم وجهك ياحقير! أنا لم أتعمّد ماحدث, وقد رزقني الله بتوأم, لكنْ ماذا.... ماذا تقصد بكليكما! ماذا!

وهنا التفت إلى (فؤاد) غير مصدّق ما سمعه من (هاني) عندما رأى (فؤاداً) يطرق الى الارض متألماً

_ دعه يا(أمير) إنّه محق! أنا السبب في كل هذا!!

_ ماذا.... ماذا يعني (هاني)... قل لي يا(فؤاد)! أنا.... أنا لم افهم! افهمني يا(هاني)! أرجوك!

_ لم تغادر(فاتن) عندما ظننتَ أنها هجرتك لمّا كنتَ زوجها, إلا بسبب (فؤاد)!... لاأستطيع أن أوضّح أكثر... ياأخي... هو السبب... هو من... لقد... اعتدى عليها غيرة منك وحنقاً عليك وعليها.....

ظلّ (أمير) يتلفت بين (هاني) و(فؤاد) غير مصدق مايسمعه....

_(فؤاد)! ماذا فعلتَ لـ(فاتن)! حقاً! أنتَ! لالا.... لاأصدّق... لكنْ لماذا لم تتكلم طيلة تلك المدة.... وكنتَ أنتَ السبب.... لكنْ لماذا جعلتها تتزوجني, إن كنت .... ياالهي... ماذا عليّ ان أقول....

وارتمى(أمير) متهالكاً فوق الاريكة بينما لم يرفع(فؤاد) رأسه وظلّ موليا وجهه شطر الجدار عندما رفع ناظريه إليّ ليوجه نحوي نظرات دامعة كلها استعطاف واعتذار وندم ثم أبعد عينيه بسرعةٍ عني ليغادر غرفة مكتب (هاني) دون كلام....كان (أمير) قد دفن وجهه بين كفيه مطأطأً حتى غادر(فؤاد) عندما رفع رأسه ونظر الى هاني ثم إليّ بنظراتٍ ملؤها الأعتذار والندم والاستعطاف ثم نهض ليهتف بي ...

_ فاتن! لقد ظلمتك طيلة سنوات ثلاث مرتْ منذ تركتني في تلك الليلة.... أنا....أنا ظننته قد سقط بسبب عدم أخذ جرعة الانسولين على الارض ولم أكنْ أدري, آه! يا لحماقتي! وأنتِ تعانين من صراعات نفسية طيلة هذه الفترة.... أنا...أنا لن أقول شيئاً... سوى... سامحيني يا(فاتن)!!

وأبعد نظراته المتكسّرة بأسى ثم التفت ليخرج من حيث خرج أخوه من قبل وتركاني مع (هاني) عندما نظرنا الى بعض فذرفت الدموع وربّت هو على كتفي...

_ لاعليكِ يا(فاتن)... سوف تكونين بخير... فالخطوةُ التي اتخذتيها كانت صائبةً للغاية... كان عليكِ أن تحكي لي منذ البداية.... فمن الخطأ ان تظلي تصارعين تلك التقلبات النفسية والآلام بمفردك.... الآن... لن تعودي هناك, ولسوف ترتاحين معنا, أنا على يقين... اعتبريها فترة استجمام, أو ليست افضل من السفر الى (العراق)؟ هه.... قولي يا أختاه؟

قال ذلك وهو يغمز لي بعينه اليُمنى كما اعتاد أنْ يفعل دائماً فغلبتني ابتسامة جعلتني أحتضنه مرّةً أخرى وأنا اردد من اعماقي بينما كنتُ ابكي فعلاً....

_ هاني! لاأعرف كيف أشكرك, على كل شيء....

الفصل السادس عشر

لم أكن أدري.... أوَ كلّ الرجال متشابهون, أم أن هنالك فروقاً لابدّ أن تذكر؟!....

لقد ظننتُ يوماً ما أن (فؤاداً) هو (أيقونة) الحبّ والوسامة والرجولة وأنّه يمثل الأب والزوج والصديق في آن... ولقد كان كذلك يوماً ما فعلاً, لكنْ, هل كل الرجال متشابهون, عندما تصل الامور الى المحك, وتتعارض مصالحهم الشخصية مع من يحبّون, فيفضلون أنفسهم؟؟ أم لعلّه

ظنّ أنّه يفضلّني على نفسه لمّا طلقني بسبب ضعفه ومرضه, وقدمني(كطبق طعام) إلى أخيه, فاستعرت نار الغيرة في قلبه, وعاد لَيثْأَرَ لكرامته ورجولته المغدورة؟! لم أكن ادري

وأنا أحاول تحليل شخصية أحبّ أنسان لي في هذا الوجود بينما (فرح) تحمل طفلتها بين

ذراعيها وتقبلها.... طفلتها التي سمّتها بأسمي.... حفيدتي الجميلة.... كنتُ أجلس معهما في

الحديقة بينما يشرب (هاني) الشاي مع ولده وهما يتحادثان على انفراد حول الطاولة حيث كانا يلعبان الشطرنج..... نظرت (فرح) إليّ وأنا واجمةٌ أفكر في ابيها.... هتفت:

_ أوَ تفكرين في أبي يا أماه!

نظرتُ الى (فرح) وعيناي تكشفان كذبي....

_ كلا ياحبيبتي! أنا أفكّر بجمال ابنتك ياحبيبتي.... تعالي يا حفيدتي الحبيبة الى حضن

جدتك....قلتُ وأنا أفتح ذراعيّ لحفيدتي التي قفزت إليّ بمرح بينما لاحت مني نظرةٌ الى (فرح) فوجدتها تنظر إليّ نظرات متشككة وكأنها تقول لي أنني أكذب عليها....

_أمـــــــــــاه! لمَ لا تعودان لبعضكما!

_ ماذا تقصدين يا(فرح) من تعنين؟؟

_ انتِ وبابا ياأمـــــــاه! إنّه يحبكِ وأنتِ تحبينه! كلنا نعلم هذا..... حبكما لن يخمد أبداً.....

أدمعت عيناي وأنا أستمع لكلمات ابنتي.... فعلاً حبي لفؤاد لم ولن يخمد أبداً, ولكنني لم أكن أستطيع العودة إليه.... ليس وهو يسقط عجزه بسبب مرضه عليّ رغم إنّي لم أشتكي من ذلك ولم أقلْ له يوماً أي شيء عن ذلك أو أن أشير إليه..... فلقد كانت نظراته تكفيني دهراً وحبه يؤيني عمراً.... لقد كنتُ استمع الى كلمات (فرح) ابنتي البكر بينما لاحتْ منّي نظرةٌ الى (هاني) وولده فرفع (هاني) عينيه الخضراوين إليّ وابتسم, لكنه سرعان ماعبّس وكأنّه فهم حيرة نظراتي وتفكيري في أخيه البكر دوماً, أو لعلّه فهم حيرتي وآلامي.... لقد بقيتُ في منزله لعامٍ كامل, وكان (أمير) يزورنا مع توأمه كلّ يوم أو بين ليلةٍ وأخرى, ولم يغادر(أمير) منزلي ولم يترك (فؤاداً) أبداً.... كان يرعاه في مرضه, لأنّه لم يعد يستطيع السير مثل السابق بسبب تورم ساقيه مرةً اخرى بل وفقدانه الاحساس بهما في أغلب الأحيان وشعوره بخدرهما.... كان السكر قد آذاه بشكل كبير وخصوصاً وعمره قد تجاوز الستين ولم يعد يتحمل المرض وحقن الانسولين.... كنتُ أشتاق لرؤيته كثيراً لكنّه لم يكن يأتي .... خصوصاً بعد تلك الحادثة التي (فُضح) فيه امرُهُ أمام (هاني) و(أمير)! وكنتُ أشعر بالذنب طوال الوقت وأبكيه فوق وسادتي, فيا لسذاجتي, رغم أنّه هو من آذاني, لكنني لم أستطع إلّا البكاء لأجله وعليه, كل ليلة وأنا أتذكر أيامنا سوية وحبنّا الذي دام دهراً.... لم أكن أشتاق أبداً إلا إليه ولم أكنْ أبالي بنظرات (أمير) بعد ذلك ابداً ولا تلميحاته لي وهو يجالسني مع توأميّ الصغيرين بينما يلعبان قربنا.... أخبار (فؤاد) كانت تصلني عبر (فارس) الذي كان يزورني بين فترةٍ وأخرى مع روزالي التي كأنها (قرينه) الذي لايفارقه أبداً... وكم شعرتُ أنهما يشبهانني (أنا وفؤاد)!!!

جاءت أعياد رأس السنة مجدداً ولكنني هذه المرّة كنتُ اعلق الزينة في منزل (هاني) وولده مع ابنتي وحفيدتي وقد أعددنا أنا وفرح طعاماً لذيذاً وكعكاً ومعجنات كثيرة لتجتمع افراد عائلتنا جميعاً... لم أكن قد رأيت (فؤاد) قرابةَ عامٍ كامل! من يصدق هذا! صحيح أنني غادرت منزلي

آخر مرةٍ بعد عيد رأس السنه المنصرم, بفترة لا أعلم مدّتها, لكنّ بعدي عن (فؤاد) كنتُ أشعر أنّه دهرٌ كاملٌ وليس مجرد عام فقط.... أبداً لم أشعر هكذا... وكنتُ أشتاقه كل يوم, وأكلمّه في سرّي وكأنّه أمامي رغم انني لاابعد عن منزلي إلا مسافة شارعٍ واحد!!....

الفصل السابع عشر

دلف (أمير) مرتدياً معطفاً أبيض زاده وسامةً وهو يشعّ ذلك الوهج الناصع منسجماً مع بياض بشرته الناصعة وشعرهُ الاشقرُ الطويل منسدل فوق كتفيه, نظر إليَّ مباشرةً وهو ينزع قفازاته وطفلاي الجميلان يقفزان أمامه ليحتضناني بسرعة, وكان يهتف...

_ الطقس باردٌ جداً يا عزيزتي (فاتن) ! كيف أنت! عيد ميلاد مجيد!

قال ذلك وقبلني من رأسي فابتسمتُ له وابتسم لي بسعادة وهو يسأل

_ كيف حالك عزيزتي اليوم؟!

نظرتُ اليه بامتنان وهتفت بحنان أهمس له...

_شكراً لك ياأمير.... دوماً ما تسأل عني يا عزيزي, أنا بخير.. كيف أنت... هل يؤذيك التوأم بمشاكستهما؟

_ ماذا! إنهما عيناي؟ أبداً لا! وهل نستطيع العيش دونهما؟ إنهما (اعصار تورنيدو) الخاص بمنزلنا!(غمزني ضاحكاً) ضحكنا سويةً واحتضنني بحنان بسرعة ونظر إليَ نظرته....

_ عزيزتي ! اريد لك السعادة دوماً ياغاليه وان تكوني بخير...

_ أمير!... أشكرك من كل قلبي....

جلس أمير بقرب (هاني) بعد أن تبادلا القبلات والأحضان... فجأة فُتح الباب, ودلف (فارس) مع روزالي التي قفزت نحوي تحتضنني وكانت وجنتاها باردتان للغاية....

_ اذهبي قرب عمك وبابا, أنتِ كقطعة ثلج يا صغيرتي, اذهبي قرب الموقد وتدفئي يا صغيرتي....

_ شكراً يا خالتي! أحبك, وعيد ميلاد مجيد!

هتفت روزالي بسعادة بينما احتضنني فارس

وقبلني وقبلته...

_ حبيبي الغالي.... كيف حالك يا ولدي العزيز ....

فجأةً, ظهر خلفه شخص, تمنيتُ رؤيته طيلة عام كامل تقريباً..... يالهي.... نظراته كانت سهاماً قد اخترقت روحي... ووقفنا لدقيقتين لانتحدث وكأن تلك النظرات قد ذهبت بنا إلى أيام المراهقة لمّا كنتُ في الثامنة عشر, يوم عُدتُ من منزل عمي هاربةً الى بيت خالتي, وانتقلت بنا تلك النظرات في لحظات الى كل مامررنا به سويةً كشريط سينمائيً سريع, لما حملني الى غرفتي, لمّا اعترف لي بحبّه في المطعم, ولمّا شدّني من ذراعي في الكلية, ثم أخذني الى المسجد, ولمّا خرجنا زوجين وعندما حملني الى غرفته, ثم ذكرياتنا معاً كأم وأب وقد رزقنا ب(فرح) ثم (فارس), وثمّ ماحدث له عندما أُصيب بالمرض وبسرعةٍ لاأستطيع وصفها, شعرتُ أنني أذوب في تلك الذكريات, ولاأريد لتلك النظرات أن تفارقني, لكنني تنبهتُ لهتاف (هاني) الذي ماأن صاح بنا حتى تداركنا نفسينا أنا و(فؤاد) فقد وجدناه يضحك علينا هو و(فارس) و(فرح) بينما طأطأ (أمير) برأسه جهة اليسار بعيداً عني....

_ أهلاً وسهلاً يا أخي الكبير! عيد ميلاد سعيد!

_ هاني! رأس سنة سعيد لك ياأخي!

هتف (فؤاد) متداركاً بينما شعرتُ أنا بالدوار واعتذرت لأذهب الى المطبخ بمفردي.... تبعتني (فرح) بسرعة ووجدتني أستند الى الطاولة ممسكة برأسي....

_ أمـــــــــاه! هل أنتِ بخير... أرجوك....

_ حبيبتي.... نعم, نعم, أنا بخير.... من قال لكِ اني لست كذلك؟

_ ماما! نحن جميعاً نعلم ماذا يحدثُ لك برؤيتك لأبي....

_ ماذا! يالهـــــــي!

هتفت بغضب.... ثم تابعت....

_ أنا لستُ طفلةً صغيرةً.... سآتي فوراً.... كنتُ أحمل الحلوى لأقدمها لكم شكراً لك حبيبتي... حملت صينية الحلوى وفعلاً اخذت اقدم منها لكل واحدٍ من افراد عائلتي الحبيبة

وبدأت بأمير الذي شعرت بالحزن والرثاء اتجاهه كوني دوماً ما أُهمله رغم رعايته لي وسؤاله عني.... نظر اليّ شاكراً وكأنّه يستعلم بنظراته (هل انتِ بخير)؟.....

نظرتُ إليه شاكرةً وابتسمت له... كنتُ أعلم أنّه لا يريد لي سوى ان اكون بخير ....

وكم امتننتُ له لأجل ذلك وزاد احترامه وحبّه في قلبي, لكنْ ليس حباً كذاك الذي حملتُهُ أبداً ودوماً في قلبي, لحبيب قلبي الاوحد(فؤاد)! تمنيتُ لو انني كنتُ أستطيع فعل شيء أُسْعدُ (أمير) به, وتمنيتُ لو أنني استطيع أن أكون زوجاً له من جديد.؟! لكنني لم أعد أستطيع, ووجدتُ نفسي في غاية السعادة والامتنان وانا في منزل (هاني) كأنني في مصحة نفسية (أُعالج نفسي), كي أهرب من نظرات (أمير) و(فؤاد), وكي أهرب من تقريع ضميري نحوهما, وكي لاأقع فريسة نزوةٍ يمكن أن تجعلني أُغضبُ (الله) عليّ بعد كل هذا العمر....

لكنني كنتُ أحتضن (فؤاداً) كل ليلةٍ في سرّي.....مع نفسي... وفوق وسادتي, كنتُ اجدني لمّا أصحو في منتصف الليل, فوق صدره وبين ذراعيه ونحن ننظر الى بعضنا بحنان, وذلك فقط ماكنت اشعر به, دون أن أعلم أهو حلمٌ أم حلم يقظة... فقد كنتُ أجد نفسي في أحضانه وأشعر بأنفاسه وكأنه بجواري... فقط, ذلك ماكنتُ أُريده, لا غير.... تمنيتُ لو أنّهُ فهم ذلك....

تمنيتُ لو أنّهُ عَلِمَ أني لاأُريد سوى روحه الحبيبة, ولايهمني شيء آخر.... لكنْ, أنّى لي أنْ أُرضي غروره وكبرياءه الذكوري وهو الذي قضى شبابه كلّه كـــ(دون جوان) ..

ولقد كنتُ أعذرُهُ دوماً, وأعطيه كل عُذرٍ في عقلي وقلبي ولستُ أدري, ألأنني أحبّه أكثر من نفسي, أو أنّ ذلك فعلاً صحيح.... أي, أنه فعلاً معذورٌ في كلّ مافعله معي لشعوره فجأةً بالعجز بعدما كان أيقونة الشباب والوسامة, وكانتِ الفتيات دوماً ما تلاحقه في كل مكان...

فلقد اعتاد الامر منذ مراهقته الاولى وأنا على ذلكم من الشاهدات لمّا كنتُ طفلة ولمّا اصبحتُ مراهقة.... لستُ أدري!!!

الفصل الثامن عشر

قدمت الحلوى أخيراً لــ(فؤاد)! أخذ قطعةً منها وهو يقول شاكراً ...

_ لاأستطيع أكل الحلوى يا(فاتن)!

توقفتْ نظراتنا وأنا منحنيةٌ نحوه أقدم له الحلوى... شعرتُ بالألم يعتصر قلبي لأجله.... لكنّه وضعها في فمه وهو يقول...

_ سآكلها لأنها من صنع يديك, ولأنني سئمتُ من نفسي....

_ (فؤاد)! أعتذر منك!

تمنيتُ لو أنني أحتضنتهُ وأنا أعتذر منه....نظرنا الى بعضنا وبسرعةٍ تداركنا نظراتنا كي لا يشعر بنا الآخرون.... وكأننا مراهقان, بقينا نختلس النظرات أثناء العشاء بينما كنتُ أجلس قبالته على المائدة بعد أن قدَّمتُ الطعام وصَبَبْتُ الحساء وأنا أخدم الجالسين من أفراد أسرتي الحبيبة, وكم كانت سعادتي كبيرةً بحضوره.... ياالهي, كانت نظراته الآسرة خلف نظارته السوداء الحبيبة تزيدهما بهاءاً وجمالاً وهو يختلس النظرات كل حين لي بينما ألعب أنا دور التي لا تعرف شيئاً ولاتدري لكنّ قلبي يخفق له بقوة ....(كم اشتقت إليك يا(فؤادي)....ياترى... هل أنتَ مشتاقٌ إليّ كذلك؟)...كان ينظر إليّ كل حين فعادت بي الذكريات الى تلك الايام لمّا كنّا في منزل خالتي ... ربّاه, كم اشتقت لتلك الايام.... صببتُ الشاي لأبناء خالتي ثلاثتهم, وكم كنتُ سعيدةً لأنهم جميعاً قد اجتمعوا معاً, فكأنني أشعر بروح خالتي معنا, فشعرتُ بسلام داخلي كبير في قلبي وروحي ووجداني... كان الشباب قد اجتمعوا في غرفةٍ أخرى, فارس وزوج فرح, (ابن هاني) مع فرح وروزالي والتوأم بينما بقينا نحن (الكبار) أو لأُقل _العجائز_ بمفردنا في الصالة...حملتُ صينية الشاي,

وقدمتُ الاقداح لكلّ واحدٍ من اولاد خالتي الاحباب, شكروني عندما هتف (هاني) وهو يرتشف الشاي بسعادة....

_ الله يا(فاتن)! أشعر أنني في منزل والديّ! أحبُّ شرب شايك! وهتف (أمير) معقباً بسرعة:

_ فعلاً يا(هاني)! لاأحد يعمل الشاي مثل (فاتن).... لقد ورثت هذا الامر من والدتي! (وهنا جلست بسرعة أبكيها)....

_ رحمة الله عليها....

قفزت الدموع من عينيّ دونما شعور... ولاحت مني نظرةٌ إلى (فؤاد) فوجدته ينظر إليّ بحنان وحُبٍّ وشغف وقد دفن وجهه خلف قدح الشاي وبخاره يتصاعد فوق عينيه الجميلتين.....

أطرقت بسرعة بنظرات خجولة بينما كان (هاني) يبكي و(أمير) يهتف:

_ رحمك الله يا أمـــّاه!

_ إنَّ روحها معنا الآن, أليس كذلك!

قال هاني وهو يكفكف دموعه...

_ أكيد ياهاني .... أنا أشعر بها معنا الآن... قلتُ بحزن وأنا أمسح دموعي...وقمتُ أحمل الاكواب (الأستكانات) ...

_ أنتِ تعلمين كم نحبك ياعزيزتنا فاتن!

هتف (هاني) وهو يناولني قدحه ممسكاً بيدي فجأة , فنظرتُ إليه بدهشة وكأنني شعرتُ أنّ بعد هذا الكلام, خطاباً....

_ هاني! ومن لي غيركم في هذه الدنيا! أنتم أعزّ الناس...

_ إذاً... هل سنجدُ حلاً الآن وهل ستعودان لبعضكما أم لا!

هتف (هاني) بي عندما لاحت مني التفاتةٌ نحو (أمير) الذي غضّ الطرف بسرعة... بينما سقطت نظراتي والتقت بنظرات (فؤاد) فالتصقتا بتلك الأشعّة الزرقاء....

_ أنا لا أفهم ما تعنيه ياهاني!

_ لسنا أغبياء يا عزيزتي (فاتن)! الأمر واضح وجلي...

هتف (هاني) ... ثم أردف....

_ إجلسي رجاءاً .... (قال ذلك وهو ينهض ليأخذ الأكواب من بين يديّ ويجلسني على الأريكة مقابِلُهُ هو وأمير وفؤاد)....

_ رباه! هاني! ماذا هنالك؟

_ أنتِ تعانين طيلة هذه الفترة وهو أيضاً! وليس هنالك مبرر لذلك....

_ وأنا قد تعبتُ من حبيبكِ هذا!

هتف (أمير) ضاحكاً باستهزاء وهو يحتضن فؤاد بذراعه محيطاً رقبته ليُربِّتَ على كتفه الأيسر فضحك (فؤاد)....

_ رباه! (هتفت بخجل وأنا لاأدري ما أقول)...

_ فاتن! أنا أحبك وأنتِ تعلمين ذلك.... لكنني لا أريد لكِ إلاّ السعادة.... أعلم يقيناً أنك لاتحبين سوى هذا الأحمق... رغم مرضه وغبائه وغروره... ورغم أنّه يستمر بالخطأ بحقك.... لكنك تحبينه وأنا قد قلتها من قبل... فهو محظوظ كبير بل (وغد) محظوظ, أليس كذلك؟

التفت (فؤاد) نحو (أمير) وابتسم بعضهما لبعض فتذكرت موقفاً مماثلاً لمّا طلقني (أمير) لأجل أخيه بعد ليلةٍ كنتُ أهذي فيها بأسم(فؤاد) وحده... نظرتُ الى (أمير) وفؤاد ثم التفتّ الى (هاني)... لم أعرف ماذا أقول, كنتُ أنتظر كلمةً من (فؤاد)... أطرقتُ برأسي الى الأرض, بينما هتف (أمير) بصوت رخيم...

_ فاتن! إفعلي مايُسعدك, ولاتهتمي لأمري.... أعلم أنك لا تريدين إيذاء مشاعري يافاتن...

أنا لست غبياً, فأنا أفهمك تماماً... وأعلم أنك تُكنّينَ مشاعر لي ويكفيني ذلك.... بل يكفيني أن أراك سعيدة, ولاأقبل بحالك هذا وأنا اراك بعيدةً عن منزلك, تتألمين بصمت.... أرجوك.... لا اريد أن أكون السبب في حزنكما وتعاستكما, فأنتما تحبّان بعضكما.... كفى... عودا لبعض.... لستما صغاراً!

رفعت رأسي لأنظر الى (أمير) بدهشة....

_ رباه! مالذي تقوله ياأمير! لستَ أنتَ السبب... أنا.... أنا لا اعرف ماذا أقول ...

تداركتُ

الامر بحملي لصينية الشاي بأقداحها الفارغة, عندما أمسك فجأةً (فؤاد) بيديّ....

_ (فاتن)! عودي إليّ....

رفعتُ رأسي إليه... أنهارت نظراتي أمامه, أخذتُ ارتجف, وكأنني مراهقة في الثامنة عشر, وكأنني تلك ال(فاتن) الصغيرة التي جاءت من العراق هاربةً من ظلم عمها وزوجه.... كانت يداه لاتزالان تمسكان يديّ, فتذكرتُ لحظة أمسك بيدي في المطعم لأول مرّة في حياتنا ...

فارتجفت كل اوصالي...

_ فؤاد!

(هتفتُ دون شعور) وقفزت الدموع من عينيّ, وهربت نحو المطبخ بسرعة لأكفكف دموعي....

(لقد قالها أخيراً وأعترف بحاجته إليّ وأنه يريد عودتي إليه!) هتفتُ في سرّي وأنا أشهق بفزع... فتحت صنبور الماء لأشغل نفسي بغسل الاقداح عندما وجدتُ يداً تمتد لتغسلها عني.....

_ رباه! (فؤاد)! ماذا تفعل؟

_ حسنٌ! أساعدك!

التفت إلي مبتسماً فالتقت عينانا وتوقفنا لدقائق ننظر بعضنا.... هل كانت تلك النظرات عناقاً..... نعم, كانت عناقاً وحباً وأشواقاً... كان يقول لي فيها (سامحيني وعودي إليّ)...

وكنتُ أقول له فيها, (كم اشتقتُ إليك أيها القاسي, وهل نطقتُ أخيراً! وكيف تسنّى لك أن لا تأتي إليّ طيلة تلك الايام.... أو لستَ تخاف الله منّي... إن ذلك عذاب)

_ فاتن! (هتف أخيراً)....

_ نعم!

_ أحبك!

_.....؟؟؟؟

صمتت عن الكلام وقفزت الدموع من عينيّ بسرعة....

_ هل تقبلين بعجوز مثلي زوجاً لك مرةً أخرى! لكنني مجرد دمية متحركة لاأنفع شيئاً....

بل أنا عاجزٌ مريض وسأكون عالةً عليك في نهاية عمرك ياحبيبتي الغالية....

نظرنا بعضنا وخفق قلبي بسعادة لاأستطيع وصفها وقلتُ في سرّي وأنا أهتف:

(وأخيراً نطقت يافؤاد! وأخيراً)....

ماتت الكلمات عند شفتّي ولم أعد أعرف بم أُجيب عندما رفع يديّ نحو وجهه وقبّلهما, ليخرج خاتم زواجنا الذي كان يرتديه في بنصر يده اليسرى, ويضعه في بنصري ثم يقبّل يدي ويضعها فوق قلبه....

_ماذا قلتِ يافاتنتي الصغيرة!!!

الفصل التاسع عشر

وعدتُ الى منزلي, وعدتُ إلى أحضان زوجي الغالي وحبيب قلبي وفؤادي, وعدتُ إلى والدي وصديقي وحبيبي وكل ماكنتُ أعتبره فيه ممثلاً ومجسداً.... فكيف لي أن أعيش دونه؟! لم أستطع أن اتفوه بكلمة أمامه وهو يضع الخاتم الخاص بنا في اصبعي... لقد شعرتُ بأني اعود تلك المراهقة التي خطبها يوماً في المطعم ولم أعد أنظر نفسي تلك الجدة التي تجاوزت الخمسين من عمرها....(حقاً لمّا يعاملني (فؤاد) بحبَ أشعر بصغر سني ولا أهتّم لعمري أصلاً أمّا لما أكون بعيدةً عنه أو لمّا يؤذيني, كنتُ أشعر أني اكبر آلاف السنين فوق عمري, وكأنني مومياء!)....

وبقينا على تلك الشاكلة, يضمني بين ذراعيه كل مساء ونحن نشاهد التلفاز فوق اريكتنا المفضلة, ولقد كان (أمير) قد قررّ مغادرة المنزل هذه المرّة إكراماً لي رغم أنني لم أوافق في البداية, إلاّ أنّه أصرّ على ذلك وقال لي وهو يربت على كتّفي بعد أن ضمني اليه بحنان وحبّ أخوي....

_ سأظلّ يافاتن وفياً لك مهما حصل, واريد لك السعادة دوماً! ولمّا رفعت رأسي لأنظر اليه نظرتُ في عينيه فانكسرتْ نظراته وأدمعت عيناه, وانقبض قلبي حزناً على (أمير), وشعوراً بالذنب تجاهه.... لم يأخذ توأمه بل تركهما معي, كما اعتاد أن يفعل عندما (يهرب مني) ... نعم.... كانِ يهربُ دوماً مني لكنني لم أستطع منعه هذه المرّة أيضاً, رغم أني توسلتُ إليه وأنا أذرف الدموع وطفلانا ينظران إلينا....

_ بابا! أرجوك! أمّي لا ترضى لك الذهاب! ابق معنا ومع عمنا (فؤاد)! نحنُ أسرةٌ واحدة! أليس كذلك!؟

هتف (فؤاد) الصغير فنظر والده إليه وابتسم بألم مكتوم:

_ عزيزتي فاتن, دعيني ارحل بسلام.... أرجوكِ.... لا تجعليني اتعذب اكثر!

أنتِ أكثر شخصٍ يعرف معنى عذاب (الحب)! ...أنتِ .... أنتِ تفهمين أكثر مني... حبّي لك ليس (جسداً), لا! أبداً... فعندما رحلتيِ عني وعن (فؤاد), كنتُ في سلام داخلي, أنا لاأريد خوض هذا الآن, لكنني لن أحتمل رؤيتك بين أحضان أخي لأنني أحبّه كثيراً ...و(أحبك) ....

قال كلمته الأخيرة بهمس وهو ينظر إليّ بألم شديد فبكيتُ واحتضنته وأنا ادفن رأسي بين كتفيه لمّا ضمني بذراعيه وهو يتمتم:-

_ أعرف يافاتن أنكِ تكنّين لي المشاعر, أعرف! أعرف كل شيء, لكنّ حبك لفؤاد هو أكبر من كل حبّ....وداعاً أو لأقل إلى لقاءٍ قريب... سوف آتي في المناسبات بين فترةٍ وأخرى لأراك وأرى توأميَّ الرائعين!! (والتفت لهما)

_ أمير... أمير! أنا.... لاأعرف ماذا أقول لك...

رفعتُ رأسي نحوه.... رباه! كم زادت طيبة قلبه من وسامته في ناظري..

شعرت بألمٍ شديد في صدري لأجله وشعرتُ بألمه وأنا أنظر ألى عينيه وتذكرتُ نفسي لمّا

كنتُ أرى (فؤاداً) وهو يحدّث أحلى الفتيات أو تحاول أمرأةٌ ما من صديقاته السابقات الجلوس قربه ومغازلته أمامي وبكل وقاحة..فشعرت كم يتألم هو لأجلي.... كان (فؤاداً) جالساً في الصالة وهو يعلم بأمر مغادرة شقيقه إذ أنهُ ودّعه قبل ذلك, ولقد علم أنني هرعت الى (أمير) أُشّيعُهُ حتى الباب حيث وقفنا وحقيبة سفره قرب قدميه.....

_ أمير! أرجوك أن لاتغادر.... دعني أنا أغادر مجدداً ...

_ صه يافاتن! كفى, كفى, لقد حُسِمَ الأمر, وداعاً!

الفصل العشرون

عدنا كأسعد زوجين في الوجود, ومرّت أيام سعادتنا بسرعةٍ لم أحسب لها حساباً فيها, لكنني دوماً ما أتساءل (لماذا تمرّ أيام الفرح بسرعةٍ بينما الألم يظلّ بطيئاً في مروره الزمني, ولايشعر المرء ألا بثقل كاهل الأيام معه؟ ألأنه ألمٌ ثقيل, أم لأنه فعلاً لا يمرُ سريعاً, أم أنَّهُ لايوجد وقتٌ أصلاً ونحن من اخترعناه, واقصد ب(نحن) –بني البشر- هذا النظام الوقتي ؟!).... وكنّا نجلس كل أُمسيةٍ بقرب بعضنا فوق اريكتنا الوثيرة نشاهد برنامجاً نختاره سويةً أو نستعرض ذكرياتنا في شريط فيديو قديم على جهاز عارض الفيديو الخاص بـــ(فؤاد), وكان ذلك يسعد قلبي للغاية فأتكور كهرةٍ صغيرة بين ذراعي زوجي الحبيب ولا أطلب سوى البقاء تحت ذينك الجنحين بينما أشعةُ عينيه الزرقاء تخترقان روحي وتسعدان قلبي كلما وجهها نحوي بنظراته المحببة إليّ.....وبقيت وتيرة حياتنا هكذا لمدةٍ من الزمن عندما سقط (فؤاد) مريضاً مرةً أخرى, وأُصيبت عيناهُ الجميلتان بنزيفٍ فيهما....عادت مزاجيته وأخلاقه سمجةً مرةً أخرى ولم يعد يجالسني إلاّ قليلاً, لأنّ أعصابه أصبحت متوترة للغاية, وخصوصاً كلّما ذهب الى المشفى ليضرب الطبيب عينه أبرة لوقف النزيف بشكل مؤقّت لتعود بعد شهر الى نفس المنوال..... كانت ساقاه ثقيلتان عند المشي وعاد ينادي (فارساً) بدلاً مني كي يعينه على السير والنهوض .... ولمّا كنا سويةً في غرفتنا, لم يعد يلاطفني أو يكلمني إلاّ نادراً, وعاد التجهّم إليه وهو يسليّ وقته ونفسه بقراءة كتب فوق سريره, لأنّ السير أصبح صعباً عليه كثيراً مع تجاوزه

الستين من العمر بعدّة سنوات .... كنتُ بجواره في إحدى المرّات لمّا قبلّتُ جبينه وقلت له بصوتٍ حانٍ وأنا أميل على ذراعه بينما احتضنت كتفه الأخرى بذراعي الثانية ووضعتُ يدي خلف رقبته....

_ حبيبي و(فؤادي).... كيف حالك اليوم؟ وما رأيك أن أخرج معك في نزهةٍ في إحدى الحدائق العمومية؟! ماذا تقول أيها الحبيبُ الغالي.... أو لستَ مشتاقاً للخروج من المنزل.... دعني آخذك هناك لنقضي وقتاً ممتعاً وسأحضر الفطائر اللذيذة, وكل ماأحببت, فيمكننا اصطحاب (فروحة) أو (فارس) معنا!

قطّب (فؤاد) حاجبيه ولم يُجبْ وهو يتظاهر بإكمال قراءته لكتاب شعري باللغة الفرنسية لبودلير....

_ أولا أكلمك يا حبيبي! ماذا بك؟ لقد عُدْتُ الى صمتك معي وإهمالك لي! لماذا يا عزيزي... أنا أحاول بكل جهدي أن أُرضيك.... لماذا تستمر بتجاهلي وكأنني أنا السبب فيما يجري لك وكلّما كلمتك, لم تُجب أو اكفهر وجهك!!

_ (فاتن)! لمَ أنتِ هنا معي؟! أنا لم أعد نافعاً لكِ! أصبحتُ عاجزاً للغاية عن أي شيء وكل شيء ....حتى المشي أصبح صعباً عليّ, فلماذا تظلّين تشعرينني بعجزي! لا... لم أجِبْكَ لأني أكره الخروج الآن, صحيح أنني أحبه, لكنّه أصبح مصدر أذىً لي, لمّا يجلب (فارس) كرسياً مدولباً ليجرني ويدفعني به! أرجوك!؟ كفّي عن تعذيبي, ولا ترتدي لي هذه الثياب الجذابة التي تزيدك جمالاً فأزداد شعوراً بعجزي ونقصي, أولاتفهمين بسبب صحتي! كفى! زمجر هائجاً فانهمرت الدموع من عينيّ وبقيتُ أردّد له:

_ اعتذر منك يا فؤاد!!! أنا لم أقصد؟ أنا....أحبك.....

_ فاتن! دعيني لوحدي! قلتُ لكِ أنني لا انفعك؟! ألم أقُل؟

_ فؤاد.... سنتجاوز هذا المرض سوياً.... صبراً جميلاً يا فؤاد! لا تجزع أرجوك... حبيبي...

_ أتركيني يافاتن! أنا لاأريد الكلام!

وأدار ظهره لي ثمّ أنكفأ على نفسه واضعاً ذراعه اليسرى تحت رأسه وأغمض عينيه كما شاهدته عبر المرآة المقابلة لنا فوق دولاب الثياب... كنتُ أبكي بجنون حزناً عليه وذعراً مما قال.... بقيتُ أبكي فوق الفراش حتى بلّلت دموعي وسادتي وأنا منكفئةٌ على وجهي بالأتجاه المعاكس, حيث ولّاني (فؤاد) ظهرهُ وبقيتُ أفكر مع نفسي والحيرة تتملكني وأنا أناجي ربي في سرّي أن يهديني الى الصواب.... وبقيتُ أفكر و الأفكار تتضارب كأمواج عاتية في رأسي.... (ما الذي أخطأت فيه يا ألهي! لماذا يعاملني (فؤاد) هكذا, وهل أنا التي جعلتُ مَرَضهُ يتفاقم عليه, ثمّ, أليس هنالك مرضى أكثر منه, وهنالك من أُصيبوا بما أُصيبَ به وأكثر من ذلك, فلماذا يعاملني بهذه القسوةِ رغم أنيّ أُحاول قدر الأمكان كسب رضاه وودَّهِ.... ياالهي ماذا أفعل؟

الفصل الواحد والعشرون

في صباح اليوم التالي... كانت روزالي جالسةً بقرب (فارس) ولدي وهو يناولها صحن الطعام بعد أن صنع لها بيديه بيضاً مسلوقاً وقطّعه بالطريقةِ التي تحبهّا- فهو ربّاها منذ صغرها- وابتسم لها بينما بادلته ابتسامة رضا جميلة زادتها جمالاً إلى جمالها فشعّت عينا ولدي البكر سعادةً ورضا.... كانت روزالي قد دخلت دور المراهقة للتو بينما توأمي كانا مراهقين فعلاً قد أتمّا عامهما الرابع عشر ودخلا في عامهما الخامس عشر...بدأت أخاف عليها من الناس ومن (أولاد الحرام), فعلاً, لأنّها لم تكنْ (تهتم بأداء الصلاةِ مثلي)أو تبالي بذلك , ولا تتقيد بالحجاب, وأنّى لها هذا كله وقد ربّاها المجتمع الأميركي المتحررّ من كلِّ قيد (بامتياز)!! لكنني لم أكنْ أسمح لفاطمة ابنتي أنْ تفعل ذلك, ولا أن تختلط بالأولاد في المدرسة, وكنتُ أحدّثها حديث الأمّ لأبنتها وذلك مالم أستطع فعلَهُ مع روزالي التي دوماً ما شعرتُ بحساسيتها المفرطةِ تجاهي كونها تربّتْ بدون والدتها او بالأحرى–لأنّ والدتها تخلت عنها واضطرت ان تعيش معي!!!_فأنا مهما كنت لست خالة لها بل مجرد زوج عم_ كما وأنّ موقفي الأخير مع ولدي (فارس) عندما صعدتُ إلى غرفته حينما وجدتها مستلقيةً على فراشه وهو يقرأ قصةً لها - أقول- إنّ موقفي الذي أبديتُ فيه استغرابي واستهجاني من ذلك الامر (وأنا التي كنتُ في حالةٍ نفسيةٍ رهيبةٍ من الصراعات)- جعلها تبتعد نفسياً عني بأشواط كثيرة وتتجنبني في أغلب الاحيان رغم ملاطفتي لها وحبي

ومحاولتي أن أعوضّها عن أمها, لكنْ, كلُّ ماكنت أحصل عليه منها هو الصدّ والاعراض, سواء بنظراتها أو بتصرفاتها وكأنها تعطيني إشارات خفيةً وتقول لي بها (كفّي عني, أنا لاأحتاجك!) وذلك ما كان يدفعني الى البكاء حقاً احياناً عندما لاأعرفُ كيف اتعامل معها, فأجلس في المطبخ بمفردي وأبكي....ولستُ أدري, أوَ كنتُ أبكي عليها, أو لأجلها, أم لأجل نفسي رثاءاً لنفسي التي طالما طلبتْ الحبّ والعطف من بعد والديّ وكنتُ أتمنى أن أجد في زوج عمي ولو جزءاً بسيطاً مما كنتُ أُقدمّه (مجاناً) لروزالي ثم لا أجدُ سوى الجفاء والجحود وكأنها تقول لي: (ابنك ملكي رغماً عنكِ)!!...

كان فؤاد جالساً على رأس الطاولةِ كالمعتاد وأنا أجلس على يساره بينما فارس وروزالي عن يمينه و التوأمان قربي... لم نعد نتحدث أنا و(فؤاد) بعد تلك الليلة ونهضنا من الفراش لانكلم بعضنا وكأننا أغراب وعادت سحابة الصمت الرمادي بيننا.... شعرتُ أنّ عليّ أن أضع حداً لتصرفات (فؤاد) معي واحتججت في سريري: (إن كان حقاً لايريدني أن أساعده أو أرعاه فليكن ذلك...)... فكما كنتُ أتجنبّ (روزالي), لأنّها(مراهقة) ومن الممكن أن سمعني كلمات تجرحني و(أنا في عمري هذا!) كذلك, قررتُ أن أتجنب الحديث مع (فؤاد) كي لايجرحني هو الآخر بكلماته وصدّه ورثائه لوضعه.... فأنا كلّما فكرتُ في حالته مع نفسي وجدتُ انّه هو السبب فيما يحصل, فرثاؤه لحاله بدلاً من نظرةٍ أيجابية للامور, يجعله يتصرف بعدوانية وسلبيةٍ دائمة.... فكلما انتكستْ حالته, زاد حنقاً وحقداً على الحياة, بدلاً من أنْ يسلّم اموره للقدر والمشيئةِ الالهية... وذلك ماعرفتُهُ طوال حياتي وذلك سرّ مقاومتي في الحياة, فمهما مررتُ بظروف قاسيةٍ, كنتُ أنظر الى السماء وأقول وكأنّي أكلم من خلق هذا الجمال كلّه:

(هل تعجزك مشكلتي التافهة أمام عظمةِ هذا الخلق! لا.... مستحيل! لابدّ أن يكون هناك فرج بحجم السماء وسأصبر على البلاء)...

لكنْ, أنّى لفؤاد أن يأتي بتلك القوة اليقينية وهو لا يلتزم بصلوات المسلمين, مذ كان مراهقاً... ولايقرأالقرأن إلا قليلاً نادراً جداً..... في (رمضان) فقط لأكون أكثر تحديداً, وهذا- قبل أن يصاب بالسكر, لأنّه لم يعد يصوم بعدها بناءاً على تعليمات الطبيب كونه يضرّ بصحته- لكنني كنتُ أقارن بين مشاعره ومشاعر (أمير) دون أن أعلم, حيثُ تأخذني احلام اليقظة وأنا أقوم بالطبخ لوحدي في المطبخ, ناظرةً عبر نافذته الزجاجية الى حديقتي الجميلة وزهورها المتفتحة ذات الألوان البهيجة والتي كنتُ أعتبرها دوماً (جزءاً) من عوض الله لي عن آلامي السابقة وشروخي النفسية وأنا طفلة صغيرة لم افقه بعد شيئاً عن

الحياة.....كنت اقارن بين فؤاد وأمير في اللاوعي عندي ..أمير لم يك يصلي اصلا!!! لكنه لم يعاملني مثل فؤاد هكذا يوما ما....ربما لأنني لم اسلمه قلبي بالكامل ليحطمه..أو ربما ...لأن فؤاد كان يعلم علم اليقين أنه مهما حصل ومهما فعل ..فإنني وبكامل غبائي وسعادتي.. سأظل أحبه!!!

هل كان فؤاد نرجسيا بامتياز!!! لكنّ حبه الأبدي سكن قلبي دون هوادة...وقد أحببته حد الثمالة...كنت ولازلت وسأظل أحبه مهما حصل... ولم ولن استطيع ان أصدق أنه نرجسي الهوى أبدا...كنت افكر كثيرا وأنا احاول تحليل شخصيته...

أقول –أني في اللاوعي- كنتُ أقارن بين (فؤاد) و(أمير) .... فكلاهما على نفس الشاكلة, لكنّ (أميراً) لم يتغير طبعه ولم يصبح صعب المراس أبداً.... ثم أعود لأعزو الأمر لتفاقم مرض (فؤاد) وذلك واقعٌ كان عليّ التعامل معهُ والتعايش و إياه ككيانٍ واحد.....

جاء (أمير) لزيارتنا ذات ليلة ففقزت فاطمة تحتضنه بقوة ليحملها بين ذراعيه ثم هرع (فؤاد) الصغير نحوه.... نزع معطفه الاسود الأنيق وأعطاه لفاطمة وكان الطقس كلّه ثلوجاً في الخارج, ثم دلف يسلّم على (فؤاد) الذي لم يعد يكلمني إلا نادراً.... ولم يعد يضمنّي إليه ولايسمعني اي كلمة حب ولاحتى يُشعرني أنني (أُنثاهُ) المميزة وحبيبته الوحيدة وكلّ ماكان يُشعرني به بمجرد أن ينظر إليّ هو (الألم) وكأنّ هنالك شيئاً ما قد مات بيننا.... كنتُ قد حاولتُ كثيراً قبل أن تمرّ مدّة ستة أشهر, أنْ أُلاطفه أو أُحاوره أو أن أُثير انتباهه عَلَّهُ يتغير في نظرته السوداوية واعتكافه في غرفته وعدم رغبته في شيء سوى قليل من الطعام وكثير من النوم.... حاولتُ قبل ذلك مع (هاني), كي يحادثَهُ ويُخرجه من (مزاجه الصعب) ولكنْ دون فائدةٍ تُذكر.... ويوماً بعد يوم, أخذ يزداد مزاجيةً في تصرفاته معي...إذ اضطررنا الى النوم في غرفتين منفصلتين(مرةً اخرى) لأنّه في احدى الليالي, لم ينم...بل .... بقي جالساً على السرير حتى الصباح ولمّا استيقظتُ وجدتهُ ينظر إليّ بغضب(أسدٍ مريع)....

قلتُ لـــــــــهُ مندهشة:

_ مابك ياحبيبي الغالي! هل أنتِ بخير.....

_ فاتن! لم استطع النوم! شخيرك أرّقني !

_ أنا! أشخر! ياالهي!!

شعرتُ بالخجل والارتباك وكنتُ أتجنب أي شيءٍ يزعجه ولو كلمةً عابرةً تخرج من فمي, فقررتُ مغادرة الغرفةِ دون كلام وعندما نمتُ في غرفة (فرح)-سابقاً- لم يتكلم ولم يبدِ أيّ اعتراض, فعرفتُ أنّهُ موافقٌ (جداً) على ذلك, وزاد ذلك ألمي وحزني...كان يحتضنني أحياناً وأحياناً كثيرةً يطلبُ مني أن أرعاه ولكنّ تلك الفترات أخذتْ تتباعد كثيراً جداً بين فترةٍ وأخرى, فأصبحتُ أشعر أنّي مجرد أداةٍ أو آلةٍ غبيةٍ حمقاء لإرضاء ماتبقى من رجولة (فؤاد)- التي اصبحتْ شبه مفقودة!! كان عمره قد اقترب من السبعين وأصبح (اسداً عجوزاً جريحاً حقاً)... لم يكنْ يريد أن يعترف بما يحصل له رغم أنّه واضحٌ جداً وجلّي, ولعلّه بتصرفاته العدوانية تلك كان يحاول أن يُبعد ناظري عنه, في محاولةٍ يائسةٍ منه أن يقول لي(لست بحاجةٍ لشفقةٍ من أي شخص وبالأخص من أحببتها ولم أردُ لها أن تتعذب معي وبسببي في أواخر عمري وكنتُ أعرف أنّ هذا ما سيكون... ولذلك كنتُ أطلبُ منك تركي مراراً) فما كان يجعلني أتحمل سوء خلقهُ معي وعدم كلامه و(شبه مقاطعته الكلّيةِ لي) –هو معرفتي المطلقة أنّه يحبّني, وأنه يحبنّي أكثر من نفسه, وذلك ما كان يدفعني إلى تحمل كل شيء من نوبات جفائِهِ, إلى صراخه الفجائي عندما يطلب شيئاً ولا يسمعه أحد, اولا تساعدُهُ قدماه على النهوض لأخذه.... فعلاً كنتُ اشفق عليه, وأخاف منهُ في آنٍ معاً.... أحبّه, وأتجنبه..... مشاعر متناقضة تدفعني كثيراً الى حافة الانهيار لولا إيماني المطلق أنّ من خلقني ينظر إليّ نظرةً رحيمة, وسوف يكافؤني يوماً ما على صبري... ليس الكلام سهلاً مع مرور الأيام وتتاليها وليس الحديث فوق سطور مذكراتي هذه التي أضعها بين أيديكم ليقرأها احفادي, عن قصة حبي, عندما حلّ الربيع في (فؤادي) مع (فؤاد) الغالي, شيئاً سهلاً, أو مجرد كلمات أسطّرها أو احرف أخطها في كلمات متتالية, لا أبداً... إنّها عمرٌ كامل, وأيام ثقيلة الخطى, خاصةً على من أحبّ وأعطي وأعتاد الحبّ من ذلك الشخص الذي ظنّ أنّ فيه عوض الله عن كل أذى مرّ به, وكلّ عذابٍ في هذا العالم, فوجد نفسه يتعذب مرةً أخرى ومرةً وجد نفسه في عذابٍ أليم, أليم جداً, لأنه, بسبب, ومن قبل نفس ذلك الشخص الذي جعله يشعر أنّه سيد العالم, وأنّه لن توجد أحزانٌ بوجوده في حياته, فإذا به يتعذب بسببه الى الأبد! نارٌ مستعرة, وجحيمٌ دائم ولكنّ هذا الجحيم بنكهة ثلج قاسي البرودة أشعته زرقاء مثلجة... زرقاء تخترق أعماق الروح وتجعل في داخلها عتمة رهيبة في الاعماق السحيقة كعتمة البحر العميق الازرق,

تقترب من لونها الازرق الى السواد الرهيب... لطالما كنتُ أبكي وأنا أجلس بعد أنتهاء دوامي (قبيل أن اتركه وأتقاعد) بمفردي في حديقة الجامعة الى مصطبةٍ اعتدنا أن نجلس عليها أنا و(فؤاد) لمّا كان يطلب لي وله شطيرتين نسدّ بها رمق جوعنا بعد عناء نهارٍ شاق ومحاضرات مكثفة.... كنتُ أذرف الدموع دون وعي مني ثم أكفكفها على عجل, وتأخذني ذكريات أُخر, إلى تلك الأيام التي كنا نتسابق فيها فوق مدرج الجامعة سوياً وهو ينظر إليّ باسماً مبتهجاً ثم تذهب بي الذكريات إلى حيث نعود الى منزلنا- منزل خالتي- بعد وفاتها (رحمها الله)- لمّا كان يأخذني بين ذراعيه, ويرقص معي, وكأنّهُ غير متعب من نهارٍ شاق تدريسي, ثم يضمني الى صدره ويقبّل خصلات شعري السوداء الأثيرة لديه, وكنتُ أشهق بذعر وأناديه بقلبي....

(لماذا ام أعد الأثيرة لديك الآن, ولمَ أهملتني عمداً يا فؤادي)

جلس (أمير) قبالتنا أنا و(فؤاد) وتوأمه عن يمينه وعن يساره يقبلان خدّيه ويحتضنانه لأنهما لم يرياه منذ أشهر طويلة... قرأت في عيني (فؤاد) وأنا أقدم الشاي, تلك النظرات الثائرة المترقبة الكسيرة المليئة غيرةً وخنقاً.... كان كأسدٍ يكاد ينقضّ على ضبعٍ جاء يأخذ فريسته.... (ولعلي كنتُ أنا تلك الفريسة المنشودة).....

لقد تَعمّد (فؤاد) الجلوس قبالة (أمير), كي يقرأ نظراته ويراقب حركاته, فهو في الفترةِ الأخيرة قبيل زيارته الفريدة تلك, كان عصبياً للغاية حتى مع (فارس) ولده....وكنّا جميعاً نراعي حالته النفسية وخاصةً لأنّه لم يعد يدرس في الجامعة ولا يستطيع الخروج إلاّ نادراً, بل لم يعد يرغبُ في الخروج مطلقاً بسبب حالة قدميه واضطراره للجلوس على كرسي مدولب, فلم يعد يخرج به إلاّ لزيارة الطبيب الدورية لفحص وظائفه الحيوية وبعد أصرارٍ وإلحاح شديدين من (فرح) و(فارس) عليه, (لأنّه لم يكنْ يتقبل مني أيه نصيحةٍ وأصبَحَ أكثر حساسيةً تجاه هذه المسألة لمّا أُحدثه بها بحيث كلما تحدثنا ينتهي الأمر الى شجار, فأصبحتُ ألتزم الصمت وأوكلُ مهمة أقناعه بالذهاب الى الطبيب إلى (فرح) وأخيها وأكتفي بالمشاهدة)

_ كيف الحال إذاً!!

هتف (أمير) أخيراً وهو ينظر إليّ وكأنّه قرأ جميع ما مررتُ به فضاقت عيناه وأكتفى بذلك فالتفتَ إلى (فاطمة) و(فؤاد) توأمنا الرائعين ليهتف بهما....

_ جلبتُ لكما هدايا كثيرة! هيا نفتح الحقائب..... عن أذنكما (فؤاد) و(فاتن)! قال ذلك ونهض محتضناً توأمه كليهما بذراعيه ...كلٌّ على جانب....

الفصل الثاني والعشرون

_ هل أنتِ بخير يافاتن!!

وقف خلفي وأنا أقشّر البصل بينما تنهمر الدموع من عينيّ... كنتُ أبكي بسبب البصل ولكنّ موجةً من الحزن اجتاحتني فبكيت أكثر, خاصةً وأنا استذكر موقفي مع (فؤاد) في الليلة السابقة عندما ذهبتُ الى غرفته لأنام بجواره, فالتفت نحوي ليقول لي بصوتٍ واجم:

_ ماذا هناك! هل أنتِ بخير!

شعرتُ بكرامتي وأنوثتي قد طغتا, فهتفتُ محتجةً .....

_ حسناً! أوَلاً يحقّ لي أنْ آتي بقربك يا (فؤاد)! ما خطبك! أو لستَ تُناديني لمّا تشتاق لي, ولقد اشتقتُ لك! قل لي ماذا فعلتُ من خطأ! ألستَ زوجي وحبيبي؟

_ (فاتن)! أنا لستُ بمزاج جيد... لاأستطيع التكلم, وأريد أن أنام.... أرجوكِ ليس لي مزاجٌ على الاطلاق لأيّ شيء, فغادريني لو سمحتِ ودعيني وشأني!

قفزت الدموع الى عينيّ لكنني غالبتها أو بالأحرى تغلبتُ عليها وقمتُ أَجُرُّ أذيال العار والمهانة وشعرتُ بحرقةٍ في قلبي....

_أنا بخير ياأمير! إنني أقشر البصل فحسب.....

وضع (أمير) يديه فوق ذراعيّ وهمس في أُذُني من الخلف....

_ أنتِ كاذبة يا عزيزتي الغالية, فأنا أعرف جيداً أنكِ تعانين وتكتمين ذلك....

إلتفتّ إليه غاضبة, لكنْ ماأن نظرتُ الى عينيه الحانيتين, حتى ذهب غضبي كله وتحوّل الى رغبةٍ في الحصول على العطف والشفقة والمواساة.... كان ينظر إليّ بحنان كبير...

_ أعرف كل شيء فلا تتكلمي...

انهمرت الدموع من عينيّ ورميتُ برأسي فوق صدره باكيةً فاحتضنني بحنان وهو يربت على ظهري عندما انفجرتُ بالضحك وأنا أبكي....

_ لقد جعلتُ رائحتك كلها بصلاً! أعتذر ياأمير!

نظرتُ إليه شاكرة مواساته لي فبادلني بنظرة ذابَ لها قلبي وهو يُشعرني كم أنا مهمةٌ لديه.... وضمني إليه ثانية بحنان فشعرت برغبة في أن اظل بين ذراعيه أبدا..لكنني استذكرت أن ذلك الأمر محرم عليّ فهو لم يعد زوجي وانا لم أعد سوى امرأة غريبة عنه...لكنني كنت خاوية من الداخل ومحتاجة للحنان والعطف اللذين كانا أمامي ممثلين بشخص أمير وهو يعرض عليّ دوما أنه هنا وبخدمتي وطوع اشارتي..فقط لو أردت ذلك!!! هتف أمير فجأة وأنا ارفع رأسي من فوق صدره وابعد نفسي عن ذراعيه...

_ فاتن! جئتُ فقط لرؤيتكم أنتِ والتوأم وسأغادر اليوم... أُريدك أن تكوني قوية أيتها الغالية.... لقد اختار (قلبك) هذا- وأشار إليه بأنامله الطويلة- أخي (فؤاد)! وعليك تحملّ

ذلك.... عزيزتي.... تمنيتُ لو أنني أستطيع مساعدتك بشيء... لكنّ وجودي سيزيدُ الطين بلّةً وأنتِ تعرفين... ولقد كنتُ أريد طلب شيء منك قبل مغادرتي!!

كفكفتُ دُموعي وأنا أبتعد عنه قليلاً لأنني وجدتُ نفسي قريبةً جداً منه بعد احتضانه لي لمواساتي وأنا أبكي- أقول, نظرتُ إليه بامتنان وهو يرتدي كنزةً سوداء زادت من جمال عينيه السوداوين وهما تعكسان بريقهما الخاص فوق وجهه الأبيض الذي أحاطته خصلاته الشقراء الناعمة

_ أمير! سلْ ما شئت أيها العزيز.... يا ابن خالتي الغالي!

قلتُ بحنان وأنا أغسل يديّ فوق مغسلة الصحون محاولة تدارك ارتباكي أمامه...

_ أريد اصطحاب ولدي وابنتي معي هذه المرّه لو سمحتِ.....

التفتُّ بفزع ونظرتُ إليه باستغراب....

_ أين؟ ولماذا!

_ فاتن! أريدهما أن يعيشا معي.... أنا أبوهما وليس (فؤاد)!أليس ذلك من حقي يا عزيزتي! قولي لي.... أنا أعيش وحيداً ولستُ صغيراً بعد كل هذا العمر... أنا أحتاج وجودهما في حياتي يافاتن! أعلم.... أعلم أن الوقتَ غير مناسب, فأنتِ في مزاجٍ سيء.... آسف..... سأؤجل الأمر لمرّةٍ أخرى..... أُعذريني... لكنني لك أعد احتمل بعدك عني مضافا له بعد طفليّ الحبيبين...عزيزتي ..اعذريني أيتها الغالية فاتن...

قال ذلك واستدار مبتعداً عندما هتفتُ مناديةً إياه....

_ أمير! أرجوك.... أفعل ما تراه مناسباً, فذلك حَقك...

إلتفت إليّ غير مصدق وقد اتسعّت عيناه, ذهولاً, وكاد أن يهرع لاحتضاني, لكنني أعطيتُهُ انطباعاً بلغة جسدي أنني لاأريد شيئاً سوى أن يكون بمكانه...

_ أرجوك ياأمير! لقد تعذبتَ كثيراً بسببي .... لربما أنا لستُ مرتاحةً في حياتي بسبب ألمـــك.... ولستُ أدري كيف أقول لك أنّي آسفة... آسفةٌ جداً على كل شيء....

وأدمعت عيناي فنظر (أمير) بامتنان إليّ....

_ كلا يافاتن! ليس الأمر بيدك.... أعرف هذا....

_ سامحني ياأمير.... فأنا في كل مرّةٍ أجرح شعورك...

_ كلّا! فاتن! أنا أتألم لأجلكِ....اتألم لكلينا ..نعم..اعيش عذايا مضاعفا وثالثا لاجل اخي الأكبر..هل انكر ذلك ...كلا.. تمنيتُ لو أنّ الأمر بيدي.... لكنْ.....لكنْ... الأمر معقد!

قال وهو يتنهد بحسرة فأطرقنا كلانا ثم قلتُ على مهل...

_ سأشتاق كثيراً لهما.... وسأشتاق....(لك أيضاً) ...

(قلت بوهن)...

_ منزلي مفتوحٌ لكِ كي تزورينا... وستكون سفرةً تغيرين بها عن نفسك....لكنْ.. هل يمكنك أن تفتحي قلبك لي وتحكي لي مابكِ؟ علّني استطيع مساعدتك مع (فؤاد)! أنا أخوه! أستطيع أن أكلّمه.... أن أحلّ شيئاً لأجلك...

نظرتُ إليه بيأس وشهقت بألم وأنا أحاول تلافي دموعي..

_كلا ياأمير! شكراً لمحاولاتك! لكنْ..... ليس هنالك من طريقة... لا أقدر أن أشرح لك....دع الأمور على حالها علها موجةٌ عاتيه ستمر وتعود السفينة لسيرها المعتاد.... أليس كذلك؟!

قلتُ محاولةً الابتسام.... فابتسم (أمير) بألم وهو يشعر بحزني ليهتف بي قائلاً...

_ نعم يا قطر الندى.... أنها عاصفةٌ هوجاء, وستمر....

الفصل الثالـــــــــث والعشرون

(عاصفةٌ هوجاء, ولسوف تمرّ....)

ظلت كلمات (أمير) تعصف كالريح في رأسي فتقذف أغصان أفكاري تارةً إلى اليمين وأخرى الى الشمال فلم أعد أعرف ماذا أفعل.... خصوصاً وأنا أجلس بمفردي أغلب الأوقات بعد رحيل توأمي الحبيبين اللذين كانا يملآن الدار عليّ بأحاديثهما وكلاهما عن يومهما المدرسي... أمّا (روزالي) و(فارس) فلقد كانا منزوييْن عنّي, فـ(فارس) مثل والده, قليل الكلام بطبعِهِ أصلاً, وبوجود روزالي التي كانت تستأثر أغلَب وقته, لم أجد نفسي إلاّ وحيدةً للغاية, خصوصاً وأن رحيل (فاطمة) و(فؤاد) جاء مضافاً الى تقاعدي من الخدمة الجامعية, (لأن عمري أصبح كبيراً ولم أعد قادرةً على تحمّل ساعات الدوام الطويلة مضافاً لها عملي المنزلي).... كان فارس يعمل ويجلب النقود دوماً ولم أشتك من نقصٍ في الحالة المادية يذكر بسبب جلوس (فؤاد) في المنزل وتركي الدوام قبل أن أتقاعد بوقتٍ, ولكنّ ما آذاني حقاً, هو وحدتي لمّا تركني (أمير) دون طفليّ الحبيبين اللذين لم أعلم كم كانا يملآن فراغاً في حياتي.... وقد كبرت بعمري ولم أعد صغيرةً أبداً, كما أنني لم أكن أطلب من (فؤاد) سوى (الاهتمام) المعنوي.... فلا شيء يهمني بعد.... لقد خَبَتْ تلك النار المستعرة فترة الشباب والنضوج الذي يتلوها, ولم أكن أشتاقُ إلا لكلماتٍ تشعرني أنني لستُ وحيدةً في هذا العالم, وأنّ هنالك من يهتمّ بي, لكنْ عبثاً إذ وجدتُ نفسي أحيا بين جدران صماء أغلب الاوقات....وجدتني مجرد آلة, أعمل في المطبخ, لأطبخ وتجمع وقت الطعام (على الأغلب), لأنني وجدتُ (فارساً) في أغلب الأحيان, لايريد الجلوس معي على الطاولة لأنه (شبعان)- حسب قوله- أو لأنّه قد تناول الطعام مع (روزالي), في مطعم ما- حيث اصطحبها كالمعتاد في نزهةٍ يومية بعد انتهاء دوامه- أو أنّه لايستطيع تناول الأفطار- بسبب استعجاله للحاق بدوامه وهلمّ جراً من الاعذار! أما (فؤاد) فقد كنتُ أذهبُ بالطعام الى

سريره على الطاولة المنضدية وأغادر, دون أن أتكلم طبعاً- لأنني كنتُ أجدهُ قد أدار ظهرهُ لي في أغلب الاحيان- نائماً- أو(متظاهراً بذلك)..... في البداية- كنتُ أتألم وأبكي في المطبخ لوحدي وقتاً طويلاً- لكنني مع مرور الأيام, (اعتدتُ) ذلك, ولم أعد أبكي أبداً .... كنتُ أستذكر كلمات (أمير) كل حين....

(نعم! إنّه قراركِ أنتِ يافاتن ويجب عليكِ تحمل تبعاته) وكنتُ بدون وعي أتخيل نفسي, فجأةً, في مقارنه.... (ماذا لو أنكِ كنتِ قد أخترتِ الحياة مع (أمير)!! كنت الآن لتصبحي ملكةَ قلبه وبين يديك طفليكِ المدلّلين بدلاً من (روزالي) المتمردة الحانقة ابداً عليكِ)... لكنّ قلبي كان يخفق بسرعةٍ بألم وشوق... (لكنْ, حتى لو بذل (أمير) كل شيء (لخاطري)! لن أعيش سعيدةً وأنا بعيدةٌ عن (فؤاد)! مهما حصل, ومهما عذبني حبّه, وهجرني وجفاني بسبب مرضه, فوجودي بقربه يكفيني- أنا لاأستطيع تركه أبداً, فكيف لي أن أنسى من أحبّه قلبي وخفق له دوماً!!)

(كيف بي أن اترك حبيباً وأباً وأخاً وصديقاً علمني كل شيء....

إنّه بأزمةٍ نفسية سيستفيق منها عن قريب, أنا على يقين).... (اصبري يافاتن! ولا تيأسي.... سيكون هنالك فرجٌ عن قريب, يكفي أنه معك, وأنّك معه في دار واحدة)

(هو شمسي, هو قمري, في ليلة كماله.... كيف بي أنسى كلماته وهمساته ونظراته, بل أنا أسعد لمّا أنظر إليه فقط, فأشعر بالأمان.... هل نسيتِ يا(فاتن) عندما كان بعيداً عنكِ وظننتِه قد مات! ماذا جرى لك؟)

(كلا... حتى لو عاملني أمير كملكة, ولو أن كل رجل بعد الزواج بفترةٍ سيملّ وتبدأ الاختلافات تطفو على السطح, ولأنك يا(فاتن) لا تعشقينه, وهو (يعلم) بذلك, ويعرف أنّك تحبين (أخاه) فلسوف تبدأ المشاكل, ولم أعد أحتمل أيّة صراعات, لقد تعبتُ حقاً... أريدُ السكينة والسلام فقط.... حبيبي (فؤاد) مجرد نظرةٍ مني إليك وأنت مستلقٍ على فراشك, تشعرني بالأمان والسعادة والرضا, فلا حرمني الله منك وسأظل أحبك مهما حصل)...

كنتُ أزيح الستارة عن نافذة غرفته إذ دلفت في إحدى الصباحات بعد أن وضعتُ الأفطار على منضدته الصغيرة قرب سريره.... تململ في فراشه, فلم أحَدّثه خوفاً من إزعاجه

ومشيت بحذر كي لايشعر بخطواتي فأكون سبباً في إيقاظِهِ من نومه, رغم أنّني لم أكن ارغب في أن يبرد الشاي الذي اعددته له (لكنّ خوفي من نوبةِ غضبٍ فجائية يمكن أن يصرخ بسببها بوجهي, لتفسد لي نهاري كله, دفعني لذلك).... بينما كنتُ أتسَلل خارجاً إذ صاح (فؤاد) بألم وهو يستنجد بصوت حزين.....

_ فاتن! أهذه أنتِ.... حبيبتي! فاتن! هل فتحتِ الستارة! لقد سمعتك تفتحين الستارة, سمعت حركتك....

_ نعم! حبيبي, أنها أنا! قل يا(فؤادي)!

قلتُ ذلك وأنا أقفز نحوه بينما مد يديه على غير هدىً....

_ فاتن! فاتن! أين النور! أين الضياء..... أين أنت يا صغيرتي! أنا لم أعد أستطيع أن أرى!

أمسكتُ بيديه أقبَلُّها بينما أخذ يتلمس وجهي بأنامله وهو ينظر الى أعلى بعينيه اللتين طالما أحببتهما.... كنتُ أبكي وأذرف الدموع وهو يقول بألم....

_فاتن! فاتن! لم تعد الأبر تجدي نفعاً.... أنا لا أراك! كتلةٌ من السواد المعتم...أنا في الظلام! فاتن... لماذا لاأموت لتخلصي مني وأخلص من هذا العذاب!

أخذ يردد جملته الأخيرة بجنون فاحتضنته بألم شديد وأنا أبكي بينما شعرت بدموعه اللاهبة تكوى عنقي وهي تنهمر مدراراً فأخذت أهدهده كطفل صغير وأنا أربُت على ظهره بحنان وأهتف به بصوتٍ حنون:

_حبيبي الغالي! أرجوك.... يجب أن ترضى بما كَتَبَهُ لك الله يا حبيبي وزوجي الغالي ... لابأس عليك... لا تكفر ولا تجزع , أرجوك يا(فؤادي).... ياحبيب قلبي, لاتفعل...

_ أريد أن أموت يافاتن! لقد سئمتُ حياتي .... أنا لستُ هكذا... لست هكذا... لاأريد أن أكون عالةً عليك, لا... لاأريد العيش هكذا, أمنيتي يارب, أمنيتي...

أن أموت الآن...

قال ذلك وانهار باكيا فوق صدري...

الفصل الرابع والعشرون

ذهبنا بـــ(فؤاد) الى الطبيب المختص الذي كان يراجع دورياًعينه عنده في المستشفى الخاص, ولم يكنْ هنالك علاج, بسبب تلف الشبكية التام نتيجة نزيف العين المستمر الناتج من تلف الأوعية الدموية في أنسجة العين الحساسة للضوء منذ مدّةٍ قد تجاوزت الخمس سنوات دون حدوث أي تحسن يذكر كلّما قام بعلاجها بحقن الأبر أو حتّى لما قمنا بعملية ليزر لعينيه أنا وفارس بسبب تسرب السوائل في العين واضطرابات في رؤيته نتيجة عدم انتظام سكره وأرتفاعه في أغلب الأحيان فلقد تضررت شبكية عينيه منذ وقتٍ أطول من ذلك ألاّ أنّه كان يكابر ولايتكلم أبداً حتى تفاقمت الحالة وحدث نزيف في عينيه, أنني أذكر أول مرةٍ أصيب بها وأنا أقدم له الشاي وأجلس قربه, إذ كان توأمي يلعبان قربي لمّا صاح بي فجأة وهو مذهول:

_فاتن! هل ترين بقعة سوداء فوق الجدار كأنها شرخٌ حدث فجأةً في عقرب الساعة مقابلتي!؟
التفت بذهول نحو الساعة وأنا أجلس على يمينه, لأقول له:

_ سلامتك يا حبيبي! أنا لا أرى شيئاً!

_ فاتن! عيناي! أنا أرى بقعاً سوداء... أنا أرى بقعا !

_ رحماك يارب!

ومنذ ذلك اليوم, أخذ يعتزل بغرفته أكثر من ذي قبل....

ذهبنا أنا وفارس به من يومها الى الطبيب وأعطاه قطرات لعينيه ثم حدد له موعد فحص دوري, لكنْ حالته تدهورت مما أدى ألى أضطرار هلحقن الابر في عينيه وزادت حالته بعد ذلك حتى مع حقنهِ للأبر بسبب أعتلال شبكيته...

فلقد أخذت تتطور أصابة عينيه الى رؤية ضبابية, وأخذ يقول لي لمّا ألحّ في سؤاله- لأنه لايتكلم أبداً عن هذا الأمر- أنّه يرى بقعاً طافية كأنها ذباب امام عينيه.... ولقد حاولتُ كثيراً وكثيراً معه حتى أقنعته بأجراء تلك العملية بالتخثير الضوئي لعلاج تلك المناطق من شبكية عينيه التي تعاني من نقص في التروية من قبل الأوعية الدموية... كان (فؤاد) عنيداً جداً ومزاجياً دوماً ولم أعدْ قادرة على أقناعه بأكل نوعٍ معين من الطعام (لأنه من الممكن أن ينقطع عن تناول الطعام حتى لو أدى ذلك إلى موته, وكم مرةً كان يعاندني فيها كطفلٍ صغير مدلل فأظّل أقنعه وأستجيه كي يأكل! كل تلك العوامل أدت بعينيه ألى العمى, لأنه لم يكن يحافظ على مستوى سكره, بالأضافة الى طول مدّة إصابته بالسكري من النوع الاول... فمع مرور الوقت, أخذت أوعيه عينيه الدموية والتي تغذّي شبكيته في كلتي عينيه بالأنسداد, ولذلك أخذت عيناه بتكوين أوعيةً دمويةٍ جديدة لاتنمو بشكل صحيح مما أدى الى تسرب السوائل فيها بسهولة, فهي كشبكة عنكبوت لمن يفحصها مجهرياً, وذلك كلام الطبيب الذي شرح لي حالته بشكل مفصل... وبسبب عدم عناية (فؤاد) بسكره وتناول الطعام دون قياسه مع كل وجبة, أدّى ذلك الى نمو أوعية دموية جديدة في مقدمة العين عائقةٌ سريان السائل الطبيعي خارج العين مسببة تراكم الضغط داخل العين, مما أدى الى تلف العصب البصري (وإصابته بالعمى)....ورغم كل الشرح الذي قدّمه لي الطبيب, فالمحصلة النهائية كانت فقدان زوجي الحبيب لبصره.... أخذتُ أرعاه أكثر وأُطعمه بيديّ وآخذ بيديه لمّا يريد النهوض أو الذهاب الى دورة المياه وحتى تغيير ثيابه... فقد أصبح طفلي الصغير بعدما كنتُ صغيرته المدللة.... كلّما كنت أطعمه كان يبكي وهو يقبل يديّ فأسحبها بسرعة وأُقبل رأسه بسعادة وأزدادُ نشاطاً ورغبةً في رعايته, فأنا لم أكن أتعب برعايتي له, لكنّ خوفي الدائم كان من عودته الى سوء خُلُقِهِ و هجره لي وتجاهلي بشكل متعمد وكأنه(ينتقم مني) لما جرى له من آلامٍ وأوجاع.... ولطالما كنتُ أسأل نفسي ماهو الخطأ الذي بَدَرَ مني كي يعاملني بذلك الشكل

الرهيب؟؟! لقد تجاوز (فؤادي) الستين من العمر (لكنه كان لايزال في نظري نفس ذلك الشاب) إلاّ أن طول مدّة مرضه أدتْ ألى توقف الأوردة والشرايين في الشبكية عن العمل بشكل كلّي مما أدى الى تسرب الدم والسوائل الى شبكية عينيه الجميلتين فتورمتا من الداخل وحدث فيهما مايسمى (جلطة العين) كان ينظر أليّ بعينيه الجميلتين دون تمييز, لأنه لم يكنْ يرى بهما ويمدّ يديه نحوي فآخذ بهما وأُقبلهما وأحتضنه بحنان كطفل صغير فيبكي بين ذراعيّ وفوق صدري بينما أمسح على رأسه وأُخللّ أصابعي بين خصلات شعره...

_ فاتن الغالية! ماذا كنتُ لأفعل دونك؟

_ حبيبي... لاتبالي.... أنا هنا معك لأرعاك.... لن أتركك أبداً ياحبيبي الغالي ... أنا أشعر بالسعادة التامة وأنا أقوم بخدمتك, هل تذكر لمّا كنتَ تقرأ لي القصص وأنا صغيرة ؟ أنا الآن أردّ لك الجميل, وأُهدهدك على صدري حتى تنام أيها الغالي.... لاتبال بشيء مادمنا معاً.... فقط, كن راضياً بما كتبته السماء لنا.... لقد عشنا عمراً كاملاً من العنفوان والسعادة وشاهدنا مدناً كثيرةً معاً... أنا لاأريد أي شيء في هذه الدنيا أكثر من أن أحيا معك هنا وفقط معك, بدون أي قلق أو منغص آخر, أنا أشعر معك, أنني ملكة وأنك مليكي... حبيبي , لا تبالي أبداً... أبداً لاتبالي.....

الفصل الخامس والعشرون

وأخذتُ أرعاهُ كطفلٍ صغير.... وأقرأ له قبل النوم كما كان يقرأ لي قصصاً عندما كنتُ صغيرة... أضعُهُ في فراشه بعد أن أُساعده على السير برفقتي وبالاستناد إليّ كما (استندتُ إليه يوم كدتُ أن أقع من فوق سلّم منزل خالتي لمّا حلمتُ بكابوس مرعب بسبب معاملة عمي الظالمة وزوجهِ لي مع ابنها حسام).... أقول .... كان (فؤاد) يستطيع السير ولكنّ التهاب أعصاب قدميه وأصابته(بقدم السكري), جعلتْ سيره صعباً, ولكنّه وبمساعدتي, كان قادراً على حمل نفسه الى دورة المياه كي يعتني بنظافته الشخصية فكان ذلك عاملاً مساعداً لي, خفف من وطأة رعايته, ذلك لأني لم أعد تلك الشابة القادرةَ على رعايته كما كنتُ لمّا كسرت ساقاه عند وفاة خالتي (رحمها الله)... كنّا نتحدث كثيراً, أنا وإياه... بل أصبح لايريدني أن أُغادره.. فلقد أصبحتُ (أنا) سلوته! وكم كنتُ أشفق عليه وأنا أنظر عينيه الجميلتين اللتين طالما نظرتا إليّ بحبّ ولطالما نظرتا إليّ بغيرةٍ وغضب... وكنتُ أُحبّهما في جميع حالاتهما, كنتُ أحبّه (صدقاً) –في غضبه ورضاه, في هدوئه وغيرته القاتلة, عصبيته, وحبّه وغزله لي لمّا كان يأخذ بيديّ ويراقصني على ألحان مغنيته الأثيرة (أم كلثوم) وأنا أضحك ولا أعرف كيف أجاريه في رقصِهِ على تلك الألحان... لم يعد يطلب مني وضع أغانيها في (مسجله الأثير), بل كان يطلب مني أن أقرأ له (القرآن)... قبيل نومه, كل يومٍ بضع آيات, وهو مُستلقٍ على جانبه قبالتي.... فأنا دوماً ماكنتُ أجلس على كرسي منخفض قرب سريره) لأقرأ له كتاباً يحبّه أو روايةً أو (آياتٍ من القرآن)... كانت عيناه تدمعان وأنا أقرأ له فأشعر بالحزن الشديد لأجله وخصوصاً عندما (فجأة وبدون مقدمات) قال لي ذات يوم...

_ حقاً يافاتن... ذلك عقاب الله لي, لأني عشتُ حياتي بالطول والعرض ولم أترك فتاة جميلة إلاّ وقد كان لي معها قصة, أعلم أنكِ ستحزنين لكلامي هذا! لكنني أعترف بين يديك, ولو, أنك أدرى الناس بي وأنتِ تعرفين ماضيي منذ طفولتك.... أعلم... لقد ظلمتكِ معي....أليس كذلك, دوماً ماكنتِ تشعرين بالغيرة بسببهنّ وأنا ألومك على ذلك, ولمّا أبعدَتكِ عني وبمحض إرادتي (أنا) وبطلبٍ شخصي مني- رغم توسلكِ لي أن لا أفعل, بسبب شعوري بالنقص والعجز أولاً, وبسبب حبيّ لك, لأنني لم أرُدْ أن أجعلك تعانين في نهاية حياتك أو منتصف عمرك مع شخصٍ عاجز, وأنتِ طفلتي المدللة... فأذا بي أكوي بنفسي تلك النار التي طالما كويتُك بها دون أن أُبالي.... ولم أحتمل نظراتِ (أمير) العاشقة لك, ولم أحتمل وأنا أتخيله قربك, على سرير واحد, يلمس شعرةً من حبيبتي.... لم أحتمل.... ولم أستطع محاسبته لأنني أنا من طلبتُ منه ذلك, فوجدتُ نفسي أُعاقبكِ, لأنني(جبان)... أنا فعلاً لا أستحقك... (فاتن)! سامحيني على كل شيء... أُريدُ منك السماح والرضا ياحبيبتي عني.... لقد جفوتك وهجرتك, انتقاماً لذكوريتي وكبريائي, وكنتُ أنتقم لنفسي, بأيذائك دون أن أشعر.... رغم توسلك بي ومحاولاتك....

وأخذ يبكي كثيراً فمسحت دموعه وقبّلت عينيه وأنا أقول له بصوت خاشع مليء بالشجن والحنين...

_ حبيبي (فؤاد).... أنتَ (أبي) قبل أن تكون زوجي.... أنت (بابا فؤاد)! فهل وجدتَ أبنةً تستطيع أن تحقد على أبيها ووالدها (إلاّ إنْ كانت غير بارةٍ به) مهما فعل بها ومهما حصل معها؟! .... ثم كنتَ لي أخاً أكبر وبعدها زوجاً وحبيباً عشتُ معهُ أجمل لحظات حياتي, وكيف تريدني أن أحيا معك فقط وقت السعادةِ والرضا, ثمّ أتركك وقت المرض! كلا! أبداً أيها الغالي, أنا معك دوماً بأذن الله وأبداً سأظل بجانبك... حبيبي..... يكفيني النظر كل صباحٍ الى عينيك.... يكفيني أن أشعر أنك هنا معي, تحت نفس السقف, أنظر إليك فأستذكر كل سعادةٍ عشناها معاً –لاحرمني الله منك, صدقني يا (فؤاد) انا الآن في قمة السعادة والرضا معك ياحبيبي....

نظر إليّ وكأنّه ينظر إليّ فعلاً, وكأنّ بصره ردّ إليه مركزاً نظراته على وجهي...

_ نعم! ذلك لأنك تحبينّني, لكني لا أستحق ذلك الحب يا عزيزتي ... فلولا أن غروري وطيشي كانا يزيّنان لي ملذاتِ الحياة بحيث أنني لم أكن لأترك فتاةً نظرت إليّ نظرات الاعجاب أو حاولت مصادقتي دون أن أهرع خلفها لأثبت لنفسي مراراً وتكراراً أنني (دون جوان) الفتيات مهما كَبُرْتُ... أنا أعترف الآن بين يديك, كي تقرري إن كنت أستحق رعايتكِ أم لا, وكي تقرري مسامحتي أم لا... أنا فعلاً لم أخنك مع (ريبيكا) تلك, لكنني كنتُ أحتضنها وكنت ألاطفها وكنتُ أشعرها أنّي مهتمٌ بها فعلاً!! فأنا معك دوماً ما شعرتُ بالأكتفاء ولم أكن قادراً على خيانتك أبداً أبداً, وأقسم لك بروح والدتي أنيّ لم أخنك بجسدي مع أية أمرأةٍ اخرى, ولكنْ, هل الخيانةُ ماديةٌ فقط! أنا لا أُنزه نفسي! فالنساء بطبعهنّ عاطفيات! ولعلّ نظراتي ووعودي الكاذبة لهنّ لها أشد أنواع العقوبات عند الله وفي ميزان أعمالي تعدّ أقبح السيئات, فالخيانة ليست بالجسد فحسب كما قلتُ لك الآن وكما كنتُ أقول لنفسي مخادعاً ضميري كلّما وخزني.... فتلك المغتربة العراقية المهجرة التي استعانت بي يوم جئتِ إلى حفلتها دون علمي, لأحساسكِ الأنثوي بوجود (خيانةٍ) مسبقة من حبيبك (السافل) هذا -(أشار الى نفسه)-نعم ... لقد كانت تحتضنني وأنا كنتُ أستقبلها بالأحضان وأُمنيّها بكلمات الحنان والحب كما كنّا حبيبين يوماً ما.. أليستْ هذه قمّة الدناءة مني؟ وبعد ذلك, لمّا حَاسَبتني على ذهابي الى حَفلتها صَفعتُك وتسببتُ بفقدانك للوعي....أنا لاأستحقك يا(فاتن)! أنا.... حقيرٌ جداً ولقد عاقبني الله...

_ كفى, كفى, أرجوك! أنا لا أحتمل.....

ونهضتُ والدموع تتناثر من مقلتيّ مدراراً وأخذتُ أنظر إليه وأنا أبكي واقفةً أمامه بينما مدّ أنامله الطويلة في الفضاء أمامه يبحث عني وهو يهتف بألم....

_ فاتن! فاتن! لا... أنا لا أستحقك! لكنْ لا تتركيني! لاتذهبي! عودي إلي... أُريدُ أن أقول لك أنّ وسامتي كانت نقمةً عليّ رغم أنها عند كثير من الناس تعد نعمةً كبرى, لكنها نقمةٌ كبيرة, لأنها موضع ابتلاءٍ كبير! كيف لي يافاتن! هل تفهميني!! أنا, أعلم أنك هنا... (كنتُ أبكي وأنا واقفةٌ أمام سريره).... أنا لم أستطع مقاومة إغرائهنّ , فهل أنا نبيٌّ ياترى؟!.... هنّ من كنّ يرتمين أمامي, صدقيني يافاتن, أنا لم أخنك مع أية واحدةٍ بعد زواجنا, لكنّ كلامي المعسول, معهنّ, هو شيء لم أكن يوماً ما قادراً على تلافيه.... صدقيني يافاتن, هنّ من كنّ يركضْنَ

خلفي ويرتمين على قدميّ في محاولات مستمرة حتى وبدون نقود وبدون أي ثمن , كنّ فقط يردْنّ رضاي... سامحيني.... إن سمحتُ لنفسي أن أجاريهنّ فأنا لستُ بيوسف الصدّيق ولستُ معصوماً.... ولستُ نبياً!

_ كفى! كفى! لماذا تريد تعذيبي دوماً!

صحتُ بغضب, عندما تركته وهرعت خارجةً من الغرفة, لكنني سرعان مااستدرت نحوه وأنا أصيح باسْمِهِ لمّا وجدتُهُ قد نهض ليسقط على الأرض وهو يردد أسمي.....

الفصل السادس والعشرون

كنتُ أُطعمه بيديّ في صباح اليوم التالي بعدما أحْتَضِنتُهُ وجعلته ينام في حضني وطوال الليل كنت أهدهده كطفلٍ صغير وهو يردد كلماته:

_ (سامحيني ياصغيرتي الفاتنة).....

كانت محبَّتي له مجردة من أي مادة, وكان حبي له يمتد حتى بعد مماتي, بل لعليّ أشعر أنّ حبيّ له يجب أن يكون رواية تحكيها الأجيال ولذلك دونت قصتي معهُ, لأن روحي أحبّته أكثر من حبها لذاتها... فرغم كل اعترافاته لي, ولمّا وجدته قد سقط على الأرض, تمنيت لو كنت أنا مكانه, لأني لم أحتمل بُعده عني ولو للحظة بعدما حدث لي بفقدانه لخمس سنوات عجاف, ففؤاد الغالي, أعزّ عليّ من (فؤادي)... ولطالما شعرتُ بحبنا كشيءٍ غير ملموس, يمتد مع الهواء والماء والحياة.... لقد وجدتُ فيه (توأم روحي), ووجدتُ حياتي كلها معه, فمهما حصل ومهما جرى, لم أكن قادرةً على تركه, حتى لو عشتُ عذاباً مضاعفاً وتألمّتُ وبسبب هذا الحبّ... كنتُ أنظر أليه وأنا أطعمه بيدي بينما ينظر هو إلى الفراغ دون تمييز, لأستذكر عندما كان يطعمني وأنا طفلةٌ صغيرة....كم كان وسيماً جذاباً... وكم كنتُ أحبهّ كـ(أبٍ) لي... سبحان الله! كنت دوما مافكرت مع نفسي و كنتُ أُذهل ...

كيف أحبني واختارني من دون النساء زوجةً له !!

لقد كان ذلك يكفيني فخراً وسعادةً رغم كل علاقاته ...ورغم كل شيء, لأن ذلك أثبت لي وله دائماً أنني الفتاة التي استأمنها على شرف عائلته, وصدّق أنّها سترعى شرفه وتحافظ على أُسرته وستكوّن معه أُسرةً حقيقية وأنني الوحيدة التي أختارها لينجب منها أطفاله....(فرح) و(فارس) عيناي اللتان طالما رأيتُ بهما الحياة بمنظار مختلف بعد مجيئهما الى الحياة.... حبيباً قلبي... كيف لي أن أسامح (فؤاد) وهو (فؤادي)؟كيف لي أن أسامحه وأنا أشعر أنني حتى بعد مماتي, ستظل روحي متعلقةً بروحه, وسيظل حبي له خالداً سواء متّ قبله أو بعده؟! كيف لي أن أغضب عليه وأنا أعرف أنّه (آلان ديلون) زمانه و (دون جوان) الفتيات في كل عصر وزمان!؟ فكيف لي أن أنسى نظراته لهنّ وكيف كنتُ أشعر بالغيرة والألم لمّا يغمز أحداهن (قبل أن يعترف لي بحبّه بكثير) ولمّا كانت الفتيات يتغامزن حوله وهو مع (أمير) عندما كنّا في سفرةٍ بين الولايات مع هاني لمّا قرر (فؤاد) جمع ماأدَّخَرَهُ وأخويه للذهاب في سفرةٍ كانت الأولى والأخيرة لنا (كشبابٍ) قبل زواجنا, واستمتعنا بها كثيراً وشاهدنا فيها الكثير وتعرفنا على كثير من عادات أهل الولايات الأميركية الأخرى... لكنني كنتُ أبكي في الليل بمفردي, دون أن أعلم, أنّي أبكي حباً لهُ.... نعم, كنتُ أبكي في غرفتي التي خصصوها لي في الجناح الذي يختارونه لمبيتنا في كل فندق نمكث فيه لمّا نزور أحدى الولايات.... ظننتُ دوماً أنّي أبكي على نفسي, وكنتُ أعيش تناقضاً مع ذاتي وأنا أُقرعها..فتربيتي مع زوج عمي واهمالي الدائم من قبل اسرة عمي جعلت استحقاقي لذاتي ضعيفا جدا....لم أكن اعرف قيمة نفسي..كنت دوما ماانظر لذاتي على أنني ادنى مو الاخريات..ولم أكن اعرف مقدار جمالي لما كنت شابة وقتها...ولطالما تعجبت كما ذكرت قبل قليل ..كيف لفؤاد ال(دون جوان) بلا منازع أن ينظر لفتاة مثلي ليس لها من حظ الجمال شئ مقارنة بمن يعجبن به...وكيف له ان يحبني وانا متلفعة بحجابي دوما ومتمسكة بتعاليم ديني بشكل مضاعف ...لذلك كنت اقرع نفسي دوما لما اختلي بذاتي...

كنت اقول مثلا ...

(ضعي حجابِك دوماً ياحمقاء! أُنظري كيف يتغامزن مع أبناء خالتك, أولئك الفتيات السافرات! أوَ لا ترينَ كيف يعجبون بهنّ وكيف يهرعون خلفهنّ, وأنتِ مجرد,مجرد أختٍ لهم, لا شيء غير ذلك, تصنعين لهم الشطائر, وترعينهم وتنظمين ثيابهم, لكنك, لن تصبحي شيئاً بالنسبة لهم! رباه! كيف نظر الى تلك الفتاة الشقراء اليوم ثم همس مع (أمير)!! كانت شبه (عارية)! طبعاً لقد ضرب موعداً معها والتقى بها! وأنتِ ياحمقاء! أنتِ! أنتِ!!) وكنتُ أُغرق وسادتي بدموعي وأنا أردد وقد دفنت رأسي فوقها....

_ حمقاء! حمقاء! حمقاء! ضعي الحجاب دوماً...ولاتضعي قطرة من مساحيق التجميل أبدا ..لانك تخشين أن تعصي الله الذي أمدك بالقوة وقت انهيارك لما كنت في منزل عمك تتألمين وحدك وليس لك من معين ولا سلوة سواه...كنت دوما ماتلجئين إلى الله ...اما الآن.. فأنت في حيرة وصراع يافاتن...قولي لي الآن...كثيرات يطعن الله ويصلين ولكنهن بلا حجاب...قولي لي...بماذا يفيدك؟ أنت لاشيء ولاأحد سيراك.... لاأحد! لا أحد!صحيح انك لاتقلين جمالاً ربما ...ربما أقول ولست متأكدة ابدا عن كثير منهنّ ولست اتحدث عن اولئك الشقراوات... أعرف ذلك من نظراتهم... لكنْ....

(كنت أشعر في تلك الفترة بالدونية أمام أولئك الفتيات الخارقات الجمال مع تبرجهنّ وعدم احتشامهنّ في نفس الوقت, ولكنني دوماً ما سعدتُ بمعاملة أبناء خالتي بشكل راقٍ لي ومحبتهم وأعتزازهم بي)..... ولقد عزوت الأمر أذذاك الي صلة قرابتي بهم. ولكنّي لم أتوقع أبداً ومطلقاً في يومٍ ما, أن يكون (فؤاد) الحبيب, ذلك (الأيقونة) المجيدة للوسامة والجاذبية والذي كنتُ أرى بأمّ عيني كيف ترتمي النساء عند قدميه وكيف كنّ ينظرنَ إليه اينما ذهبنا وحيثما حللنا في مكانٍ أو مطعمٍ ما, منذ مراهقتي الاولى قبل أن أتزوجه وحتى بعد زواجي منه!! بل أن زواجي منه, جعل الكثيرات يسعيْنَ لأخذه مني وهنّ يُسْمِعنني عن عمدٍ كلمات جارحة مثل(يا لحظ هذه القبيحة الصغيرة!)....أن يكون زوجي!!!

حملتُ ملعقة الطعام وأنا أطعمه حساء الدجاج بينما كان يشرب ويستلذ بطعمه كأنّه طفلٌ صغير, وكم كان يسعدني ذلك, وخصوصاً وأنا أتذكر كلمّا أطعمته كيف كان يرعاني لمّا أمرض ويُطعمني بيديه لمّا كنتُ صغيرةً, وبعد أن تزوجنا, ففي صغري وفي كبري, كان هو ملاكي الحارس الحبيب الذي دوماً ما وجدتُ الأمان تحت ظله وتحت جناحيه الأبيضين...

_ شكراً لك ياحبيبتي!

هتف وهو يتناول يدي بين يديه لمّا أتممتُ إطعامه ومسحتُ فمه بمنديل رطب وناولته الماء, وقبَّل يديّ وهو يتمتم....

_ أنتِ صغيرتي الفاتنة الأثيرة.... لاحرمني الله منكِ.... ماذا كنتُ لأفعل لولاك ياغاليتي؟!...

_ وماذا كنتُ لأكونَ لولاك! هل كنتُ لأكون أنا نفسي! فأنتِ من علمني وأنت من رباني بعد أبي! لاعدمني الله إياك أيها الغالي.... هيا... سأعدّ لك الشاي وآتي لشربه معك سويةً ولسوف نتحدث معاً, مارأيك.... سوف نستذكر أموراً جميلة من ذكريات شبابنا! مارأيك؟ هه!

شدّني نحوه واحتضنني وصرتُ كهرةٍ صغيرةٍ بين ذراعيه وقبّل خصلات شعري وهو يتمتم....

_ لاتذهبي... لاأريد شرب الشاي... أنتِ أطيبُ شاي في الكون ....

_ أيها الغالي!.... كم فتاةً كنتَ تقول لها ذلك؟ إعترف! إعترف يا مراوغ! لسانك المعسول هذا, كم فتاة سقطت في شباكه وذابت بحلاوة كلماته!؟؟

ضحك (فؤاد) من كل قلبه واحتضنني بقوة أكبر....

_ تشجعينني هه! أنت يافاتن؟ كم أحبك....

_ لماذا أحببتني؟ لالا.... صدقاً! أنا أريد أن أسألك حقاً! فأنا دوماً ما كنتُ أشعر بالدونيةِ أمام أولئك الفتيات الجميلات اللاتي كنّ يجلسن الى جوارك وأولئك اللاتي كنتَ على علاقةٍ عاطفيةٍ بهنّ منذ مراهقتي, بل لعلي كنتُ أغار منهنّ حتى في صغري قبل سفري الى العراق وذهابي لسبع سنوات عجاف قضيتها في منزل عمي...

_ كم أنتٍ رائعة يافاتن! دوماً ما تعطينني جرعات إيجابية حتى وأنا في هذا الحال... حتى وقد أصبحتُ أسداً عجوزاً عاجزاً في نفس الوقت, ألست كذلك؟!!!

قبلتُ ما بين عينيه وجبينه وأحطتُ رقبته بيديّ وأنا أقول له بصوت خاشعٍ كلّه حبٌّ وكلهُّ شغف...

_ سأحبك يا أسدي العجوز للأبد... مهما صار أو حصل.... أنا أحبّك أيها الغالي ويكفيني أن تحتضنني ونتحدث هكذا كل يوم, شحناتٍ من الطاقة تجعلني أتوهج ألقاً وشباباً في روحي لاشكلي ولاعمري. ..فلقد تجاوزت الخمسين ولم أعد صغيرةً... وولّت أيام الشباب والصبا...

_ ستظلين صغيرتي الفاتنه أبداً في ناظري, رغم عماي وعدم قدرتي على الأبصار, سأظلّ أراك في خيالي(فاتنتي الصغيرة) وحبيبة قلبي الغالية....

_ هل ستجيبني الآن! فأنا حقاً أريد أن أعرف! كيف ومتى أحببتني! هه, قل لي! بصراحة! قلتُ ذلك وأنا أدفن رأسي فوق صدره فاحتضنني بذراعيه القويتين بينما أكملتُ أنا كلامي مستذكرة...

_ أوَ تذكر لمّا ذهبنا الى دار الأوبرا أنا وإياك و(أمير).. وكنتُ أسير بينكما, أنظر الى كلّ فتاة تمر أمامنا وهي تنظر إليكما بأعجاب وإليَّ باستغراب... كنتُ أشعر بالدونية حقاً وبالفخر في ذات الوقت! فأنا قد شعرتُ دوماً بالأمان في كنف أسرة خالتي المكونةِ من والديك ومنكم أنتم الثلاثة, أنت وأمير وهاني, ولكنْ, وفي ذاتِ الوقت.... (حقاً أنا لم أعترف لك بذلك من قبل خوفاً على كبريائي الانثوي, هه, ولكنْ... الآن, أنا كبرتُ ولم أعد أبالي, وسأعترفُ لك مثلما ستعترف لي بكل شيء...)

_ حسنٌ ياحبيبتي.... كلّي آذانٌ صاغيةٌ يا صغيرتي الفاتنة...

...تكورتُ أكثر كهرةٍ خائفة بين ذراعي فزاد من قوة احتضاني...

_ حسنٌ يا حبيبي.... لمّا ذهبنا الى دار الأوبرا! أوَ تذكر..... كنتما ترتديان معطفين أسودين زادا من وسامتكما وأنتما تبدوان كتوأمين بنفس الملامح ولكنْ أنت تحمل شعراً أسود وعينين زرقاوين (كم أعشقها كما تعلم جيداً)- وابتسم فؤاد....

_ حسنٌ جداً... وماذا حدث حينما ذهبنا.....

_ أما (أمير) .... دعني أُكمل, لا تقاطعني, أرجوك!

قلتُ بدلال فقبّل خصلات شعري الطويل.... تابعتُ:

_ يا غالي! يا حبيبي... كنتُ بينكما أشعر أنني نملة! نملةٌ بين أسدين! هل سينظران إليها يوماً!

(ضحكتُ) واكملت كلماتي...

_خصوصاً وأنا أُخفي كل مفاتني ولا أرتدي سوى جلباب وأُحيط وجهي بربطةٍ زرقاء ولا أضع أي ماكياج!! لكنكما كنتما تعاملانني كأميرة! أجلستماني بينكما في موقع يطلّ ويشرف على مسرح الاوبرا من أعلى وانتما تسألانني كل حين إن كنتُ مرتاحةً في جلستي, أو إن كنتُ أحتاج شيئاً ما.....فكنتُ بذلك في قمة السعادة, واستمعنا إلى ألحان الأوبرا الرائعة, عندما نظرتُ (مختلسةً النظرات) إليك لأرى أنّك قد أغمضتَ عينيك وذُبتَ مع الألحان.... شعرتُ بسعادةٍ فائقة لأنك سعيدٌ برفقتي مع هذه الألحان, وأغمضتُ عينيّ أيضاً لأُشبع أذني منها, لمّا فتحتها فجأةً لتسقطا على منظر يدِ لفتاة ما قد أمسكت يدك وأخذت تعبث بأناملك فتجرأتُ على افتعال حركةٍ أُميل بها رأسي تجاه من جلستْ الى جوارك من الجهه الأخرى- لأن أمير كان الى جواري- وحينها رأيتُ فتاةً خارقة الجمال, عيناها زرقاوتان وشعرها بنيّ... وقد ارتدت ثوب سهرةٍ ضيقاً يبرز أعلى صدرها ورقبتها البلورية.... كانت تضع قلادةً مرصعة بالألماس فعرفتُ أنّها من طبقة غنية... كنتُ حينها قد دخلتُ الجامعة للتو معك, (كطالبةٍ)....نعم.... كنتُ في العشرين من عمري للتو.... وأنتَ في الخامسة والثلاثين, في قمّة الرجولة والوسامة, حتى أنني كنتُ أراك أوسم وأجمل وأكثر جاذبية مما كنت عليه في مراهقتك الأولى لمّا كنتُ أنا طفلة...

وصمتُّ قليلاً, فرأيت وأنا أنظر الى (فؤاد) أنه قد أمتعض قليلاً:

_ حسنٌ.... وماذا حدث بعد ذلك! أنا لم أعرف أنّك لاحظتِ ذلك !

_ لقد أحببتك يا(فؤاد) دوماً, حتى دون أن أعترف بذلك لنفسي, وكنتُ أشعر بالنقص أمامك وأمام أولئك الفتيات الجميلات من الطبقة الراقية وحتى أولئك اللاتي لسنَ منها... كنتُ أغارُ من كلّ من تستحوذ على اهتمامك وحبّك... لقد نظرتُ إليك وأنت تمسك بيدها وتشدّ على

أناملها بينما وَضَغَتْ بين أناملك بسرعة ورقةً صغيرةً عرفتْ أنَّ فيها رقمها, لأنك دسستها في جيبك بسرعة وتبادلتما النظرات لما انتهت الأوبرا ونهضنا جميعاً....

الفصل السابع والعشرون

_ نعم.... لقد بكيتُ بشدة فوق وسادتي تلك الليلة.... وبكيتُ كثيراً... وبكيتُ وبكيتُ حتى ظننتُ أنّي سأموت من شدّة الحزن الذي اعتصر قلبي, وعرفتُ حينها أني.... أُحبك أنت! رفعتُ رأسي الى (فؤاد) فوجدت ابتسامته الجميلة مرتسمةً على شفتيه الرفيعتين عندما هتف بي قائلاً وهو يضمنّي بين ذراعيه....

_ لماذا بكت فاتنتي الصغيرة!! لمَ لمْ تُخبريني حينها بما في قلبكِ الصغير ياغاليتي الحبيبة وأنا الذي كنتُ أكتوي بين نارين.... نار حبك الذي أخذ يتأجج في قلبي ونار كوني كبيراً جداً بالنسبة لكِ وأنكِ تعتبرينني أباً لك! أو أخاً كبيراً جداً, ولقد سألتني لمَ أحببتك بين كل أولئك الفتيات الجميلات ولمَ أخترتك زوجاً لي ولم أخنك بعدها مع أية فتاة وأقسم بشرفي وبمعزة ابني الحبيب الأوحد (فارس) وابنتي الحبيبة(فرح) أنّي لم ألمس أمرأةً بعدكِ رغم ما اعترفتُ به لكِ من أستمرار ملاطفةٍ أو مجاملة أو مجاراةٍ لأولئك اللاتي لم يرتضينَ تركي رغم كوني متزوجاً!!!

_ حسنٌ!! لا تثر غضبي مرةً أُخرى, ستجعلني أغار مجدداً!!

_ دعيني أولاً أسألك! كيف كنت متأكدة أنكِ أحببتني أنا! ولمَ لمْ تحبي (أمير) الذي كان أصغر وأوسم مني وأقرب إليك عمراً!

_ يا(فؤادي)!! حقاً أنتَ تسأل حتى الآن هذا السؤال! عجباً! أنّ قلبي لم يدقّ ولم يخفق لسواك, أنت أول شخص ضمنّي إليه بحنانه وحبّه الأبوي, ولستُ أدري, هل كان حبّك مزيجاً

من فقداني لحنان أبي, أم بسبب وسامتك المفرطة, أو لأنك حُلُم كل فتاة! لا.... لاأستطيع الجزم أبداً! لكنْ, دعني... دعني أقول لك كيف تأكدتُ أن قلبي لايهتم سوى لك! نعم! أوَ تذكر تلك الحادثة التي حصلت ذات مرةٍ لما دخلتُ صباح أحد الأيام الى غرفةِ (أمير) لما كانت خالتي (رحمها الله) تطلب مني حمل ثياب كل واحدٍ منكم الى دولابه لأرتِّبها له! كنتُ أفعل ذلك تطوعاً وحبّاً وكرامةً لها رغم أنّها في البداية لم تكن ترضى لي ذلك, ولاتريد أن تتعبني.... فأُصرّ أنا!!

_ لا أذكر! ماذا حصل! ذكريني يا حبيبتي... لقد أصبحتُ عجوزاً!

وضحك بسعادة فابتسمتُ له رغم أنه لم يكن يراني....

_ حسنٌ!! أنا أخجل أن أذكر لك.... لكنّه أمرٌ قديم وأنت ستتذكرهُ ما أنْ أقصّه عليك..... ولكنك لم تخبرني لماذا أحببتني أنا دون الفتيات اللاتي تعرفت عليهنّ....

_ ليس قبل أن تخبريني عن كيفية تأكدكِ أنك لاتحبينّ (أمير) أولّ ماخفق قلبك الصغير هذا في بداية شبابك!

_ أوه يا(فؤاد)... حسنٌ... لمّا دلفتُ الى غرفة أمير في ذلك الصباح, وكنت أحمل معي مجموعة من ثيابه رتبتها بيدّي بعد أن كنتُ قد نشرتها بالأمس قبل ذلك فوق مجفف الثياب....

فإذا بي أرى فتاةً تقفز فزعةً من فوق فراشه وهي ترتدي قميص نومه (هو), وتسأل عنه بلكنةٍأميركية بحته, وأخذت تترنح يميناً وشمالاً فلاحظتُ زجاجاتٍ قد رُميت على أرضية غرفته وهي فارغة وكانت غرفته مبعثرةً للغاية فشعرتُ بالأشمئزاز حقاً لا بالغيرة ولا بالألم ولم أشعر بذلك (الوجع) الذي شعرتُ به في (قلبي) لمّا رأيتُ فقط يدَ فتاةٍ تُمسك يدك! ولم أرَ فتاةً قد قفزت من فراشك! لابد وأنني كنتُ سأجُنّ أو أموتُ ألَماً فرغم كل علاقاتك, إلاّ أنني كنتُ أعرف تماماً احترامك لقدسية منزل خالتي, وذلك ما لَمَستُهُ عندك لمّا جئتُ إليكما أمشي على استحياء والرعبُ قد بان في ملامح وجهي, إذ وثبتَ أنت واقفاً وجئت نحوي بسرعة وكان أمير وهاني جالسين على الأريكة ينتظران الفطور الذي تعدّه خالتي- وكان يوم عطلة كما أذكر- وعندها نظرتُ الى (أمير) نظرات التأنيب فشعر بشيء ما(خاطئ) قد حصل فوثب نحوي ووقفتما تستعلمان مني بينما لم يبال (هاني) بالأمر وظلّ يستمع الى أغانيه وهو يضع سماعاته على أذنيه... ارتبكتُ حينها وامتقع وجهي وأنا أحاول أن أتكلم....

نظرتُ إلى (أمير) نظراتٍ فيها عتبٌ وحنقٌ وخجل في آن....

_ كنتُ قد دَلفتُ قبل قليل الى غرفتك..... أنت تعلمُ أنّي أحمل ثيابكم لأساعد خالتي!.... طرقتُ الباب كعادتي فلما لم تُجبْ فتحتها- لظنّي أنك قد نزلت الى الطابق السفلي كما أنت الآن- ودلفتُ غرفتك لأضع ثيابك في دولابك وأرتبها فيه.....

_ نعم! وماذا حصل... ما بكِ يافاتن ترتجفين!

هتف (أمير) بينما كنتَ أنت تنظر إليّ لأكمل كلامي (بجدّية).....

قلت لكما حينها وأنا أغمض عينيّ رعباً وخجلاً منكما....

_ لقد! لقد وجدتُ فتاةً شقراء في غرفتك! وَثَبَتْ فجأةً من فوق سريرك وهي تسأل عنك يا(أمير)!

حينها..... نظرتَ أنت بغضب شديد الى (أمير) الذي امتقع وجهه وأخَذَ يتمتم مذهولاً:

_ متى ذلك! أنا لا أذكر! ها.... أوه يا ألهي! كنتُ ثملاً! أنا.... أنا.... أنا آسف يا (فؤاد)!

_ كيف تفعل ذلك ياأمير! أو لمْ نتفق أنّ بيت عائلتنا شيء مقدس لا يحب تدنيسُهُ أبداً بهكذاحثالات!

قلتَ لهُ بغضب كأسدٍ ثائر, وشعرتُ أنّك ستأخذ بتلابيبه بينما أصبح هو كعصفور صغير بين يديك وأخذ يتعذر لنا سويةً وهو يهمس خوفاً من أن تسمعنا خالتي أو والدكما فجأةً.... فشعرتُ بالأسى لأجله وهتفتُ فجأةً....

_ أرجوك يا (فؤاد)! سوفَ أدعّي أنها صديقتي وأنّها جاءت للمبيت معي لليلةٍ واحدة وستتناول معنا طعام الأفطار وترحل! ماذا تقولان؟

_فاتن! يا للكِ من رائعه! ما أروعك يا (قطر الندى)!

أخَذَ (أمير) برأسي ليقبّلهُ من فوق ربطة شعري فشعرتُ بالأحراج وتوردّت وجنتاي حينها بينما نظرتَ أنتَ إليّ بقلق ولكنْ بنظراتٍ مليئةٍ بالأعجاب والشكر والعرفان....

_ هل تستطيعين اقناع الفتاة بعدم التحدث عن (أمير) مطلقاً أمام والدينا!؟ (فاتن) ... أنا لاأريد أن احرِجَكِ ابداً.... (قلتَ أنت)

_لن أنسى لك هذا الجميل ياعزيزتي (فاتن)! إفعلي ذلك رجاءاً! هتف (أمير) بي, ونظرتُ اليكما بثقةٍ وأنا أُعلن أنّي قادرةٌ على ذلك... وبالفعل صعدتُ إليها فوجدتها قد ارتدت ثيابها وكانت تستعدّ للرحيل حينما استوقفتها وأنا أقول لها....

_ إلى أين تحسبين نفسكِ ذاهبة يا (هذه)؟

_ سأرحل! لقد ترك لي (أمير) نقوداً هنا وأنا أخذتُها و سوف أرحل الآن! ماذا تريدين! ومن أنتِ أصلاً؟

_ هل أنتِ صديقةُ (أمير)! حبيبته أم ماذا؟!!

_ لستُ صديقته! التقينا بالأمس فقط في حانة وشربنا سويةً وجئتُ معهُ... لماذا الأسئلة الكثيرة؟؟؟

_ لأنه طلب منّي أن لاتخبري أحداً عن أي شيء.... لقد كان ثملاً ولم يدري أنّه قد جلبكِ إلى منزل عائلتنا!

_ أوه! وماذا في ذلك!! أنا سأخرج بشكل طبيعي كفتاة قضت ليلتها مع شاب أعجبت به..أين المشكلة في ذلك...ألم تفعلي هذا سابقا مع أحدهم؟ ؟؟(قالت بتوجس وهي تتفرس وجهي)....

شعرت بالغضب الشديد وقلت بسرعة لأتلافى الإحراج...

_ إسمعي! بدون كلام كثير وبدون مقدمات.... كم تطلبين لتمثلي دور صديقةٍ لي قد أضطُرَت للمبيت معي لليلةٍ واحدة, لترحلي دون ذكر اسم ابن خالتي....

_ أهّا ! هكذا إذاً! سيكلفك الأمر كثيراً أنتِ و (ابن خالتك)! (وضحكت بسخرية)...

أعطتني رقماً في تخيلها, ففاوضتها عليه حتى خفضّت منه الى الربع, لأنني هددتها أنّ ذلك أفضل من عدم الحصول على شيء ولتذهب لتخبر الجميع أننا لا نمتلك المبلغ الذي في مخيلتها وكنتُ صادقةً في كلامي.... وبعد مفاوضاتٍ طويلة أتعبتني فيها تلك الفتاة التي

جاءت من الشارع, قررت الموافقة على مااعطيتها إياه بعد أن هبطت إليكما وأخبرتكما بالمبلغ فأصيب (أمير) بصعقةٍ كهربائية وأخذ ينكث شعره الطويل الناعم الأشقر بيديه

_ ماذا! ما هذا! ما هذا الظلم! من أين لي هكذا مبلغ.... و رباه...إنه لليلةٍ واحدة! لا يمكن! لا لا...قولي لها كلا!

_ أمير! لقد تفاوضتُ معها طويلاً وخفضّت المبلغ الى الربع!

_ انها نصابةٌ وضيعه استغلّت الوضع!

وهنا شَزَرْتَهُ أنت بنظرات ثاقبة غاضبة فانكسرت نظراتُهُ أمامك وطأطأ رأسه ليقول بانكسار....

_ ليس معي هكذا مبلغ!

_ سوف أقرضك وأمري الى الله وأعرف أنّ إقراضك معناه أني لن أحصل على شيء بعدها.... كم تحتاج.....

وأخرجتَ محفظة نقودك بينما أخرج (أمير) محفظة نقوده وأعطيتماني المبلغ كاملاً وذهبتُ به الى الفتاة لتلعبَ الدور بأتقان وينطلي الأمر على خالتي الطيبة وغم أنها أُصيبت بالدهشة كوني (أنا) أُصاحب هكذا نوع من الفتيات! وبقيت خالتي تتفرس الفتاة طيلة الفطور وتنظر الى اظافرها وقد صبغتها بأصابع أظافر وسوداء ونظرت ماكياجها الصارخ ولبسها الخليع وهي تكاد أن تنفجر بها صرلخا على حين غفلة ...وكنت ادعو الله طيلة الوقت ان تمر المسألة بسلام....وهكذا كان الامر..ثم لما رحلت ..يقيت خالتي تلقي مخاصرة طويلة عن رفقاء السوء امامي كي لااصاحب هكذا فتاة ولم تهدأ حتى وعدتها أني سأقطع اي علاقة لي معها!!!

عندما أكملتُ سرد قصتي التي استذكرتُ بها تلك الحادثة قهقه (فؤاد) ضاحكاً فضحكتُ معه وسألته بفضول....

_ قل لي..... هل أعطاك المبلغ بعدها, أم لا يافؤاد!

_ مطلقاً! أمير! أبداً لايعطيني أيّ نقود أُعطيها له!

وضحكنا معاً بسعادة وقبلني من رأسي وقبلّتُ يديه....

الفصل الثامن والعشرون

كنا جالسين معاً في وسط الحديقة نتناول طعام الأفطار مع ولدنا (فارس) و(روزالي) الجميلة التي أصبحت مراهقة صغيرة وبدأت تُصبح كفاكهه لذيذةٍ نضجت في أول الربيع.... كنتُ أنظُرُ الى جمالها الأخّاذ وعينيها الزرقاوتين وشعرها الأشقر الجميل, رباه, كم شبهت أمها في تلكما السمتين, لكنّ ملامح وجهها كانت دوماً ما تنكرني بـ(هاني) العزيز, وكأنه يجلس أمامي....

_ لم تقل لي يا حبيبي, لماذا أحببتني!

هتفتُ فجأةً بعد أن أنهينا الطعام وحملت روزالي الصحون مع (فارس) وقالت لي أنها ستتكفل بغسل الصحون وترتيب المطبخ فشكرتها لذلك وطلبتُ من (فارس) أن يصنع لنا

بعض الشاي مرةً أخرى لنشربه سويةً أنا و(فؤاد).... بقينا بمفردنا حينها أنا وفؤادي , فسألته ذلك السؤال.....

_ أوَ لاتدرين حتى هذا العمر الذي قضيناه سويةً يا فاتنتي الصغيرة!!؟ أوَ لاتدرين لمَ خفق قلبي لكِ أنت وحدك دون كل اولئك الفتيات!

_ لماذا! قل لي!

_ لأنك كنتِ دوماً كالنجمة البعيدة' صعبة المنال! كلّما نظرتُ لكِ انكسرتْ نظراتك, فلا تنظرين إليّ اعجاباً, مثلهنّ, ولا تُرضين غروري ...فكلّما حاولت الاقتراب منكِ ابتعدتِ, وجدتك قريبةً وبعيدة.... جذابة ببساطتك والتزامكِ ولستِ كفراشةٍ ليليةٍ تحترق قرب وهج المصباح!! كنتِ قد كبُرتِ للتو, فأخذتُ في لا وعيي أُقارن بين (فاتن) التي كنتُ أحملها فوق ذراعيّ وأحكي لها القصص, وتلك التي بكت بين ذراعي في تلك الليلة واستنجدت بـــ(بابا فؤاد), فإذا بي أراها فتاةً جميلة قد غلّفت جمالها الأخاذ كيرقة فراشةٍ جميلة تستعد فقط للظهور أمام من تريد هي!! خجلكِ وجرأتك, في آنٍ معاً..... نظراتك الحائرة لي والتي سرعان ماتنكسر لمّا أنظر أليك دمرتني.... يا (فاتن), كنتُ أُفكّر فيكِ كثيراً, هل هي تحبنّي كأبٍ لها, أم هي تحبني كشاب حبيب!هل هي تهتمّ لي أم لا تهتم بي؟! أوَ تعلمين سراً! أنّ الرجل لايُحب المرأة السهلة المنال.... إنّه لايحبّ تلك التي تقع في شباكه في الحال! كلّا.... بل هو يعشق فقط تلك التي تتعبُهُ حتى ينال رضاها وتجعلُهُ في حيرةٍ من أمره ...لايعلم بم تفكر أو كيف له أن يكسر حاجز الصمت بينهما, وأعني بالصمت (نكرانها وجوده أو الاعتراف بحبه), بنظرةٍ أو ابتسامةٍ أوإشارةٍ ما.....لقد... لقد (لوعّتِ) قلبي يا فاتنتي (حرفياً)..... أوَ تذكرين ذلك.... أنتِ لم تكوني ترفعين عينيك لتلتقيا عينيّ لمّا كنتُ أُدرسّك الفرنسية! لم تكوني تبادليني نظراتي حينما أجدك واجمةً فأظلّ أتأملك وبالصدفةِ تنظرين إلى نظراتي اللاهبة, فإذا بك تخجلين وتبعدين نظراتك بسرعة... فأبقى محتاراً, لاأعرف بمَ تفكرين!!؟ هل هي تحبني؟ أم لا تحبني! هل هي معجبةٌ بي أم لا! ثمّ أنني لم أكن لأتزوج أية فتاة من اولئك اللاتي عرفتهنّ لولا وجودك و لبقيت مثل (أمير)!! أتصدقين هذا... كوني على ثقة.... فنحن لا نعطي اسم عائلتنا وشرفنا إلاّ لفتاةٍ رائعةٍ مثلك تحافظ عليه وتصونه.... ولمّا

أعترفتُ لكِ بحبيّ زاد حبي لك لأنك صددتني فتعذبتُ مرتين وازدادتْ لوعة حبي, فأنت لم تصدّيني ولم ترضيني وبقيتُ حائراً, اتألم بصمت وأحبك أكثر بصمت...

_ وكذلك أنا! صدقني, كان الأمر رغماً عني وأنت تذكر!!

_ حبيبتي... لاحرمني الله منك أيتها الحبيبة يا أم فروحة!!

وقبّل أناملي لمّا برز فارس فجأة وخلفه روزالي وكنتُ أُقبّل رأسه في تلك اللحظات فابتسما وصاح فارس بسعادة....

_ الله الله! ماهذه الرومانسية!

(وضحكت روزالي بسعادة)

_ صه يا ولد! تأدّب!

قلتُ ذلك وانفجرنا بالضحك بينما جلس فارس مع روزالي يصبان لنا الشاي ويتبادلان المزاح معنا.... أصبحت (روزالي) أكثر إيجابية معي وقد تركت كثيراً من تصرفاتها السابقة كلما نضجت ومرّت الأيام, وكلّما شاهدتني أرعى (فؤاداً) دون أزعاجها ودون التدخل في حياتها, فتحاول هي الأقتراب مني ومحادثتي واسترضائي بشكل تدريجي وكأنها تقول لي بشكل غير مباشر...(أريد أن أكسَب ودّك, لأنّي أوُدُ أبنك الغالي الذي ربّاني ورعاني منذ طفولتي بعدما هجرتني أمي فسامحيني وتقبلي جهلي)....ولقد أصبحنا مقربتين نوعاً ما رويداً رويداً, وخصوصاً لمّا كانت تسألني عن طفولة (فارس) وتهتمّ بما كان يفعله لمّا كان في عمرها – (حينما كانت هي أصلاً طفلةً في اللفافة)- إن كانت قد وُلدت أصلاً, فهو يكبرها بأعوامٍ كثيرة.... وعلى أية حال, فأنا دوماً ماسعدتُ بأسئلتها تلك وأخذتُ أتقرَّب إليها أكثر وأنا أُطلعها على خصوصيات (فارس) وذكرياته لمّا كان طفلاً صغيراً رغم أنّه قد أُصر ذات مرةٍ وهو يرانا جالستين معاً فأراد معرفة ماذا نفعل فأذا به يمسك بألبوم الصور من بين يدينا ليجد نفسه في صورةٍ قديمة عارياً من الثياب بين يدي عمه وأبيه وهما يقومان تحت إشراف المضمّد الطبي بعمل ال(طهور الأسلامي) له بينما كان هو يبكي من الألم, و(أمير) من قام بتصويرهم, فصرخ (فارس) غضباً بينما أخذنا نضحك أنا وروزالي عليه... كان في السادسة من العمر عندما أقمنا حفل (طهور) له, وكان ذلك في منزل خالتي قبل أن نبيعه بوقتٍ طويل ويصبح مجرد ذكريات أبكيها دوماً وأحنّ الى لحظةٍ منها.... إذ أخذتُ أتأمل وجهه_وأعني_ (فؤاد)_وهو يبتسم ممسكاً بولده (فارس) بينما أمسك ساقيه (هاني) وهو يضحك لــ(أمير) الذي كان يصوره مع (فؤاد)

و(فارس)... كم كانت تلك الذكريات جميلة, وكم كنتُ أسعد وأنا أقلّب ألبوم صور العائلة الكبير, لأذرف الدموع كلّما رأيتُ صورة خالتي أو عمّي- وأعني زوجها- والد فؤاد الذي لم يؤذيني يوماً ولم يكن سوى رجلٍ طيب ليس له دخلٌ فيما لايعنيه, ويتجنبّ المشاكل قدر الأمكان, صحيح أنّه لم يكن يتحدث كثيراً, إلاّ أنّ طيبته وتحمّله لعصبية خالتي وهي تصيح بأولادها لمّا يتعبونها, كانت محطّ إعجابي, فهو لم يكن يحاسبها يوماً على أي تصرف ولم يكن يصرخ بها مطلقاً, حتى لو صاحت, أو تعصبتْ, إذ يقوم دوماً بالتحدث معها بهدوء فتلين أساريرها وتنشرح وتصبح في قمّة الهدوء سريعاً وتنسى مافعله (أمير) مثلاً من (شقاوة) أو هفوات (هاني) وعدم إطاعته لأوامرها.... كم كانا طيبين كليهما- وأعني خالتي وزوجها- وكم كانا متفاهمين!؟

وبقيتُ أنظر الى تلك الصورة التي جمعتني أنا وفؤاد لمّا كنتُ صغيرة جداً ونحن نبتسم بسعادةٍ لبعضنا البعض وهو يحملني الى الاعلى....

الفصل التاسع والعشرون

خلع (أمير) قفازيه..... لقد كان عيد رأس السنة حيث أعددتُ مع (فرح) مأدبة عشاء فاخرة لنجتمع سويةً كلنا, ولأرى توأمي الحبيبين اللذين لم أرهما منذ فترةٍ طويلة ألاّ في الصور عن طريق الأنترنت.... احتضنتها بشوق وأنا أبكي.... لقد كبرا... صحيح أنّها أشهر قليلة التي فصلتني عنها, لكنهما أزدادا طولاً ووسامة وجمالاً... حبيباي الرائعان, لقد ورثا شقار شعر والدهما وزرقة عيني عمهما وبياض بشرة (هاني) الناصعة المائلة الى الحمرة.... قبّلتُهما وأنا أُرددّ كلمات الاشتياق بينما احتضناني وهما يقبلانني تباعاً دون أن يتركاني حتى سرنا معاً وأنا

أحتضنهما نحو الأريكة لنجلس معاً ونتبادل أطراف الحديث..... كان هاني قد حضر مع ولده – زوج فروحة- قبل ذلك بفترة غير قصيرة, وجلس يتسامر مع (فؤاد) وولده, عندما أكمل (فارس) تعليق الزينة على شجرة الميلاد, كما تعودنا أن نفعل اقتداءاً بخالتي التي لطالما أحبّت اعياد الميلاد وجلب شجرة كبيرة تزينها بالهدايا والألعاب الصغيرة والأضواء..... وما أن أتمّ فارس عمله حتى التفت نحوي وهو محتار يتلفت يميناً ويساراً فهرعتُ إليه وأسرعتُ و (قلب الام) يشعر أن شيئاً ما قد أصابه.... أنّ خطباً ما قد ألمّ به, فصحتُ به مذهولة:

_ مابك يا حبيب أمك, تحدّث بسرعة! لقد أفزعت قلبي!

_أماه! هل جاءت روزالي من الخارج أم أنّها لم تعد؟

_ ماذا تقصد؟ هل هي خارج الدار!

_ نعم! لقد ذهبتْ الى منزل صديقتها.... لا أعرف لماذا تأخرت؟

_ هل تعرف عنوان المنزل! هاني! أمير! (فؤاد)!

_ ما الأمر! ماذا هناك؟ فاتن! وثب الاخوة ثلاثتهم, كأنهم (الفرسان الثلاثة) و(فارس) هو (دارتنيان), رابعهم!! حكيتُ لهم ماحصل... كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة مساءاً وكنّا نستعد أنا وفرح لتحضير الطعام فوق المائدة التي حضرناها سويةً, لكنّ كلّ ذلك تأجل لمّا هرع هاني وأمير و(فؤاد) أيضاً وهو يستند على (فارس), لأنه رفض ترك ولده بمفرده... كان الأمر غريباً للغاية حقاً, فتلك هي المرةُ الاولى التي تتأخر فيها(روزالي) عن المنزل وبمفردها! كان فارس يرافقها دوماً كظلها... ولقد اتصل مراراً بها فلم تجبه وكان هاتفها مُغلقاً مما زاده قلقا كما قصّ لي قبلَ أن أُنادي والده وعميّه.... ركب الجميع في سيارة هاني بينما بقي زوج فرح في المنزل لأني قلتُ له وبصوت حازم....يجب أن يبقى هنا رجلٌ في المنزل ليحميه! أرجوك!

_ ما الخطب الجلل يا أمّاه! هل المسألةُ خطيرةٌ حقاً!!

هتف (فؤاد) الصغير و(فاطمة) الصغيرة واللَّذين لم يعودا صغيرين أبداً بل أصبحا يافعين غرّين في ريعان الصبا...

_ طبعاً! الأمـر خطير! فأبنة عمكما لم تعد الى المنزل في هذا الوقت المتأخر, ولقد ذهبت منذ العصر الى بيت صديقتها, ولم تتصل وكلّما اتصل عليها (فارس) لم يستطع أن يحصل على إجابةٍ منها لأن جهازها مغلق! فكيف لا يكون خطراً! سأذهب معكم! هل تسمعون!

صحتُ وأنا أُسرع نحو الباب متلقفةً معطفي بسرعة....

ركبنا معاً وكأننا عدنا شبابا أيام كنّا في رحلتنا إلى الولايات معاً, نرتاد كل مكان ونلتقِط الصور... كان (فارس) بجوار عمه في المقدمة, بينما جلستُ بين (فؤاد) و(أمير) –كالعادةِ – دوماً .... كان (فؤاد) قلقاً للغاية, وكنتُ أنظر الى قسمات وجهه بقلق وأنا أمسك بيده فيشدّ عليها بيدِهِ الأخرى ليطمئنني... ونظرتُ ألى (أمير) عن يميني فنظر إليّ...

_لا تقلقي يا (فاتن).... سنجدها وهي على ما يرام أن شاء الله!

وصلنا الى المنزل... كانت صديقتها قد خرجت خلف والديها اللذين أبديا دهشتهما مما حكاهُ (فارس) عن كون (روزالي) قد زارت ابنتها اليوم, فأُصبنا بذعرٍ شديد وأخذ (فارس) يتلفت يميناً ويساراً وامتقع وجهه بشكل كبير.... وأخذ يشد غلى ذقنه بأنامله بحركات عصبية...

_يالهي! أين من الممكن أن تكون قد ذهبت! وكيف تكذب عليّ! لا من المستحيل أن يَكون قد حدث لها مكروه! رباه!

_ كيف سنجدها الآن! أبلغوا الشرطة فوراً! كل دقيقة تمر خطراً عليها!!

صرَّح فؤاد بغضب وهو يصرّ على أسنانه, وعيناه الجميلتان تتحركان بلا هدى يمينا ويسارا... وأخيرا عدنا معاً إلى سيارة (هاني) حيث رنّ هاتف (فارس) فجأةً فصاح بفزع....

_صـــه! لا لاتتصلوا بالشرطة! إنها روزالي!! هيا تكلمي! روزالي ! مابك!!؟ مابك يا صغيرتي!!

كان فارس قد فتح السماعة الخارجية لهاتفه فسمعنا صوت روزالي المذعور....

_ فارس! أرجوك! سيعود بعد قليل... لقد فككتُ وثاقي وفتحتُ هاتفي لأتصل بك, أنقذني بسرعة! أرجوك.... إنّه يريد الإعتداء عليّ.... أرجوك! أسرع! أرجوك سامحني, لقد كذبتُ عليك ....سامحني أرجوك!!! أنا حمقاء حقا...اسرع إلي رجاءا...

_ ماذا تقولين! كيف ومتى! من هو؟!

_ أنا آسفة....(وبكت بهستيريا).... لم أقل لك.... لقد ظننتُ أنّه معجبٌ بي, وكان يصرّ على أخذي معه في موعد في المطعم, فلم أُخبرك كي لا تغضب! أرجوك.... أسرع, إنّه غير سويّ, لقد أخذني الى منزل مهجور بدلاً من المطعم.... أنا هنا في سقيفةٍ ما, قذرة! لاأعرف المكان! ماذا أفعل!

_ إفتحي (الجي بي أس) بسرعة! إفتحيه يا روزالي!

_ لقد فتحته! فتحته قبل أن أتصل بك....

_ عمّي! أنت تعرف أكثر مني.... سأسوق وأنت من تدلنّي...

_ هيا! لقد عثرتُ على مكانها.... روزالي.... حبيبتي! أسمعيني... أنا والدك... إهدئي, إهدئي....(أخذت تبكي هنا بجنون)...

_ سامحني يا بابا, لم أكن أعلم... أردتُ أن أكون محبوبه!فقط ...أنا آسفة...

أرَدْتُ أن أُقلدّ صديقاتي في المدرسة! كان يقول لي أنّه معجبٌ جداً بي ولمّا قاومته جلبني هنا... سامحني يا أبي! أنا آسفة جداً! وانفجرتُ بالبكاء ثم أخذت ترتعش...

_ بابا! إنه قادم! سأُطفيءالجهاز!

_أين رَبَطك ذلك السافل! سأحطم جمجمته! سوف.... صرخ الأب بغضب...

_ بابا! سأعود الى السرير, لأني أخاف منه... قال أنه سيقتلني....

بابا أنا خائفة... خائفة.... قال أنه سيقتلني إن لم أستجب له...

أخرج (أمير) فجأةً مسدساً كان قد وضعه في جيبه وعبّأه بالذخيرة, فأخَذَتْ أوصالي ترتعش وَصَمَتُّ رعباً ولم أفه بكلمة, ولم أنبس ببنت شفه بينما ركبنا جميعاً مسرعين نحو الموقع الذي حدده لنا الهاتف عبر الجي بي أس (GPS)...

كان فعلاً كوخاً أو سقيفةً صغيرةً تابعة لمنزل صغير لابدّ وأنّه كان منزل ذلك الفتى الذي غرّر بروزالي الصغيرة... كنتُ أرتجف ذعراً... هتف (أمير) وهاني بي أن أبقى بقرب (فؤاد) في السيارة وأن لا نغادرها, لكنني ضغطتُ على يد (فؤاد) وأومأ لي برأسه ونزلنا بعدهم, لأن قلبي لم يحتمل أن أجلس منتظرةً ما يحدث ومن الممكن أن أمنع مصيبةً ما قبل أن تحدث لأحدِ أعزائي الأحباء.... إستند (فؤاد) عليّ وذهبنا سويةً متسللينْ خلف (أمير) وهاني وفارس الذين أقتحموا السقيفة(برفسة) واحدة من قدم (أمير) الذي وجّه مسدسه الى رأس الفتى, بينما ثبّته فارس بلكمةٍ من يده, وأمسك (هاني) بعصا حديدية وجدها قرب السقيفة, ضرب بها ساقي الفتى فظلّ يتلوى على الأرض قرب سريره القذر, حيث وجدنا (روزالي) المسكينة وقد ربطت يداها الى عمودي السرير اللّذين يربطان تاجه المزخرف بورد أسود مصنوع من الحديد...

كانت روزالي تبكي وهي ممزقة الثياب فبكيتُ دون شعور مني وكنتُ أودّ أن أهرع إليها بسرعة لأغطيها بمعطفي, لكنني كنتُ أُمسك بفؤاد الذي كان يركز سمعه على حديث (أمير) و(هاني) مع ذلك الفتى...

_ أيها الجبان! إنها ابنتي! كيف تجرأت!

قال (هاني) ذلك ولكمه على وجهه وهو على الأرض فسال الدم من فمه, ومن أنفه...بينما كان (أمير) قد أخرج المسدس من فمه ووجهه الى رأسه.... نظر الفتى متوسلاً وهو يئنّ من الألم عندما وجدتُ (فارس) قد شدّه من ياقة قميصه ليُنهضه ويقول له:

_ هيا! دافع عن نفسك! أضربني الآن ! هيا! أيها الجبان!

كان الفتى ينظر الى (فارس) بذعر عندما ضربه (فارس) بلكمةٍ في معدته ثم حمل (هاني) العصا الحديدية مرةً أُخرى ليهشم بها عظم ساقه فصرخ من الألم وأشحت بوجهي, لأنني لم أحتمل النظر....

_ كفى! لا تقتلوني أرجوكم! لا لا! أتوسل إليكم....

_ هل تعرف ما عقوبة التعدي على قاصر! هه!

قال (أمير) وهو يدير زناد مسدسه ليضعه في فم الفتى مرةً بعد أخرى وكان حانقاً للغاية وهو يصرخ به وعيناه ترميان شرراً.... ووجهه الأبيض قد تورد من شدة الغضب...

_إختر الآن, أين أضع المسدس؟ هه ! في رأسك, في فمك! أم أسبب لك عاهةً دائمية كي لاتتعدى على فتاةٍ ضعيفة أيها الجبان بعد هذا أبداً! أو لم تعرف من تكونُ هذه! وكم رجلاً خلفها! هل ظننتَ أنها إحدى ساقطاتك! ياجبان ! تكلم! تكلم! (وضربه بالمسدس على رأسه) صرخ الفتى ألماً لأن (أمير) ضربه بأخمص المسدس, لكنّه تعمد عدم ضربه بقوة تُفقده وعيه, وصرخ به كأسدٍ ثائر.....

_ هيا! تكلم! أين تختار أن أُعيقك! في ساقك! أم في ذراعك؟ أم أجعلك عاجزاً طوال عمرك!

_ كلا! كلا! أرجوكم, دعوني.... أنا أُقسم لكم... أُقسم لكم أني لن أتقرب منها أبداً بعد الآن.....

_يجب أن نسجنك أولاً.... أتصلوا بالشرطة!

صاح (أمير) بغضب عندما صرخ الفتى بذعر....

_ كلا! كلا! سأعطيكم كل ما تطلبون ! لا.... لا تتصلوا بالشرطة! لا.... أنا قد خرجتُ من سجن الأحداث قبل فترة.... وأُمي بمفردها, وليس لها أحدٌ سواي! أرجوكم, لا...لا...

وأخذ يبكي كطفلٍ صغير... ثم تمتم بألم...

_ كلُّ ما أردتهُ هو أن احظى بوقت جميل معها! أنا أعتذر منكم! أعتذر! لن أتقرب منها ابداً! ابداً....

_ ايها الجبان! أيها الوقح.... كدتَ تفعلها لولا قدومنا!

صرخ (هاني) وهو يرفسه عدةَ رفسات برجليه حتى فقد أعصابه فأمسك (فارس) بعمه من ذراعيه وجرّه من الخلف وهو يهدئ روعه بينما كان هو – أي (هاني) قد فقد صوابه و انتفخت أوداجه وأحمّر وجهه غضباً وكاد يقتل الفتى الذي تكورّ على نفسه ككلبِ صغير...

_ كفى... كفى... يكفي هذا... دعوه!

هتف (فؤاد) ووجهه يحكي عن ألمٍ دفين.... فالتفت الجميع وصمت....وهدأ (هاني) فجأةً وكأن على رأسهِ الطير, بينما رفع (أمير) مسدسه ووضعه في جيبه....

_ لقد لاقى جزاءه... دعوة! (فارس) غطَّ روزالي بسرعة بمعطفك واجلبها معك.... هيا بسرعة....

ذهلتُ كيف عرف (فؤاد) أنّ قميص (روزالي) كان قد شقّ من الأعلى؟ هل كان يبصر؟! لكنني علمتُ يقيناً أنّ ذكاءه هو من أبصر كلّ شيء.... خضع الأخَوان لحكم أخيهما الأكبر ولم يتكلما بعد ذلك وتركا الفتى يتلوى من الألم بينما ذهب (فارس) نحو (روزالي) التي أنكفأت على نفسها خجلاً وألماً فنزع معطفه وغطاها به, بل لفهّا به بالأحرى وحملها فوق ذراعيه كأبٍ حنون.... وعدنا جميعاً نحو السيارة... لم تعد تكفينا سويةً فأخذت سيارة أجرة لي ولـــ(فؤاد) وعاد البقية بسيارة (هاني) الى المنزل....

كانت روزالي في حالةٍ نفسيةٍ رهيبة, ولم نتناول أي طعام في تلك الليلة, بل جلسنا واجمين مقابل بعضنا البعض وكأنّ على رؤوسنا الطير... كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل, وجميع الناس يحتفلون بمجيء رأس السنة الجديدة, (إلاّنا).... كنا ننظر الى بعضنا تارةً بوجوم وتارةً أخرى كنا ننظرالى الفراغ.... روزالي المسكينه في سريرها وقد جعلتُ فاطمة تنام بقربها تلك الليلة كي لاتبقى بمفردها, وحسبما روته لي (فاطمة) فيها بعد, فقد احْتَضَنتها فوق السرير كي تنام لكنها ظلت تبكي بذعر وجنون وهي تردد بصوتٍ مرتعش....

_ أنا نجسة! لقد لمس جسدي! أنا لستُ طاهرةً أبداً.... لقد قبّلني, لقد قبلنّي! أنا أكره نفسي, أنا أكره نفسي.....

كنتُ أذرف الدموع لأجلها وأنا جالسة قرب (فؤاد) الذي بدى كأسد غاضب صامت, في هدوء يسبق العاصفة!!!

الفصل الثلاثون

مرّت الأيام التالية لتلك الحادثة ثقيلةً على أُسرتي الحبيبة ولم يغادر (هاني) منزلنا, لأنه كان في حالة نفسية قلقةٍ للغايةِ على ابنته, ولقد طلبَ مني شخصياً أن أعرف منها ماجرى وإن كان قد حصل لها مكروهٌ أو أذى, فطلبتُ منهُ إمهالي لأنّ ابنته لم تكن في حالةٍ نفسيةٍ سليمة, ولم أعتقد أنّها قادرةٌ على التحدث عن ذلك الأمر.... كنّا فقط نريد لها أنْ تتناول الطعام إذ إنّها اعتكفت في غرفتها وأخذتْ ترفض تناول أي شيء, إلاّ قليلاً جداً... فما أضعه لها في آنية الطعام يعود كما هو إلاّ الحليب عند الفطور أو حساء الدجاج عند الغداء فكنتُ أطمئنّ أنها لن تصاب بجفاف أو تفقد وعيها بسبب الجوع ونقص الغذاء الحاد.... كنتُ قد استنطقتُ ابنتي (فاطمة) عمّا قالته لها (كما ذكرتُ مسبقاً) في تلك الليلة المشؤومة, فحكتْ لي ماقالته بالحرف الواحد وكيف أنها كانت ترتجف وتبكي.... خيمّت غيمةٌ من السواد المعتم على سماء منزلي الحبيب وأسرتي الغالية بعد تلك الحادثة, ولمْ أرَ (فارساً) يبتسم ألبتّة وكأن على رأسه الطير, وجدتُهُ واجماً دوماً ولايتكلم مع أحد وكثير الشرود.... حاولتُ أن أُكلِّمه ولكنْ عبثاً... فقد كان يتهربُ مني وكأنّ نظراته تخجل أن تلتقي بنظراتي, وكأنّه يخجل أن يواجهني بقلقه الدائم وحزنه على (روزالي) بل ويخشى أن أكتشف (مثلاً) مقدار حبّه لأبنه عمّه, وكأنني لم أكنْ أعلم! وتذكرتُ قصتي مع (فؤاد) وعرفتُ تماماً كيف كانت خالتي تعلم بقلب ولدها, لأنني علمتُ يقيناً أنّه يعشقها ولا يحب سواها... كم كنت قلقاً من أنها قد أُصيبت بشرخٍ نفسي كبير..... أو أنّ ذلك الشاب قد آذاها (جسدياً) بحيث أنّها لم تعد قادرةً على مواجهتنا أو الاستمرار في الدراسة وممارسة حياتها الطبيعية كما كانت من قبل..... كلّ يوم, يسألني (هاني):

_ ها! هل أَكَلتْ! هل تحدثتِ إليها...

وكنتُ أُجيبهُ وقلبي يقطر دماً لأجله ولأجل ولدي ولأجلها....

_ كلا ياهاني! لم تتناول سوى الحساء كالمعتاد.... وأنا أتعمّد وضعه لها لأني أعلم أنها تحبّه كثيراً....

_ فاتن! أرجوكِ! لا تتركي ابنتي!

أخَذَ بيديّ في آخر يومٍ قبيل اعترافها لي بكلّ شيء وهو يبكي فتألمتُ كثيراً لرؤيتي دموعَهُ الغالية.....

_ أخي الغالي (هاني)... تعلم معزّتك في قلبي وقَدَرك عندي!

_ لاعدمني الله إياك غاليتي, أُختي العزيزة (فاتن)! أنا اشكر الله الذي جاء بك من أقصى الأرض بعدما اعادك عمك الظالم إليه وفقدنا الأمل في عودتك إلينا..أنت أختي التي لم تلدها لي امي لكنها ابنة اختها التوأم التي احبتها دوما وكانت تشعر بها حتى وهي بعيدة عنها ...

وذرف الدموع ثم هتف بصوت خاشع...

_ أرجوك! أُريد فقط أن أعرف ماذا فعل ذلك الجبان! أريد أن أطمئن عليها..... رباه! هل وصلنا في الوقت الملائم! هل.... هل.... أنا.... لاأستطيع أن أتخيل طفلتي الصغيرة.... وبكى بألم وهو يضمّ وجهه بين يديه فتمنيتُ أنْ أضمّه بين ذراعيّ, لكنني أمسكتُ كتفيه بيديّ وهززتهما وأنا أقول:

_ هاني! كفى! كن شجاعاً كما عهدتك! سنتجاوز هذه الأزمة معاً! روزالي غاليةٌ عليّ كابنتي.... لاتنسى أبداً أنّي أنا من ربيتها! ولاتنسىَ أبداً أنها قد كَبُرَتْ هنا ولم تعرف سوانا وأنّها غاليةٌ جداً على قلب ولدي الأكبر (فارس)....

التمعت عينا (هاني) ببريقٍ عجيب عندما سمع كلامي وقال:

_ فاتن! ماذا كنتُ لأفعل لولاك يا ابنة خالتي وأُختي الغالية؟!

وأخَذَ برأسي ليقبّلني من فوق ربطة شعري فخجلتُ منه....

_ هاني الغالي! سوف أصعد لها اليوم وسأحمل لها طعام العشاء, علّها تتحدث معي... سوف أُحاول مراراً وتكراراً فلا تيأس, لأنها لابدّ وأن تكون في حالةٍ نفسية مزرية وعلينا أن نصبر عليها حتى تقرر الحديث عن الأمر بمفردها.... لا تقلق يا عزيزي....

وبالفعل... كانت تلك الليلة هي الفصل في المسألة, فعندما ذهبتُ بطعام العشاء ووضعته على المنضدة أمام سريرها, وكانت مستلقيةً على فراشها موليةً ظهرها إليّ ولمّا هممتُ بالخروج, إذا بي أسمع صوتاً ضعيفاً يناديني....

_ خالة فاتن!

إلتفتّ بسرعةٍ إليها غير مصدقةٍ أنها قد نادتني....

_ حبيبتي! قولي! ماذا بكِ.....

_ أريدُ أن أتكلم! هل ستستمعين إليّ الآن .... أنا لابدّ لي ان أتكلم عمّا حصل.... فأنا لاأعرف هل أنا الآن فتاةٌ سيئةٌ أم صالحةٌ؟ هل أنا مدنسّةٌ أم طاهرةٌ؟

_ حبيبتي! تكلّمي! أنا أستمعُ إليك....

_ كيف هو (فارس)! قولي يا خالتي لي! لمَ لمْ يَزُرْني؟ هل يكرهني لأنّي كذبتُ عليه؟ لابدّ وأنّه يحتقرني بعدما رآني بتلك الحالة.... لن يحبنّي بعد الآن أبداً! أليس كذلك؟

وذَرَفَتِ الدموع دون أن تتحرك من مكانها فوضعتُ يدي فوق شعرها...

_ حبيبتي! انني أم... ام فارس...وسأقول لك بمَ يشعر وكيف يحسّ بكلّ صدق, فكوني على يقينٍ أنّ (فارس) يكنّ لك أطيبَ المشاعر وأنّه قلقٌ عليكِ للغاية, لكنّه لا يستطيع أن يدخل غرفتك, ولا يستطيع أن يقتحم خصوصيتك.... لا يمكنه ذلك, لكنّه سيُجنُّ من القلق عليكِ وقلبي كأمٍ سوف ينفجر من حزني عليه!! وأنا لا أُريد أن اضغط عليكِ... لكِ مطلق الحرية يا صغيرتي, إن شئتِ تكلَّمتِ أو لا! لكنني في أيّ وقتٍ سأستمتع وكلّي آذانٌ صاغيةٌ لك يا عزيزتي....

_ خالة فاتن! هل أنا الآن سأدخل إلى النار؟ هل أنا سيئة؟

_ لا يا حبيبتي! أنتِ لستِ بسيئةٍ أبداً ولم تكوني تعلمين بما ينويهِ ذلك الفتى ومايضمره من نيّةٍ سوء....

_ لكنني رافقته دون علمكم! كان لابدّ لي أن أقول لفارس وأشورهُ!.... كم كنتُ حمقاء!

_ روزالي! أخبريني! هل آذاك! أريدُ أن أعرف لو سمحتِ لي.... هلّا أخبرتني!

_ لا أعرف! لقد حاول أن يقبّلني أول شيء بأرادتي, لكنني رفضتُ ذلك فدفعني إلى السرير وشدّ يديّ إلى عمودَيْه, أخذ يقبلني رغماً عني و.....(أخذت تبكي).....

_ روزالي... وماذا بعد يا صغيرتي! أرجوكِ.... أريد أن أفهم.... هل تسمحين لي في سؤالك أسئلةً دقيقة.... أرجوك, ولابدّ لكِ من أن تجيبيني بصدق وبدون مراوغة....

_ أقسم لك أني سأخبرك بكل شيء تسألين عنه بصدق, لأني أريدُ أن أفهم ماذا حدث لي! أنا خائفة جداً يا خالتي.... أنا خائفة جداً... أرجوك....

_ كفى يا حبيبتي..... إهدئي أيتها الصغيرة الجميلة.... أنا أحبك....

أحذتُ أُهدهدها وأنا أُخلّل أصابعي بين خصلات شعرها الأشقر الناعم بينما بدأتُ بالأستفسار عن أُمورٍ دقيقةٍ عما جرى لها مع ذلك الفتى فعلمتُ يقيناً أنّها مازالت فتاةً (بكراً) وأنها لم تتعرض لأيَّ أذىً سوى (قبلاته) القذرة.... ولم أحتمل وأنا أهبط السلم بعد أن أطعمت (روزالي) بيديّ وزرعتُ الابتسامة على وجهها وأنا أطمئنها أنها بخير وأنّ كل شيء كان على ما يرام وأنّه لم يتمكن من نيل مأربه الشيطاني... أقول أني لم أحتمل إلاّ الذهاب الى غرفةٍ (كان أمير يباتُ فيها من قبل, والآن كان هاني قد نام فيها) فطرقتُ الباب نقراً خفيفاً وقلتُ في نفسي: (إن كان صاحياً ولم ينم فسينفتح) وبالفعل فقد تم فتح الباب وظهر (هاني) خلفه متفاجئاً....

_ ماذا هناك يا (فاتن)! (وأخذ ينظر إليّ متفرساً في وجهي)....

ولمّا رأى تباشير البشارة على محيّايَ تهلَّلَتْ أساريرهُ وفرح.....

_ إذاً! لم يحصل لأبنتي شيء ولم يُصبها أذى!

_ نعم! نعم يا هاني إنها بخير, لكنها مصدومةٌ فقط!

_ هل أنتِ متأكدةٌ! قولي لي فوراً!

_ نعم! أنا على يقين يا هاني وإلاّ لما جئتك في هذه الساعة! كم هي بريئة ساذجة...إنها لاتعرف شيئا ولا تحكي عن هذا الأمر لأي فتاة لأنها لاتملك صديقة مقربة كما قالت لي..

_ فاتن! كيف أُجازيك! ياالهي! سأسجُدُ شكراً لله!

رحماك يارب! يعلم الله وحده أنني لم أؤذِ أية فتاة ما في حياتي, ولذلك رحمني ولطف بي... شكراً لكِ يا فاتن!!

عند ذاك, وجدتُ فارساً واجماً وهو يقف أمامي وأنا أتحدث مع عمّه (هاني) فارتبكتُ كثيراً وظننتُ أنّه سوف يظنّ شيئاً آخر بوالدته –فكيف لها أن تقف في تلك الساعةِ عند عتبة غرفةٍ ينام فيها عمه (الأعزب)؟!- لكنني وجدته يرتجف وهو يتمتم....

_ هل! هل ماسمعتُهُ صحيح يا أماه! هل روزالي قد قصّت عليك ماحدث, وهل هي بخير! أرجوك! أنا .... فقط....

_ حبيبي (فارس)!

واحتضنته بقوة فبكى فوق صدري بينما أخذ (هاني) يذرف الدموع وهو يقف عند الباب ولمّا رفع فارس رأسه لينظر الى عمه ثم إليّ, هتف به عمّه بصوت حانٍ....

_ أنا سعيدٌ جداً لأنك رعيتَ روزالي دوماً ولاتزال ترعاها, وتخاف عليها كلّ هذا القدر, كأبٍ حنون... كأخٍ أكبر... (فأكملت أنا) الكلام هاتفةً كي أبعد الأحراج عن ولدي....

_ أو كفؤاد, جديد وُلدَ هنا! أليس كذلك!

شعرتُ أنّ (فارساً) قد امتقع فجأةً وهو يشعر بالدهشة لكلماتي تلك, لكنّ وجهه توّرد بسرعةٍ والتمعت عيناه بسعادةٍ ...

_ أتمنى لو كنتُ (فؤاداً) ثانياً لـ(روزالي) ويشرفني هذا... يشرفني جداً ويسعد قلبي يا (أماه) .... ويا (عماه)!

ابتسم (هاني) بسعادة وغمز لي بعينه اليمين كما كان يفعل دوماً لمّا كنا شباناً فضحكتُ من كل قلبي وضربتُ (فارساً) على صدره بشكل خفيف بيدي وأنا أمازحه قائلة....

_ أيها الشقي! أوَ تظنّ أني لا أعلم مايكنّ قلبك الصغير هذا!

_ أمـــــاه! لا تحرجيني!

_ وهل أجد أفضل من (فارس) في الدنيا.... أنا أتمنى أن أعيش لأرى هذا اليوم!

_ ولماذا تتمنى يا (هاني)! منذ الغد.... لو قبلت.... أنا الآن أخطبها منك... أمام (فارس) وبدلاً عنه.... وأنا أعلم يقيناً أنّ (فؤاد) سيطير فرحاً لو حدث هذا الأمر.... دعونا نفرح قليلاً... أُريدُ مناسبةً سعيدةً في عائلتنا! ماذا تنتظران؟ قولا لي رأيكما الآن!

وتبادل (هاني) و(فارس) نظرات الدهشة ثم هتف بي فارس...

_ أماه! لاتزال (روزالي) صغيرة! كيف سأخطبها!!

_ هل تحبها أم لا!

_ أمـــاه! لا تحرجيني! أرجوك!

ضحكتُ عليه ثم قلتُ بسعادة بينما (هاني) يبتسم فرحاً....

_ أيها الشقي! قبل قليل كنت تريد مني أن أقول لك فقط كيف هي! أوَ لاتدري عمّن تسألني بادئ ذي بدء....

_ عمّن يا أماه! قولي لي....

_ عنك أنت! هل هو بخير! هل هو غاضبٌ مني....

_ لكنها صغيرةٌ يا أماه! ولا تعرف معنى الخطوبة!

_ دعنا نحافظ عليها يا صغيري.... إنَّها مجرد خطبة وليس زواجاً ولاعقد قران.... مجرد اقتران أسمها بأسمك, أي أنّ العائلة ستعلم يقيناً أنها لك وأنت لها لمّا تكبر هي....

_ لربما لا توافق يا أمـــاه! انها صغيرة! أنا حقاً لا أصدق أنها ستوافق على الزواج مني! أنا !! (وروزالي)!!؟

_ نعم يا فارس أنت و (روزالي)!! ما بها (روزالي)!!

هتف صوتٌ فجأةً من خلفنا, فدهشنا كلنا ونحن نلتفتْ لنجد (روزالي) الجميلة ذات الأربعة عشر ربيعاً واقفةً وهي متلفعةٌ بشال أزرق زاد جمالها جمالاً وهو يلتفُّ حول جسدها الغضّ المتناسق ويعكس بتموجاته اللونية الوانا زرقاء على شعرها الأشقر الطويل, ويلتقي مع جمال عينيها الزرقاوين, ظلّ (فارس) واجماً وهو يقف أمام تلك الأيقونة المجسدّة من الجمال البريء في أول ظهوره, كأنها زهرةٌ قد خرجت للتو من بوتقتها, أو وردةٌ حمراء قد تفتحت لتوها.... لم أكنْ أستطيع لوم ولدي على حبهّا, فعلاوةً على كونه قد ربّاها منذ صغرها, إلاّ أنّ جمالها الذي بدأ يبرز للوجود, كان جلياً للعيان, وكان لابدّ وأن يُحافظ عليه ويُصان....وخصوصاً في مجتمعٍ كذاك الذي كنّا نعيش فيه.... بقينا صامتين لدقائق ثقيلة الوطئ عندما نطقت (روزالي)...

_ لقد فعلتُ ذلك لأريك أنني محبوبة, وأنّ هنالك من يهتمون لي, كـــ(فتاة) وليس كـــ(ابنةٍ) فقط! كانتْ ردّة فعلٍ حمقاء مني بعد أن شاهدتك تخرج مع تلك الفتاة في المطعم, وجعلتني أرافقك كمجرد دميةٍ ظلّتْ هي تسألك عني, وأنت تقول لها أنني بمثابةِ ابنةٍ لك! أنتَ تعلم أنني لستُ ابنتك وأنّ هذا هو (أبي)... وأنني.... وأنني... (وشهقت بذعر وهي تحاول ألتقاط أنفاسها)....

_ وأنني... رغم كل شيء.... ومع أنني صغيرةٌ جداً بالنسبة لك.... حقا! أنا صغيرةٌ عليك! أليس كذلك....

_ روزالي! صغيرتي الغالية! أنا... أنا أعتذر منكِ....

_ كلا! كلا! لا يقتربنّ أحدٌ مني.... أنا... أنا...أعتذر منك يا فارس وأريدك أن تسامحني يا (بابا).... سامحوني لأني لم أتصرف بحكمة ولم أقل لكم أين ذهبتُ وتصرفتُ بطيشٍ وحمق.... كنتُ.... كنتُ أسمع من صديقاتي عن حفلة لكل فتاةٍ تبلغ الرابعة عشر, لكنني كنتُ أخشى حضورها, لأنّ الفتياتِ كنّ يتحدثن فيها عن أمور مثيرةٍ للريبة, وأن هنالك شباناً يراقصوهنّ وأنّ هنالك نبيذاً وسُكراً.... ولذلك لم أكنْ لأذهب لأيٍّ من تلك الحفلات مهما كان... لكنهنّ دوماً ماكنّ يسخرنَ مني, ويقلنَ أنني (معقدة)! نعم... أنا (معقدة) بينهنّ لأنني لاأرافق الفتيان ولا أواعد الشباب! ولاأريد لأحدٍ أن يلمسني... لأنني تربيتُ هنا على هذا الشيء, فهل أنا على صواب!!!

_ روزالي حبيبتي! طبعاً أنتِ على صواب !

هتفتُ بها لمّا مدّ (هاني) ذراعيه وهو يهتف بها قليلاً...

_ أنا فخورٌ بكِ يا صغيرتي! تعال إليّ....

فهرعت (روزالي) الى أحضان والدها الذي أخذ يقبلّها ويبكي وتبادله القبلات والدموع... كم كان منظرهما مؤثر وبكينا أنا وفارس ونحن ننظر أليهما بسعادة فائقة....

_ حبيبتي (روزالي)! أنتِ على صواب... أنتِ فتاةٌ ملتزمة بالصواب وقد ربيتك أنا و(فاتن) وفارس على ذلك الصواب.... هذا هو الصواب لا ما تفعله أولئك الفتيات, صدقيني فهنّ مجرد ساقطات ان صح لي التعبير...ومن الغد, سأقوم بنقلك الى مدرسةٍ أخرى لو أحببتِ.... مدرسةٍ للمغتربين المسلمين... سوف تجدين فتياتٍ ملتزماتٍ هناك, ولن تجدي نفسك (معقدة) حينذاك, بلّ سوف ينظرنَ اليك على أنك في (قمّة التحرر)!! لاتبالي بأولئك أبداً! أنتِ على صواب...

_ روزالي! ماذا أردتِ أن تخبريني قبل قليل!

هتف (فارس) فرفعت روزالي رأسها من فوق صدر والدها....

_ أردتُ أن أُخبرك أني لن أجد (فارساً) في الدنيا كلها أفضل من (فارس) وأنني موافقة على خطبتك....

الفصل الواحد والثلاثون

_ هل توافق يا (هاني) على خطبةِ (فارس) لابنتك!! هيا تكلم.... وإن لم توافق حطمتُ جمجمتك!

صرّح (فؤاد) ونحن جالسون عند مائدة الفطور في صباح اليوم التالي, فاحمرتّ وجنتا روزالي خجلاً وأطرق (فارس) بعينيه حياءاً بينما انفجر (هاني) و(فؤاد) بالضحك وضحكتُ أنا معهما لمّا كنتُ أصبّ لهما الشاي..... لاحتْ منّي التفاتةٌ الى نظرات ولدي لروزالي التي كانت تبادله نظرات الحبّ والاعجاب فتذكرتُ قصتّي مع (فؤاد) وخفق قلبي سعادةً لسعادة ولدي الذي اختار رفيقة حياته المستقبلية فشعرتُ بالطمأنينة لأجله.... ف(روزالي) ابنتي, رغم كلّ شيء, وقد ربيتها في كنف أُسرتي ولن أجد من تعرف ولدي أكثرمنها وتحبّه وتصونه وترعاه مثلما رعاها, أفضل منها.... لقد قررنا أنا وفؤاد لمّا ذهبتُ الى فراشي بعدما ذهبت روزالي لتنام الى جوار والدها تلك الليلة وعاد (فارس) الى غرفته.... أقول... لقد حكيتُ لفؤاد ماجرى فتهللّت اساريره وضحك بسعادة, وشعرتُ أنّه قد أحسّ وكأنه قد أكمل دورَهُ في الحياة وأطمأنّ على مصير ولده (فارس) باختياره لـــ(روزالي)... فرغم أنّ اهتمامه بها كان جلياً للكل, لكننا لم نكن متأكدين من (مشاعرها) تجاهه, ولا حتى من مشاعره هو- أنّه يريد وبكل قناعةٍ أن تكون زوجاً له في المستقبل القريب.... وذلك ما زادني سعادةً ورضا.... فـــ(فرح) ابنتي قد اقترنت بابن عمها- أخي روزالي- وها أنذي الآن, أسمع وأرى خبر خطبة (روزالي) التي بدت كأميرةٍ من أميرات القصص الخيالية وهي تهبط السلم بثوبها الأزرق اللامع وعقدها اللؤلؤي الأبيض.... كان حفل خطوبةٍ أقمته لهما وجاء (أمير) مع توأميّ ليحضروه فتكتمل سعادة أسرتنا بذلك.... وجلس الأخوة الثلاثة يتسامرون بينما جلس (فارس) الى جوار (روزالي) بعد أن ألبسها خاتم الخطوبة وصفق الجميع وتبادلوا التهاني والأحضان, وأصبحتْ (روزالي) رسمياً وبدون مقدمات (ابنتي) مرتين, مرةً بالتبنيّ لما ربيتها ومرةً أخرى باقتران اسمها بأسم ولدي الحبيب.... جلست (فرح) مع زوجها ينظران بسعادة الى (فارس) وروزالي بينما تلعب ابنتهما الصغيرة بيننا.... أمّا التوأم فقد جلسا عن يميني وشمالي, لنتحدث عما شاهداه ومرّا به مع والدهما (أمير) في فترة غيابهما عني.....

كنتُ بين الفينة والاخرى أختلس النظر إلى (فارس) وهو يتحدث مع (روزالي) لأجدَ السعادة تشع من عينيه فأشعر بالأكتفاء والرضا... صحيحٌ أنّ روزالي كانت لاتزال صغيرةً... لكنْ خطبتها من ولدي حَسَمَتْ كل المواضيع, كي لانصاب بمثل ذلك الحادث الأليم مرةً أخرى ولكي توضع جميع النقاط على الحروف.... فكلاهما مولعان ببعضهما و لا يفعلان شيئاً إلا

سويةً, حتى أنّ (فارس) قد رافقها في موعد له مع (فتاةٍ) ما, كما قصّت روزالي الأمر علينا في تلك الليلة .... أي أنه لم يكن يترك (روزالي) حتى في مواعيده (الشخصية)!؟ فلماذا إذاً لانجعلهما يرتبطان بصيغةٍ رسمية ما داما يحبّان بعضهما وينسجمان مع بعض ! ! ولقد كانَ لذهابها معه في مواعيده تلك, بالغ الأثر على تمّردها وظهور تعلقها بولدي (فارس) لأنها عرفتْ يقيناً أنها تغار عليه من كل فتاةٍ سواها, ورغم صغر سنها, ورغم أنها كانت موضع ترحيب صديقات (فارس), اللاتي كان يتعرف فقط عليهنّ (ولا يواعدهنّ سراً أبداً),لأنهنّ اعتبرنها

_ ابنةً متبناة بالنسبة لـــ(فارس)- إلاّ أنّ ذلك كلّه دفع بها إلى السير بالاتجاه المعاكس لتثبت لولدي أنّها لم تعد صغيرةً وأنها تستطيع أن تكون محبوبةً (من الجنس الآخر), لكنّ ذلك عاد عليها سلباً, وحدث ماحدث مع ذلك الفتى وبلطف الله لم يمسّها سوء بالغ, يظلّ أثره يطاردها عمراً كاملاً....

لقد قصّت لي (روزالي) في إحدى المرات ونحن جالستان في المطبخ نصنع (cupcakes) الفطائر الصغيرة المحلاة معاً, لمّا سألتُها كيف بدأتْ تشعر أنّها متعلقةٌ بفارس وذلك بعد مضي عام كامل من خطبتها له, إذ صرنا شبه صديقتين أنا و(إياها) ولم تعد تعاملني (روزالي) بتلك العدائية وبذلك الجفاء تصدني عن التدخل في حياتها, بل على العكس, فمنذ تلك الليلة التي طمأنتها فيها أنها بخير وأن الله قد حفظها من أن تمُسّ بسوء أو تدنسّ عذوريتها وطهارتها, فتهللت أساريرها وانشرحت, وأخذت تحكي لي مايمرّ معها وتشورني في كثيرٍ من أمور حياتها...لقد ذهب (فارس) مرةً الى مدرستها لأصطحابها بعد خطبتهما بأيامٍ قليلة, إذ قصّت عليّ روزالي فيما بعد ردّة فعل الفتيات- زميلاتها- وكيف أنهنّ انبهرن بولدي وحسدنها على ذلك (العريس) الرائع!- وبالفعل فقد أيدت كلام زميلاتها وقلت لـــ (روزالي) أنّ ولدي تتمناه الفتيات حقاً, ليس لأنّه ولدي أنا فحسب, بل لأنّه نسخةٌ من عمها (فؤاد) ...فضحكت (روزالي) بسعادة, وبادلتها ذلك الشعور..... لقد أحسستُ أنها قد بدأت تزداد ثقةً بذاتها بعدما أثبتت لجميع الفتيات أنها ليست بحاجةٍ الى تعدد علاقات وصداقات تؤدي بها إلى ترك درب الصلاح وأن تصبح سلعةً رخيصةً لأيّ شاب تُعجب به ويعجب بها, بل على العكس, فلقد أثبتت أنها جوهرةٌ ثمينه وضعت في يد صائغ يعرف ثمنها وقيمتها جيداً....

أقول, أنّي سألتها, متى بدأت تشعر بتعلقها بولدي وهي لا زالت صغيرة, فابتسمت بدلال وخجلت مني متوردة الوجنتين ثم رفعت عينيها بعد لأيٍ لتقول لي وهي تهمس بصوتٍ رفيع....

_ أنا حقاً بدأت أغار عليه يوم أخذني الى ذلك المطعم لأرى فتاةً تتقدم نحونا وتصافحه وتجلس قبالتنا لتقول لي : (آه, كم هذه الطفلة رائعة! إنّها من ربيتها, أليس كذلك!)...

عندها وددتُ لو كنتُ أستطيع صفعها على وجهها , ورأيتُ الأهتمام في عيني (فارس) لها, فشعرتُ بألم شديد وحزن.....

عزوت الأمر في البداية إلى كونه بمثابةِ والدٍ لي, ولكنْ بعد تكرار لقاءاتِهِ مع تلك الفتاة. عرفتُ أنّي أكنّ له المشاعر.... أردته أن يلتفت لي ويشعر بي, ولم تكن هنالك من طريقةٍ سوى أن أخرج برفقة الشباب, خرجتُ مرتين مع صبيين من عمري وقلتُ لهُ أنّي في موعد في مطعم فرعي لشرب القهوة مع الشاب الأول, فلم يعارض, لكنّ القلق بدا على محياه.... وجدتُهُ جالساً على مائدةِ قرب مائدتنا فضحكتُ في سرّي وعرفتُ أنّه يخاف عليّ, لكنني أعترضتُ عليه في المرة الثانية عندما قابلتُ الشاب الثاني, أذ وجدتُ ذلك الصبي أحمقاً (بكل معنى الكلمة!)- وضحكتْ روزالي- حسنٌ أما الشاب الثاني, فقد حاول الامساك بيدي في كازينو صغير أخبرتُ (فارسا) عنه, فما وجد حينذاك إلاّ قبضةً تلكم وجهه وقد كاد صاحب الكازينو أن يتصل بالشرطة وكاد (فارس) أن يُحتَجَز لو لا أننا خرجنا بسرعة وبقيتُ ألومه وأعترض على تدخله السافر في حياتي فاعتذر لي وقال أنّه لن يكررها.... ولم أكن أنوي الخروج مع شابٍ بعدها, لكنْ هاتفاً من (فتاة) لم أعلم أهي نفسها تلك التي كانت تقابله دوماً في المطعم ليتعرفا على بعضهما البعض, أم أنّها فتاةٌ أخرى, ذلك مادفعني الى الخروج دون أخباره انتقاماً لكرامتي المغدورة, فلقد شعرتُ بألم شديد في قلبي ياخالة (فاتن), هل تفهمين قصدي!!؟

_ ومن يفهمك أكثر مني يا حبيبتي (روزالي)! لقد مررتُ أنا بمثل حالتك كثيراً مع عمك (فؤاد) وكم بكيته فوق وسادتي وأنا أشعر أنني لاشيء بالنسبة له!!!

الفصل الثاني والثلاثون

كلّمتُ (فؤاداً) في أمر ولدي (فارس) و(روزالي) بعد مرور عامٍ على خطبتهما ودخولهما في العام الثاني, أي دخول (روزالي) عامها السادس عشر, إذ أنني شعرتُ أنّ عليّ الحيلولة دون إطالة مدّة خطبتهما أكثر من ذلك, وخاصةً وأنا أرى ولدي يكبر في العمر, ولم أكنْ أُريدُ له الأستمرار في أيِّ صداقةٍ مع أيةً فتاةً قبل روزالي أو بعدها لأنني لم أُرد لــ (روزالي) أن

تعاني مثلما عانيتُ مع (فؤاد) ولم أرغب لولدي أن يتعرف بفتيات غير خطيبته.... صحيحٌ أنّه يكبرها كثيراً, أكثر مما كبرني (فؤاد), وصحيح أنها كانت لاتزال صغيرةً على الزواج, لكنني قررتُ أنْ نعمل عقد قرانٍ شرعي لها, حتى وإن لم يكن هنالك عقد محكمة حتى بلوغها الثامنة عشرة من العمر.... لأنّ ذلك كان كفيلاً بتحرير ولدي من أية أرتباطات أخرى وأيّ شيءٍ يُبعدُهُ عن منْ أختارها قلبه وعقله في آنٍ معاً.... كلّمتُ (فؤادا) وأنا محتارةٌ في أمر ولدي (فارس), إذ سألتُهُ إن كان يعرف عن وجود (علاقات) في حياة وَلَدِهِ قبل (روزالي) أم لا ؟؟؟ نظر فؤاد إليَّ بدهشةٍ وهو لا يستطيع النظر إليَّ لكنني شعرتُ بنظراته وكأنها تخترق روحي عندما مدّ يديه ليمسك ذراعيّ ويقربنّي منه ليقول بصوتٍ مرتعب...

_ ماذا حصل مع ابنة أخي! قولي لي! هل آذاها (فارس) وتركها, أم خانها مع فتاةٍ أُخرى! ماذا عرفتِ!

_ كلا, كلا يا فؤاد! لا هذا ولا ذاك! أنا التي أسألك بحكم كونك أباه! هل تعرف شيئاً عن علاقاته السابقة؟ هل كانت لديه معرفةٌ بفتيات أُخر غير (روزالي)!

_ ولمَ هذا السؤال يا فاتن! مالكِ وشأنه! إن كانت لديه فأنا لم ولنْ أستطيع منعه! هو رجل ويعرف كيف يتصرف! أهم شيء أن لايكون قد اتخذ طريقاً خاطئاً!

_ وكيف لي أن أعرف ماذا تقصد بـــ(الطريق الخاطيء)؟

أنا قصدتُ, كونك أباه, ألم تجلس لتحدثه يوماً عن هذه الأمور؟ وكيف له أن يعيش حياته مع (الجنس الآخر)؟ وهل لديه علاقاتٌ كثيرة, أم أنه مضى على تعاليم الدين وماعلّمتُهُ له أنا منذ صغره؟؟

وهنا وجدتُ (فؤاداً) وقد انفجر من الضحك ليقول لي بصوت واثق وهو يمسك ذراعيَّ من الساعدين (كلتيهما)...

_ حسنٌ! يا حبيبتي.... لاتبالي لشيء من ذلك.... أنا لمْ ولن اسأل ولدي عن حياته الشخصية, فأنا لا أستطيع فعل ذلك, ولستُ أدري عن صديقاته شيئاً! لستُ أدري أن كانت له صديقةٌ ما أم لا.... لكني أعلم يقيناً أنّه دوماً ما سألني عن علاقاتي السابقة قبل الزواج منك!

_ وبمَ كنتَ تجيبه؟؟؟!!

_ كنتُ أقول له أنني تندمتُ على كل لحظةٍ لم أقضها مع أعز وأحَبّ الناس الى القلب..... وأنني نادمٌ على كلِّ صداقةٍ خارج اطار الزواج الذي شرعه الله لنا سنَّةً للحياة.... نعم... فتلك العلاقات المشبوهه سواء كانت تحت ضوابط وضعناها لكي نبرر لأنفسنا أنها مشروعه, أو أنها كانت تحت مسميات قانونية معينة, فهي كلها, لايمكن أن تساوي لحظةً من لحظات حياتي معك ياغاليتي, لا أقول لك ذلك مجاملةً أو غزلاً, كلا! ذلك هو الواقع, ولذلك نصحته بالزواج من فتاةٍ يختارها قلبه وعقله, مبكراً قدر إمكانه....

_ لقد كبر ولدنا يا (فؤاد)! لقد أصبح واجباً حقاً له أن يتزوج الآن! في عمره كما أذكر, كنّا زوجين وقد رزقنا بـــ(فروحة)! أليس كذلك!

_ لكنّ (روزالي) لاتزال صغيرةً يا (فاتن)!

هتف (فؤاد) وعلامات الجديه مرتسمةٌ على وجهه....

وهنا قلت بصوت عميق...

_إنّه يكبرها كثيراً, أنا أعلم هذا, لكنها هي من أحبّها قلبه ومن أختارها عقله لتكون له زوجةً في المستقبل, وأنا لا أريد له أن يرى أو يعرف سواها! ولا أريدُ له أن يذهب في أماكن مشبوهةٍ كما ذكرتَ أنت عن علاقات لا نعرف من وكيف ولا أريد أن أعرف شيئاً عن ذلك عن ولدي... أريد له حياةً سليمة أرى فيها أولاده (أحفادي) لنعيش بسعادةٍ واستقرار معهم....

ثم أنت لا تستطيع تخيل ألمي عليه وأنا أراهُ ينظر إليها بحبٍّ كبير ويقضي الساعات يتحدث وإياها, ثم أشعر أنّه لا يستطيع أن يعيش حياةً ملؤها الحبّ معها, بسبب عدم زواجهما, ولأنها صغيرةٌ في السن!

_ لابأس يا حبيبتي! دعيهما, فهما يعرفان طريق سعادتهما دعينا لا نتدخل في قراراتهما!

_ (فؤاد)!! أنا أتكلم بجدية! أرى الحزن في عيني ولدي, والشوق واللوعة تجاه (روزالي), كيف أتحدث معك أكثر إيضاحاً مما تكلمت به! أرجوك! يجب أن يكون هنالك زواج يجمعهما كي أحافظ على ولدي من كل فتاةٍ أخرى سوى ابنتنا (روزالي) التي ربيناها معاً ونعرف أخلاقها ونعرف كل شيء عنها كما تعرف هي عنّا كل شيء! أنا جادة! فؤاد!

قلتُ بصوتٍ جدّي هو أقرب الى الصراخ منه الى الكلام, فقطّب (فؤاد) مابين حاجبيه وسكت عن الكلام ولم يجب, بينما شعرتُ أنا بثورةٍ تتفجر في أعماقي, وكأن هنالك بركاناً يكاد أن ينفجر... فتأخرُ(فارس) في بعض الليالي ومجيئُهُ متعباً مرهقاً وعدم أعطائي جواباً عن المكان الذي كان فيه وتكرار تلك الحالة, جعلني في قلق مستمر.... كنتُ أشعر أنّه يعيش تناقضاً فهو يحبّ (روزالي) للغاية وهي تحبه كذلك, لكنه غير قادر على أن يعيش معها كما يحبّ قلبه, ولا أن يقترب منها أكثر من صديق وابن عم!!!! فأيّ عذاب كان يعيشه ولدي, دون أن يتكلم, لأنه طبعاً كان كتوماً مثل والده! والولد سرّ أبيه.... وحتى لو حاولتُ أقتحام خصوصياته, فهو لن يقول لي أيّ شيء وسيضحك في وجهي ويسخر على قلقي... ففي مجتمع منفتح مثل المجتمع الأميركي الذي عشنا فيه, كان قلق مثل قلقي مثار سخريه وأمراً غريباً حقاً ولكنني وبحكم تربيتي الدينية المتأصلة في أعماقي منذ طفولتي في بلدي في (العراق) وما علمني والدي عليه و ما ربتني أمي عليه, جعلني ذلك دوماً ما أخاف من تجاوز أيّ حدود خارج إطار الزواج أو الدين, فأنا حقاً لم أكن أجرؤ على النظر الى عيني (فؤاد) لمّا كنّا شباباً, خوفاً وحياءاً وأيضاً بسبب تمسكي بما تعلمته في الدين.... فقد كنتُ أخشى دوماً من غضب الله عليّ وكذلك خشيتُ على عائلتي وعلى (فارس), لأنني قبل خطبته لروزالي لم أكن أعرف عن خياراته المستقبلية ومنيتُ نفسي دوماً أنّه ربما سوف يتعرف على فتاةٍ ما في محيطه أو دوائر معارفه, تجذبه فيقرر الزواج منها بعد أن يتعرف عليها ويحاورها ويعرف عقلها ومنطقها وطباعها ! ذلك ما كنتُ أُمنّي نفسي به.... أما أن تكون حبيبته ومن اختارها قلبه نصبَ عينيه, دون أن يتمكن من أن يعيش معها أكثر من (ابن عم فقط) فذلك أمرٌ لم يعد السكوت عنه مجدياً وخصوصاً وهما قد دخلا في عامهما الثاني من الخطوبة!! قرّرتُ أن أكلّم ولدي بمفردنا وأن أقتحم خلوته وخصوصيته رغم صعوبة ذلك الأمـــر عليّ.... قررتُ أن أفهم بعضاً مما يفكر فيه و ما ينويه وما يريد فعله في المستقبل القريب وماذا قرر....

_ حسنٌ!! ماذا قررت بالنسبة لعلاقتك مع روزالي!

أعلنتُ فجأةً وأنا أدخل الى غرفته بعد أن طرقتُ الباب ودخلتُ مستأذنة فاستغرب فارس فعلي ذلك وأذِن لي, جلس على فراشه بعد أن كان مضطجعاً وعدّل هندامه, وكان يرتدي قميصاً أبيض فضفاضاً فذكّرني بوالده.... سرواله الأسود كان ملتصقاً بساقيه الطويلتين وقد تدلتا فوق فراشه حتى أرضية الغرفة

_ ماذا هناك يا أماه! هل حدث شيء!

_ كلا! لم يحدث شيء! لكنني أسألك!

قلت ذلك وأنا أسحب كرسياً لأجلس قبالة ولدي وأضع رأسي بين كفّي بينما ذراعي مستندان على ساعدي الكرسي....

_ أمـــاه! أنتِ متفرغة كلياً لي! ما هذا الصباح! اهلا بك ياغالية...

هتف فارس محتجاً, ثم ضحك وضحكتُ معهُ....

_ كلا يا حبيبي! يجب أن نضع النقاط على الحروف.... أنا أمك وأشعر بمعاناتك! أو لستَ تتألم وهي قربك, وهي بهذا الجمال, دون أن تكون زوجتك فعلاً!!

_ أماه! ماذا أقول! للمرة الأولى في حياتي! أنتِ....

أشحتُ بوجهي خجلاً لمّا رأيت احمرار وجهه لأنه ارتبك وأُحرج مني, لكنني عدتُ إلى جدّيتي وحزمي لأقول له بصوت واثقٍ وقلبي يدقّ سريعاً بسبب خجلي منه....

_ حبيبي! أنا أمك وأكثر شخص يحبّك في هذا الكون ويخاف على مصلحتك... أشعر بما لا تقوله وأحسّ بك يا حبيبي... هنالك حلٌّ في الدين! هنالك زواج شرعي.... لا يجب عليك الانتظار لسنتين أُخريين ! ذلك عذاب!

_ أماه! رباه! ماذا أقول!

أخفى وجهه عني بيديه وهو يشهق مذعوراً ثم نظر إليّ....

_ أنا وروزالي بخير يا أماه! لا أريد أن أضغط عليها الآن فهي لاتزال صغيرةً يا أماه! أنا أحبّها كثيراً أكثر من نفسي ولا أريد أن أؤثر نفسي عليها, عليها أن تنضج أكثر لتقرر فيما لو أرادت الأستمرار معي أم تركي.... أنا من ربيتها منذ صغرها.. أنا أبوها قبل أن أكون أي شيء آخر, ولذلك, لا تقلقي يا أماه! أنا .... لا أستطيع أن أفعل شيئاً متسرعاً ثم بعد سنوات ولمّا تكبر هي, ستنظر الى نفسها وتقول, ماذا لو كان هنالك لي خيارٌ آخر.... إنني أُعطيها حريتها في الخيار ولكنني لا أترك فراغاً عاطفياً في قلبها كونها مراهقة صغيره, وأنا لا أريد أن أخوض هذا الأمر معك, لو سمحتِ يا أماه! إنّه محرج حقاً!

شهق (فارس) بذعر ونفث الهواء من رئتيه عدّة مرات ليتنجنب الأحراج الذي بان على وجهه المُضَرَّج بالدماء....

_ حسنٌ ياولدي! أنا لا أريد أحراجك أكثر من هذا! لكنني أقول لك.... لو أحببت أن نقيم زواجاً لكما, فأنا تحت أمرك يا حبيبي.... هنالك حلٌ لكما وليس عليكَ أن تبقى قربها دون أن تكون قربها حقاً....

_ اماه!! شكراً لك! لقد فهمتُ قلقك عليّ...

نهض فارس ليضع يديه على كتفيّ فانفجرت بالبكاء...

_ ماذا حدث! أماه! أنا أعتذر منك...

_ كلا! كلا! أنا آسفة حقاً! كان ذلك صعباً عليّ للغاية! أعتذر منك عن تطفلي وتدخلي... لكنني...

_ أماه! كلا! لا تعتذري مني! أنا من أعتذر منكِ....

أمسك رأسي ليقبّلهُ واحتضنني بين ذراعيه, لمّا دَلَفتُ روزالي فجأةً إلى الغرفة وهي تهتف...

_ صباح الخير يا حبيبي, انهض قبل أن تتأخر! وتوقفتْ أمامنا واجمةً وهي تنظر إلينا بذهول....

_ ماذا هناك! هل حدث شيءٌ ما! هل عمي (فؤاد) بخير!

_ حبيبتي (روزالي)...

هتفتُ بها وأنا أكفكف دموعي بينما ابتعد (فارس) عني وهو يشعر بالاحراج أمام (روزالي) التي ظلّت واجمةً لا تلوي على شيء عندما نهضتُ أنا فجأةً لأعلن انصرافي وتركهما....

_ سأترككما الآن... أنا آسفة يا روزالي الحبيبة.... كنتُ أحكي لـ(فارس) أمراً قديماً أثار شجوني فبكيت..... لا تقلقي.... إنّه شيءٌ بيني وبينه, أليس كذلك يا فارس!

قلتُ وأنا أنظر في عينيه كي أتأكد أنّه لن يُخبرها بشيء....

_ أمـــــاه! طبعاً! حبيبتي! إذهبي لترتاحي وإن شئتِ دعي روزالي تحضّر الفطور اليوم.... أرتاحي أنتِ....

_ نعم يا خالة! يبدو أنك لستِ بخير....

_ كلا! كلا! اجلسي مع (فارس)..... أنا ذاهبة.....

وتركتها لأغلق الباب خلفي وأستند عليه متنفسةً الصعداء, بينما سمعتُ صوت (فارس) ينادي روزالي....

_ كيف حالك حبيبتي اليوم..... لا تقلقي, لم يحدث شيء.....

الفصل الثالث والثلاثون

كانت (روزالي) تغسل الصحون وأنا أطبخ قربها في المطبخ لمّا دلف فجأةً (أمير) وفاطمة و (فؤاد) الصغير خلفه, ليهرعوا نحوي, ولم أكن مصدقةً انهم سيقدمون دون سابقِ إنذار, وكان مجيئهم إنقاذاً لي من الضياع بعد ذلك الشدّ العصبي الذي مررتُ به.... تبادلت مع

ولدي وابنتي الأحضان وسلّمت على أمير الذي لم يحتمل إلاّ ضمّي بين ذراعيه وتقبيلي من رأسي وهو يهمس بصوته الحنون الدافيء, ليذكرني بتلك الأيام التي عشتها معه (كزوجة) وكان لي فيها نعم الزوج والحبيب, رغم_ أنّ قلبي ظل معلقاً دوماً بأخيه الأكبر_ إذ هتف بي هامساً....

_ أشتقتُ إليك يا بياض ثلجي! كيفَ أنتِ يا عزيزتي!

نظرتُ إليه بإمتنان.... هل هو ملاك من السماء يهبط فجأةً ويختفي؟ نظرتُ في عينيه السوداوين الحنونتين.... كم هو رائع أن تشعر أمرأة أنّ هنالك من يظلّ يحبّها ويهتم بها رغم كل شيء, حتى وإن لم تبادله نفس كمية المشاعر؟ حتى وإنْ مرّت السنوات والأعوام؟ فشعوره تجاهها لن يتغير مهما عَرَفَ من نساء الأرض كلهن .... ذلك هو (أمير) وذلك ما جعلني أكنّ له معزّةً خاصةً جداً في أعماق روحي, في لا وعيي سواءاً اعترفتُ بذلك أم لم أعترف....

بل لعله حب خفي أخذ يكبر في قلبي كلما عاملني فؤاد بجفاء ورماني من فوق شاهق بناياته...كلما رماني بقسوة دونما توقف...ازددت تعلقا بتلك الذكريات الجميلة التي جمعتني به بحبّ وأمان دون الخوف من هجره أو فراقه أو رميه لي كل حين بحجة أنه لم يعد نافعا!!

_ أيها العزيز الغالي! كيف حالك أنت!

قلتُ بسعادة وأنا أنظر الى وجهه الوسيم وشعره الأشقر بخصلاته الناعمة ينسدل فوق كتفيه كما اعتاد دوماً أن يتركه ينسدل (دون أيّة دهانات ولا كريمات وزيوت) صحيح أنه كان دوماً ما يعتني بهندامه ومظهره الخارجي لكنني عرفتُ عنه عدم حبه لتصفيف شعره وقضاء وقت طويل أمام المرآة, فهو يغتسل بنوع واحد من الشامبو ثم يترك شعره على طبيعته, كما يحبّ كل شيء أن يكون على طبيعته, مثله هو تماماً, دون تصنع.....دوما على طبيعته وسجيته..

_ كيف حالك! هل (فؤاد) بخير! أخبريني كل شيء عنك... عندما تفرغين.....

_ لمَ لمْ تخبرني بقدومك, لأصنع لك طبقك المفضل؟

قلتُ له بعتاب, فابتسم لي بأمتنان وكنتُ لا أزال بين ذراعيه وهو ينظر إليّ بحَنْوه المعتاد....

_ هل تظنين أنّ أي طعام من يديكِ سوف يفوتّه (أمير) النهم هذا؟ أبداً ومطلقاً, فكل ما تصنعين هو قمّةٌ في الروعة وسلمت يداك يا بياض ثلجي....

شعرتُ بالأحراج وتوردت وجنتاي فابتعدت عنه, لشعوري أنّ كلامه أصبح (شبه غزل).... وارتبكت.... وخصوصا وأنني كنت في جفاف عاطفي فظيع ليس له من وصف أو تشبيه...فحياتي مع فؤاد تحولت فجأة إلى صقيع ومع مرور الوقت وجدتها حياة خالية من اي مشاعر ...بل الأسوأ من ذلك ..نزق طباعه وعدم تحدثه الدائم معي وعدم مراعاته لمشاعري وصراخه لما أخطأ في شئ ما معه...كان قد تحول فجأة ولم أعرف أين هو فؤاد القديم من ذلك الشخص الناقم الصامت طوال الوقت والذي لايقبل أن اجالسه ولا أن أقول له شيئا ..لأنه كان في عالم ثانٍ وكأنه ليس معي أبدا رغم أنني اجلس قربه لكنه لم يعد يشعرني بقربه أبدا أبدا...وكأننا أصبحنا أغرابا....كنت أحاول دوما أن اكلمه فلما أجد إلا صدّه واعراضه وعدم جوابه أو تململه وضجره من الحديث معي وحينها التزم الصمت والوذ إلى الدموع وهكذا كنت في البداية ..ثم تعودت على ذلك فلم أعد حتى أبكي...وأصبح الأمر كله وكأنه شئ مكرر من تعامله الجاف معي حتى أعتدت الأمر ولم أعد اذهب للنوم بقربه حتى اتأكد من نومه لا لشئ إلا كي أكون بقربه خوفا عليه ان احتاجني في شئ...عدت إلى أمير من أحلام يقظتي وقلت له...

_ شكراً لك ياأمير! أنت دوماً ما ترفع معنوياتي!

هتف بي وهو يتعمد فتح غطاء قدري ليشّم رائحته وكي يُبعد الأحراج عني بحركةٍ سريعةٍ من حركاته الشبه مسرحية.....

_ أمممم.... يا لها من رائحةٍ شهية! أنا لا أجاملك!

_ عمي (أمير)! ألا أستحق أنا قبلةً منك ولا تحية!

هتفت (روزالي) من خلفه باحتجاج فضحكنا سويةً عندما هَرَعَتْ إليه ليضمّها بين ذراعيه ويقبّلا بعضهما.... إلتأم شمل أسرتي مجدداً بحضور (أمير) مع توأميّ الحبيبين اللذين أصبحا في التاسعة عشر تقريباً, فـ(روزالي) كانت تدخل عاماً جديداً مع حلول أعياد الميلاد كل عام, لأنها وُلِدتْ في الشتاء في عيد الميلاد, أمّا توأمي فقد ولدتهما في نهاية العام تقريباً في الشهر العاشر, وذلك ماكان له فرقٌ في حساب الفارق العمري بينهما وروزالي رغم أنهما يكبرانها بأعوامٍ ثلاث.... جلسنا سويةً نتناول الطعام ونحن نشعر بسعادةٍ عارمة.... كنتُ أنظر الى (روزالي) و (فارس) خفيةً بين الحين والآخر فأرى في ولدي (أباً) حنوناً ليس له رغبةٌ إلاّ في سعادة (ابنته), فهو لم يكن يحبّها فقط كفتاةٍ اختارها قلبه, بل هي ابنته التي حملها فوق ذراعيه ولطالما حكى لها القصص وهي صغيرة كل ليلة, ولطالما نامت في

أحضانه منذ الطفولة, لتنعم بحنان الأم والأب معاً, لأنها فقدت أمها منذ طفولتها ولأنها نُبِذت من قبل أُمها رغم أنها حيّةٌ ترزق! ففارس يكبر (روزالي) بواحد وعشرين عاماً, وليس ذلك أمراً هيناً ولا فارقاً قليلاً في العمر ولذا, ولمّا رأيته ينظر الى (روزالي) بحنان وهو يقدّم لها صحنها, شعرتُ أنّه لا يريد سوى أن تكبر لتختاره (هو) عن دراية ونضج.... حباً لها وكرامة..... أما موافقته على خطبته لها, فذلك لما حدث تلك الليلة لمّا كادت (روزالي) تصاب بعقدةٍ نفسية مدى حياتها لو لا أنّ عميّها تداركا الأمر ووصلا في الوقت المناسب مع (فارس)! نعم! لقد شعرتُ بالهدوء والسكينة وأنا أنظر الى ابتسامة (روزالي) لفارس عندما لاحتْ منها التفاتةٌ نحوي وكأنها قرأت مافي عينيّ فابتسمت لي بسعادة وقد كنتُ جالسةً بين أمير و (فؤاد على رأس الطاولة), فهو عن شمالي وأمير عن يميني يناولني الطعام الذي لا أستطيع الوصول إليه, وكان الجميع منشغلاً بالأكل وأصوات الملاعق والصحون كأنها موسيقى كتلك التي كان (فؤاد) و(أمير) يصطحباني لأستمع إليها معهما.... كم اشتقتُ الى حفلات الأوركسترا تلك التي كنا نذهب لها سويةً.... عينا حبيبي الغالي فقدتا الأبصار, فكنتُ أُناوله ما يريد وأُساعده إن احتاج شيئاً من طعام أو شراب..... نظرتُ الى توأميّ الجميلين, لم أشعر بالسعادة أكثر من تلك الليلة وتذكرتُ يوم بكيتُ في مخزن الفراش تحت سلّم منزل عمي- أو بالأحرى منزل جدي الذي غَصبَ عمي وقتها العيش فيه وأخذ حصة والدي ظلماً منه –وكنتُ حينها قد يئستُ من حياتي ولمّا كانت زوج عمّي تضربني وتعنّفني حينما يتعمد (حسام) كسر الصحون ليوقع الجريمة عليّ وفي عاتقي .... تذكرتُ أياماً وليالي سوداء كنتُ أحياها في طفولتي ولاأظنها ستزول, لكنّ نظرةً مني إلى تلك العائلة الرائعة وأنا بينهم , رغم عصبية (فؤاد) ورغم كلّ مافعله معي, ورغم أنّه اتهمنّي بخيانته مع أخيه مرةً ودفعني (مجبرةً) الى الطلاق منه لأتزوج من أخيه مرةً أخرى, ثم عنفنّي بالضرب والأعتداء مرةً ثالثة من شدّة غيرته عليّ, ورغم كلّ مامررتُ به ومامرّ على أسرتي من عواصف عاتية, لكن تلك الليلة, أشعرتني أنني قد قمتُ بدوري على أكمله, وأنّ سفينتي قد هدأت عواصفها أخيراً.... وأنها قد حطّت على مرسى جزيرة آمنة بعيداً عن الرياح العاتيات والأمواج المتلاطمة والزوابع وكلّ مايمكنه تحطيم تلك السفينة وهي في عباب البحر.....

الفصل الرابع والثلاثون

جاء (هاني) مع فرح وأبن عمها- زوجها- وحفيدته (ابنتهما) بعد انتهائهما من تناول طعام الغداء, تحمل الحلوى التي صنعتها بيديها لأجلي ولأجل قدوم أخويها التوأم, وكان وصولهما قبيل المغرب فصنعتُ الشاي لأقدمه مع معجنات ابنتي (الفاخرة), حيث جلس الأخوة ثلاثتهم يتسامرون وكم كنتُ أسعد لمّا يلتمّ شملهم فأجلس أتأملهم بسعادةٍ خفية كطفلةٍ وجدتْ لعبتها, بل بسعادةِ تلك الـــ(فاتن) التي جاءت من (العراق) يوماً ما مع خالتها ليحملها (فؤاد) بين ذراعيه الى الأعلى وليضحك (أمير) عليها لمّا قالت له أنَّهم ملائكةٌ وليسو بشراً بعدما أخذوا حقيبتها الصغيرة وعرضوا عليها المساعدة في ترتيب اغراضها في غرفة عمتهم المتوفاة....

كنتُ أنظر الى الشيب وقد خط خطوطه في شعر (هاني) الأشقر فأصبح أغلبه شيباً لغلبة اللون الابيض على لون الشقرة في شعره, لكنّه زادهُ وسامةً وبهاءاً ونضجاً وكنتُ دوماً أرى فيه أخي الذي غادرني.... أخي (فارس) الحبيب الذي لم أشبع من رؤيته وأنا صغيرة.... بقيتُ أتأمل ملامح (هاني) وهو يتفاعل مع أخويه بينما يتحادثون ويضحكون ثلاثتهم فلاحت منه نظرةٌ إليّ فانكسرت نظراتي خجلةً خلف قدح الشاي الذي كنتُ أرتشف منه وأنظر إلى وجه (هاني) العزيز.....

رفعتُ عينيّ مرةً اخرى فوجدته ينظر إليّ بسعادةٍ وامتنان وكأنّه فهم نظراتي, وعرف أنني سعيدةٌ بوجوده بيننا.... أومأ بقدحه ورأسه وكأنه يشكرني بنظراته الخضراء تلك... أمّا (أمير) فقد كان منفعلاً في نقاش ما مع (فؤاد), لم أفهم عنه شيئاً, لكنني عرفتُ أنّهما يتناقشان في مسألةٍ ما خاصةٍ بهما.....

مضت تلك الأمسية بشكل جميل هانيء جداً وقام ابن هاني بتشغيل نغمةٍ أجنبية هادئةٍ دعى (فرح) ابنتي ليراقصها أمامنا على أنغامها فتظاهرتْ بالخجل واعتذرت عندما نهض (هاني) وأخذها من يديها ليراقصها هو على تلك الأنغام فضحكنا عليهما وصاح ابن (هاني) محتجاً على والده....

_ ماهذا يا أبتِ! إنها زوجتي أنا وقد اختطفتها مني .....

أخذت فرح تضحك وهي تراقص عمها وتحتضنه كل حين سعيدةً بما فعل معها... تذكرتُ أيام مراهقتنا لمّا كان (هاني) يشاكسني وهو يضع سماعات في أذنيه ويرقص على الأنغام الأجنبية فيأتي ليأخذ بيديّ فجأةً ليراقصني فأصرخ فزعةً وأهرب منه لتصيح خالتي من خلفه و تعنّفه- لأنها تعلم مدى خجلي وعدم موافقتي على ذلك الأمر- لكنّه كانَ يتعمّد فعل ذلك ليضحك عليّ رغم احتجاجي وصراخي عليه...وكان فؤاد وأمير دوما مايضحكان علينا... فضحكتُ في سرّي وأنا أستذكر ذلك –فما أشبه (هاني_ الجدَّ) اليوم, بذلك (المراهق) بالأمس!؟-- وبقيتُ أنظر الى (فرح) الغالية وهي تراقص عمها عندما فاجأتني رؤية (فارس) يتقدمُ بيده نحو(روزالي) لتقوم بالرقص معه فتوردت وجنتاها خجلاً, ولم تكنْ تجرؤ على فعل ذلك أمامنا أبداً من قبل, لمّا قام (أمير) وسحبها من يدها ليضعها أمام (فارس) الذي نظر بامتنان إلى عمه و أخذ بيدي (روزالي) الجميلة ليرقص معها.... صفقت (فاطمة) من فرط الحماسة, فنظر (فؤاد) إليها وصاح بها....

_ هيا بنا نحن أيضاً!!

ضحكا سويةً وأخذا بيد بعضهما يقلدان فارس وروزالي و(هاني) و(فرح).... شعرتُ بسعادةٍ عارمةٍ وأنا أرى تلك الطاقة الأيجابية تشع من أفراد أسرتي الحبيبة.... نظرتُ الى (فؤاد) الحبيب, أستعلم عنه لأرى كيف يشعر وهل هو سعيدٌ مثلي فوجدته مبتسماً وقد أغلق عينيه ووضع يده تحت ذقنه.... كان وسيماً جداً حتى وهو في ذلك العمر... ما أجمل طلّته وما أروع تفاصيله وهو جالس كأسدٍ رابض, قميصه الأسود يزيد بهاء وجهه الأبيض وسرواله

الأزرق يعكس زرقة عينيه حتى وإن كانتا لاتبصران... فتح عينيه الجميلتين لمّا جلستُ عند قدميه ممسكةً بيديه وأنا أهمس له بصوتٍ حانٍ.....

_حبيبي! أنا في قمة السعادة لاجتماع أسرتنا....

_حبيبة قلبي.... أريدك أن تسعدي أكثر.... أريدك أن تفرحي... تمنيتُ لو كنتُ قادراً على مراقصتك الآن..... (أمير)

(صاح فجأةً), فالتفت (أمير) إليه....

_ ماذا هناك ياأخي! قل!

_ أُريدك أن ترقص مع (فاتن) بدلاً عني.... أرجوك!

شعّت عينا أمير ببريق غريب, وكأنّه تمنّى أن يقولها (فؤاد), لكنّه كان خجلاً من رفضي خائفاً من ردّي إن حاول أن يقول لي: (هل تسمحين لي)؟....

لكنني نظرتُ الى (فؤاد) بخوفٍ وأنا تحت قدميه جاثيةٌ قرب أريكته الأثيرة, حيث أعتاد أن يجلس مستنداً بذراعه الأيسر على مقبضها دوماً واضعاً رأسه فوق كفّه دوماً.... نظرتُ إليه وأنا أعلم أنّه لن يستطيع قراءة ماتقوله عيناي فهمستُ بصوتٍ خفيض....

_فؤاد!! أرجوك, اعفني من ذلك.....

_(فاتن) تلك هي رغبتي الليلة.... أريد لك كل السعادة فلا تفكري بشيء وأطلقي لروحك العنان, وتخيلي أنني أنا من أراقصك كما كنّا نفعل.... كنتُ لأفعلها لولا ثقل ساقيّ وعمى عيني وأنتِ تعرفين ياعزيزتي, أنك أغلى عندي من روحي.... أرجوكِ.... أفرحي لأسعد أنا بسعادتك... (خذها ياأمير بسرعة) صاح بصوتٍ عالٍ في جملته الأخيرة, فوجدتُ يد (أمير) ممتدةً نحوي.... رفعتُ رأسي إليه محتارةً مترددة.... لكنْ.... (ذلك لايجوز)! أخذتُ أردّد في سرّي عندما وجدتُ نفسي قد التفتُ فجأةً وأصبحت بين ذراعي أمير الذي أخذ يراقصني كما لو كنّا زوجين من جديد... شعرتُ بذنبٍ كبير.... شعرتُ بذعرٍ في داخلي, لكنّ نظرتي لـــ(فؤاد) كل حين ونحن نستدير في رقصتنا الهادئة على تلك الأنغام, لأرى وجهه باسماً

مطمئناً سعيداً, جعلني أنسى قلقي, وكأنني أحقق لـــ(فؤاد) رغبته... وبالفعل تخيلتُ أني بين ذراعيه حقاً.... كما كنّا شابين من قبل..... (آه يا فؤاد).... كم أنت حنون وطيب رغم كل قسوتك, وكم أنت قاسٍ رغم كلّ حنانك.... أنت كبحر عميق, لم أعرف له قراراً وبقيتُ أبحثُ عن أسراره فلم أزدد إلّا غَرَقاً.... (ياحبيبي يا (فؤادي))..... أحببتك منذ طفولتي وسأظلُّ أحبُك طوال عمري.... ولن يبرح حبّك من قلبي مهما طال الزمان, ومهما حصل, وحتى إن أضطررت لرعايتك طول عمري فأنا أزداد سعادةً بذلك لمّا أرعاك كطفل صغير).....تذكرتُ وأنا أنظر الى (فؤاد) كل حين أيام الطفولة لمّا كان يعزف لنا, ويجعل أمير يراقصني ويعلمني خطوات الرقص عندما كنتُ في الثامنه والنصف فقط أو التاسعة من عمري, لا أذكر بالضبط- لكنّ (أمير) هو أوّل من علمنّي خطوات الرقص على نغمات هادئة.... رفعتُ رأسي آخر مرة لأنظر الى (فؤاد) فسمعتُ همس (أمير) لي....

_ أوَ لن تنظري ولو للحظةٍ أليّ.... فقط إلى (فؤاد) تنظرين!

فالتقت عيناي بعينيه لتنكسر نظراتي خجلاً منه بسرعة... كانت نظراته (ناراً من الحنين والشوق والحب)- فشعرتُ أنّ عليّ التوقف عن الرقص معه.... (كفى يا (فاتن).... كفى)..... صحتُ بنفسي أُعنفها رغم أنني سعدتُ بمشاطرتي أسرتي تلك الألحان الجميلة وكنتُ أضحك في البداية مع (أمير) وفرح وهاني ونحن نصطدم ببعضنا صدفةً أو نصطدم بالتوأم فجأةً أو بفارس وروزالي....لكنّ ذراعي أمير وهما تلتفان حول خصري ونظراته الملتهبة تلك جعلتني ارتبك كثيرا ..إذ حارت نظراتي تحت سلطة نظرات عينيه وشعرت أني احترق كفراشة ليلية قد حامت حول ضياء ساطع...كان وسيما بطل تفاصيله ..بل قد زاده تقدمه بالعمر وسامة ورجولة...رباه هل أصبحت احبه؟؟ هل قلبي يخفق بسببه؟؟؟

جلستُ بسرعة على الأريكة فلحقني (أمير) متسائلاً ...وقد لاحظ ارتباكي وانكسر نظراتي أمام نظرات عينيه ...

_ هل أنتِ بخير ياعزيزتي؟!!

_ (أمير)! شكراً... أنا بخير... شكراً لك....

قلتُ دون أن أرفع نظراتي إليه خوفاً من رؤية عينيه....

(هل كنتُ أخاف النظر اليها فأضعف أمامهما.... نعم.... وأنا لستُ سوى بشر).... (وكنتُ أفتقد إلى الرعاية والحنان والحب اللذين كان (فؤاد) يغدقني بهما جميعاً قبل مرضه واحتياجه

الشديد الى رعايتي الدائمة....) كنتُ حقاً أفتقد تلك اللحظات التي يضمنّي فيها فؤاد إليه ويراقصني ويتغزل بي, كأنني أجمل نساء الارض, لاأستطيع وصف ذلك الشعور.... لكنّه شعورٌ قاتل, أن تحيى المرأة على ذلك الشعور ثم تجد نفسها خاليةَ الوفاض, هو سعادةٌ وعذابٌ في آن, صحيح أنّه دوماً ماكان يحتضنني ويهدهدني كطفلته الصغيرة كما اعتاد دوماً أن يفعل, قبل ان تصاب عيناه بالعمى....لكنّه أصبح مرهقاً متعباً وقد أخذ منه المرض مأخذه, وكان يومي كلّه مقسماً في أغلبه لخدمته ..... منذ الصباح لمّا نستيقظ, آخذ بيده الى الحمام وانتظره وأُعيدهُ الى فراشه لأصنع له الطعام وأطعمه بيدي في أغلب الأوقات, لأنه ماكان قادراً على رؤية طعامه أو شرابه... أعطيه قدح الشاي وأضع صحن الطعام بين يديه, وبدون أن يطلب مني, أضع أنامله فوق الشوكة أو فوق الملعقة فيبسُمُ لي شاكراً وأعرف كل حركات وجهه وتعابيرها... حبيبي الغالي, كان يشعر بالأحراج منّي لمّا أُغيّر له ثيابه, لكنني كنتُ لاأبالي, وكنتُ يومياً أغيّر له ملابسه, إن شاء أم لم يشأ, حتى أستسلم للأمر الواقع ولم يعُدْ يحتجّ أو يرفض, بحجة أنّ ثيابه نظيفةٌ وليس فيها شيء..... أُخرُجُه الى الحديقة عصر كل يوم ليتنعم جسده المريض بأشعة الشمس وتلتمع بشرته البيضاء بوهج سنائها فيزداد بهاء وجهه الوسيم.... حبيبي الغالي, كم كان يتعذر مني وأنا أعمل كمادات دافئةٍ لقدميه كل ليلة بعد أن أضعهما في وعاء ماء دافيء وأظل أحرك أناملي فوق ساقيه كي يتحرك الدم في أوعية ساقيه اللتين لايصل الدم الى نهاياتها الشعيرية بسبب طول فترة مرضه وعدم انتظام سكره في الدم.... ولمّا يأتي المساء, أجد نفسي بعد وجبة العشاء وأعداد الطعام والجلوس برفقة روزالي وفارس, متعبةً للغاية, لا أريد سوى النوم.... في خضم كل هذا وذاك.... أين منيّ (أنا).... أين مشاعري.... لقد عادتْ عواطفي فجأةً تنتفض بنظرات (أمير) لي, تلك النظرات الحارقة! رحماك ياربي! عرفتُ يقيناً لمَ حرّمها الله, لأنها كوتْ روحي المتعبة وحركتْ غرائزي الكامنة.... شعرتُ فجأةً أني أحلم حلم يقظة, كنتُ جالسةً بين الجميع, أنظر الى هاني وأمير وهما يلعبان الشطرنج بعدما أكمل الجميع وصلتهم الموسيقية الهادئة.... وجدتُ خيالي فجأةً قد ذهب بي الى ليلةٍ كنتُ فيها مع (أمير), أوّل زواجي منه (مجبرةً) بسبب (فؤاد).... لم يكن (أمير) يكلمني على الفراش ولم يكن يحاول فعل أي شيء معي, لأنه كان يعلم يقيناً عدم موافقتي على ماحدث, ولقد مكثنا فترةً طويلة نولي بعضنا ظهر بعض.... لكنْ, في تلك الليلة همس لي خلف أُذني.... همس وهو يخلّل أنامله بين خصلات شعري السوداء الطويلة ويشمها.....

_ إلى متى ستظلين تعذّبين (أمير)المسكين هذا! رحماكِ مولاتي.... قطر الندى, بياض ثلجي(أنا).... ألن تعطفي على خادمك المسكين... أبداً ولو لمرةً واحدة....

ارتعشت أوصالي كلها ولم أعرف بمَ أُجيب, فالتفتُ نحوه, لأرى تلكما العينين اللاهبتين.... (رحماك ياربي).....ضمنّي بين ذراعيه, فلم أشعر بشيء بعدها..... وأستسلمتُ لأحلامي تلك كمراهقةٍ صغيرةٍ, لأستيقظ فجأةً على صوت (هاني) وهو يناديني هاتفاً....

_ هه يافاتن! لمْ تقولي لنا ما رأيك!!

_ ماذا!

صحتُ بدهشة وأنا اصحو من حلم يقضتي لتلتقي عيناي بعيني (أمير) فترتبكا, وكأنه قرأ كل أفكاري, فقررتُ الهروب من أمامه..... (أنا أمرأةٌ متزوجة! كفى! كفى!)

_أشعر بتعبٍ قليل, سأذهب للنوم.... عذراً ياهاني, عذراً يا أمير.... تصبحون على خير جميعاً..... (ونظرتُ للكل بسرعة) ونهضتُ متثاقلة الخطى بينما تبادلتُ تحايا المساء مع الجميع وكنتُ قد سألتُ (فؤادا) إنْ كان يودّ منّي أخذه الى غرفته فردّ بالنفي وقال إنه يود الجلوس أكثر مع أخويه وأسرته, فتركته كما يريد.....(لقد طلبتُ منه مراراً وتكراراً أن يغير عادته الغذائية تلك ويترك تناول قطعة حلوى, فرغم صغرها, إلا أنها من الممكن أن تعمل له جلطةً ما ربما على حين غفلة بارتفاع سكره دون علمه بشكل فجائي.... ولكنني كنتُ أعذره, وخصوصاً في تلك المناسبات التي نجتمع بها سويةً وأدعو الله في سرّي أن لايصيبه مكروهٌ أبداً).....

صعدتُ الى غرفتي.... وكان عناد (فؤاد) بأن لا أحوّل غرفتنا الى الطابق السفلي, عذاباً مضاعفاً له ولي, لأن هبوط السلم معه وصعوده, كان صعباً للغاية عليه, الاّ أنه دوماً ما كان يسليّني بكلمات مثل : لا بأس, فلا بدّ لي من ممارسة الرياضة ولو قليلاً في اليوم, فاعتبري صعود السلم رياضتي) وعلى أية حال.... خلعتُ حجابي في غرفتي وآرتميتُ على السرير وبقيتُ على وسادتي أُفكر, غير قادرةً على النوم... لكنْ فيم كنتُ أفكر؟ لم أكنْ أفكرّ أصلاً, كنتُ في نارٍ مستعرة وعذاب , إلتفتُ رافعةً رأسي نحو مرآة سريري التي تقع أعلى رأسي, ونظرتُ الى وجهي...

همستُ وأنا أتحسس تجاعيد وجهي التي بدأت تظهر أسفل عينيّ وتحت ذقني....

_ هل لا يزال يراني جميلة ، رغم سني! رغم معرفته لكلّ أولئك الفتيات!رباه! لكنْ ماذا أقول أنا ! ويحك يا (فاتن) ! ماذا تقولين ؟وعمّ تتحدثين...كفى هذه خيانة !

دفنت وجهي فوق وسادتي باكية عندما سمعتُ نقراً على الباب خفيفاً ففوجئتُ وقفزت بسرعة أكفكف دموعي وأرتدي حجابي من جديد...

_ من هناك !

_ إنه أنا (أمير) يا فاتنّ لقد جلبت لك (فؤاداً) ...

فتحتُ الباب بسرعة ، لم أفكرّ في مظهري لكن نظراتِ (أمير) المتفاجئة وهو يدرك أحمرار عيني ودموعي التي كانت اثارها عالقة بهما، جعلني ارتبك كثيرا ...بقي ينظر إليّ وهو يتساءل ألف سؤال بنظراته بينما هتف ليغير انتباهي عنه و هو يقول

_ لم يحتمل مليكك البعد عن ملكته فجلبته لك.....

نظرتُ الى (أمير) بارتباكٍ شديد.... (رحماك يارب! كم كان يحبّ أخاه بحيث أنّ (أنّاه) تذوب أمام (فؤاد) حدّ النخاع!).....

_ شكراً لك يا أمير! لستُ أدري كيف أشكرك!

_حسنٌ, سأتركه لك لتدخلي به, أم تودين مساعدتي حتى الفراش, أنا بالخدمة إن شئتِ جلبته حتى السرير يا فاتن!

_كلا, كلا! ألف شكر لك يا (أمير)!

_شكراً لك يا أخي.... من كل قلبي أشكرك....

هتف (فؤاد) وهو يمدّ يديه نحوي فتلقفتها وأسندتُهُ إليّ وأخذت به الى السرير بينما (أمير) كان لايزال واقفاً وكأنّ على رأسه الطير, إذ هتف فجأةً....

_ هل تحتاجين لشيء يافاتن.... (وازدادت نبرةُ صوته جدّيةً)

_ كلا! أبداً! ألف شكر لك..... ألف شكر....

_ تصبحين على خير ياعزيزتي..... تصبح على خير يافؤاد!

_ تصبح على خير ياأخي..... عمتَ مساءاً!

_تصبح على خير ياأمير..... الف شكرٍ لك!

تبادلنا النظرات الحائرة قبل أن يبتعد (أمير) ويُغلق الباب خلفه....

الفصل الخامس والثلاثون

أمسكتُ في ذلك اليوم بدفتر قديم كنتُ أخطط فيه رسوماتي لأبناء خالتي نقلاً من ألبوم صور العائلة, لمّا كنتُ مراهقة..... أخرجتُهُ من صندوق قديم كنتُ أدّخر فيه ذكرياتي الثمينة والأحب الى قلبي.... تصفحتُ تخطيطاتي لخالتي وزوجها و(فؤاد) و(أمير) و(هاني) فضحكتُ مع نفسي, وذهبتْ بي الذكريات الى تلك الأيام الخوالي لمّا أكتشف (أمير) أني أرسم الشخوص فسرق دفتر تخطيطي من بين يديّ, وكنتُ وقتها جالسةً قرب نافذة منزل خالتي المطلة على الحديقة ودفتري الصغير في حجري وقلمي بين أناملي أكمل بها رسمةً لعينيّ (فؤاد) الجميلتين.... كنتُ حينها قد عدتُ للتو من العراق- لمّا هربتُ من طغيان عمي وزوجته, وتخلصتُ من زيجةٍ كادتْ تحطمني طيلة حياتي.... لاأعرف كيف ومتى رآني (أمير) الشقي....كم كان مشاكساً في شبابه, ولطالما أحبّ مشاكستي وجرّ ربطة شعري أو إيذائي بأية طريقة ليجعلني أتعصب عليه, رغم أنّ أذاه كان (لطيفاً) ومستفزاً في آنٍ معاً!!(رغم أنه كان يمازحني دوماً) كنتُ أخطط في أمان منسجمةً مع الرسمة وأنا أضع صورة (فؤاد) أمام اللوحة لأنقل منها نقلاً حياً مباشراً, عندما تلقف (أمير) الالبوم من بين يديّ وهو يهتف ساخراً....

_ أهّا! لقد قبضتُ عليكِ بالجرم المشهود! ماذا تفعلين بألبوم صورنا! وماهذا الدفتر ياترى.....

_ كلا! كلا! أمير..... كلا..... أرجوك, تعال.... لالا....

وهنا ظهر (هاني) فجأة لينظر إلينا ضاحكاً....

_ ماالأمر! مابكما! الفأر والقطة مرةً أخرى!

قال ساخراً عندما استنجدتُ به لينقذني من (أمير)...

_هاني! أرجوك! أنقذها! هيا خذ مني!

ورمى الدفتر بأتجاه (هاني) وأنا أحاول أن أقفز لآخذه, لكنّ (هاني) تلقفه بسرعة وهو يضحك ليعود فينظر إليّ بجدية وهو يقول:

_ هل هذا ماتريدين حقاً يا فاتن! هل هو لكِ... خذيه!

وصدقّت فعلاً أنّه سوف يعطيني إياه عندما رماه فجأةً ليتلقفه (أمير) منه مرّةً أخرى وهما يقهقهان ساخرَيْنِ مني, لمّا أخذتُ أستنجد متوسلةً بهما, وكدْتُ أن أبكي عندما لاحت مني نظرةٌ الى عينين لاهبتين بسنان أزرق تنظران إلي.... كان قد هبط من غرفته للتو, فوقف واجماً وما أن شاهده (أمير) و (هاني) حتى توقفا عن مشاكستي وأصبحا كصنمين....

_ ما الأمر!

هتف (فؤاد) بقلق, وكان ينظرإليّ فأطرقتُ بخجل...

_ لقد أخذ (أمير) دفتر تخطيطاتي! لاأريد لأحدٍ أن يرى ذلك.... أعتذر منك....

_ لمَ تعتذرين يا فاتن! هما من يجب عليهما الأعتذار... أعطني الدفتر بسرعة...

(قال بلهجة آمرة لأخيه أمير) وبسرعة البرق, ناول (أمير) الدفتر لأخيه الأكبر وهو مطرق الرأس خجلٌ منه, لمّا ناولني (فؤاد) الدفتر مقترباً مني, ليقول بصوت جعلني لاأستطيع الرفض أبداً....

_ لكنْ, هل تسمحين لي أن انال شرف النظر وان أُبدي رأيي في رسوماتكِ لو كان ذلك ممكناً, لو سمحتِ.... فأنا فعلاً متشوقٌ لأرى كيف ترسمين؟!

رفعتُ نظراتي إليه لترتبكا أمام عينيه فأطرقت بسرعة لأهزّ رأسي موافقة عندما تلقّف (هاني) الدفتر بسرعة من بين يدي (فؤاد) الذي كاد أن يضربه على رأسه....

_هوبّا! مرحى لكِ يا فاتن! فلننظر ماذا رسمتِ هنا!

وقفز هو وأمير على الأريكة ودفتري في حجرهما بينما نظر (فؤاد) إليّ نظرات المعتذر وهو يبتسم وكأنّه يقول لي بلسان حاله: (دعيهما فهما مخبولان!)...

_فؤاد! تعال هنا ياحبيبي!

صرخ (أمير) فجأةً ليجلس (فؤاد) قربه وينظر إلى رسوماتي, فأذا به يرفع عينيه تجاهي بنظرات الأعجاب التي جعلتني أطرق خجلاً.....

_ رباه! انها قد رسمتنا كلنا! أنظر هنا!

كان (هاني) قد صعد فوق ظهر الأريكة عندما وضع أمير دفتري بينه وبين (فؤاد) ليتمكن من الرؤية معه, فكان مظهر (هاني) مضحكاً للغاية وهو يضع ذراعيه واحداً فوق كتف أمير الأيسر وواحداً فوق كتف فؤاد وهو يختلس النظر من الأعلى....

_أُنظرا ! ما هذا.... هذا أنا.... فاتن! أنتِ فنانة!

هتف أمير بدهشة ثم رفع عينيه بإعجابٍ بأتجاهي, فشعرتُ أنّ الأرض ستنشقّ وتبلعني من شدّة الخجل....

_ أنظرا كم أنا وسيم! أنظرا هنا كيف رسمتني وأنا في قمة الجاذبية والجمال! كم أحبّ نفسي! أنا وسيم, ألستُ كذلك يا فاتن!

صاح (أمير) وهو يبتسم, فضحكتُ مبعدةً وجهي الى الجهه الأخرى لأكتم ضحكةً في صدري... كانت حركاته المسرحية مضحكةً للغاية, لكنّه هتف فجأة وهو يلكم فؤاد في ذراعيه بينما كنتُ لا أزال واقفةً أمامهم كتلميذةٍ تخشى العقاب....

_ لكن.... ماهذا.... (فؤاد), فؤاد, فؤاد, فؤاد, فؤاد! في كل مكان, بين رسمةٍ ورسمة, نجد فقط (فؤاد)! ماأكثرك حظّاً يا فؤاد!

قال (أمير) وهو يغمز بعينه اليسرى ناظراً إليّ بينما هاني يضحك فوق رأسيهما, فرفع (فؤاد) عينيه لينظر إليّ من تحت تلكما النظارتين السوداوتين, لتخترق أشعتهما روحي..... لم يتكلم ولا كلمة, ولكنّ نطراته تكلمت الكثير, وكأنّه عرف كم كنتُ مهتمةً به وكم كان قلبي وعقلي مشغولين بحبّه حتى دون علمي بذلك, إذ كانت أناملي تختار صورته لأرسمها وعينيه لأُضيف لهما اللون الأزرق من دون الصور الأخرى التي كانت جميعها بالرصاص والفحم فحسب....

طافت بي الذكريات وأنا أتصفح دفتر رسوماتي القديم فأذا بي أجد نفسي أبكي دون شعور مني.... لماذا تركتُ الرسم ولم أُتابع ممارسة تلك الهواية التي أحببتها منذ طفولتي؟! لربما كان السبب هو أنشغالي بحياتي الزوجية ودوامّة الشغل والعمل بعد أنجابي (فرح) الغالية, علاوةً على إنشغالي بتتبع معجبات (فؤاد) وصديقاته ولهاثي خلف غيرتي وخوفي عليه من المغريات حولي.... لم أجد وقتاً ولا رغبة في ممارسة تلك الهواية المحببة إلى نفسي مع كل ذلك الأنشغال واللهاف خلف (فؤاد).... لقد شعرتُ في تلك اللحظات وأنا أتصفح رسوماتي المتواضعة, أنني قد قضيتُ عمري كلّه ألهثُ خلف (فؤاد), حتى نسيتُ نفسي و نسيتُ ماأُحبُّ وما أريد لنفسي..... طوال حياتي السابقة كنتُ ولا زلت أحيا لأجله ومن أجله حتى نسيتُ ذاتي ونسيتُ نفسي, وأذبتُ كياني في كيانه ولم أرَ سوى وهج عينيه وكنتُ أسعى دوماً لرضاه..... بكيتُ لاحزناً على نفسي ولاشفقةً عليها, بل لأجله بكيت..... بقيتُ أنظر الى رسمته المجسدة بنظارته السوداء وهو يضع أنامله تحت ذقنه وعيناه الزرقاوان تنظران عبر اللوحة الى المتلقّي وكأنهما تتحدثان!! وتتالت أحلام يقظتي....

_أغلب الرسومات هي لك يا (فؤاد)...يا.... فؤاد!

هل أنت متنبهٌ لذلك يا .... فؤاد!

أخذ(أمير) يكرر كلامه وهو يتحدث ببطء وكأنه يتقصد أستفزازي بذلك فأسرعت غاضبةً نحو الدفتر لأسحبه من بين يديه وقد تضرّج وجهي بالدماء....

_كفى يا أمير! مزاحك من النوع الثقيل!

_ حقاً! أعتذر منكِ.... لكنْ لماذا احمرّت وجنتاك خجلاً....

_ماذا! يالهي!

أخذتُ الدفتر وهرعتُ الى غرفتي هاربةً من (أمير) أو بالأحرى, لأهرب من نظرات (فؤاد) لي, لكنني سمعته وأنا أصعد السلم يقرّع (أمير) ويصيح به.....

_كفّ عن ذلك يا أمير... لاتمازحها هكذا فهي رقيقةٌ جداً وحساسة.... كن أكثر تهذيباً!

_إنني أمازحها فحسب, صدقني.... أحبّ أن أثير حفيظتها وأن أُخرجها من طور هدوئها وصمتها الدائمين....

ولم أسمع تتمة حديثهما لأنني أقفلت باب غرفتي خلفي بعد أن أسرعتُ الخطى في الصعود لأتدارك خجلي وأرتباكي, ولم أُظهر دفتري ذاك بعدها, ولم يفتح (أمير) أيّ موضوع معي عن ذلك وعزوتُ الأمر الى استماعه لتعليمات (فؤاد) وما أملاهُ عليه.....

ذرفتُ الدموع وأنا أفكرّ كيف أنّ حبيبي (فؤاد) أصبح كفيفاً عاجزاً, وكيف أصبح مريضاً لايستطيع السير إلا بالأستناد إلى شخص وبخطوات ثقيلة....

أغلقتُ الدفتر وأعدتُهُ الى مكانه بعد أن ضممته إلى قلبي وقبلّتُ غلافه, لأذهبَ بعد ذلك إلى (فؤاد) وأرى مايحتاج إليه, فوجدتُهُ يتقلّب في الفراش وقد أخذ يتعرق بشدة فصحتُ بصوتٍ قلق....

_ ما الأمر ياحبيبي! انطق, ماذا دهاك....

_ لا أعرف يا (فاتن)! لقد وجدتُ نفسي أتصببّ عرقاً....

أين جهاز قياس السكر الخاص بي.....

_ نعم أيها الغالي, هاهو, دعني أقيسه لك....

وأخذتُ أمسح جبينه وأنا أقيس له بواسطة الجهاز سكره لأجد انخفاضاً هائلاً فيه, فأسرعت بأخراج قطع من معجنات (فرح) التي صنعتها (وكنتُ قد احتفظت ببعضها فوق طاولة في

غرفتنا تحسباً لهبوط سكر (فؤاد) لأنني كنتُ أعرف تلك الأعراض) فناولته قطعتين, وأنا أنظر إليه بخوف ولهفة كي يستعيد صحته ووضعهُ الطبيعي....

بقيت قربه حتى استعاد وضعه الطبيعي وقد وضعتُ رأسهُ في حجري مخللةً أناملي بين خصلات شعره الذي غزاه الشيب على الأغلب ولم يتبق من خصلاته السوداء إلاالنزر اليسير.... ذلك الشعر الأسود الفاحم الذي طالما أحببته.... ونظرتُ الى عينيه وهما تنظران الى الفراغ....

_ فاتن! شكراً لك... لقد عدتُ الى طبيعتي.... أنا بخير الآن يا عزيزتي الغالية... ماذا كنتُ لأفعل لولاكِ...

_ حبيبي (فؤاد).... ألم تتناول طعاماً كافياً بعد أخذك لجرعة الأنسولين بالأمس؟

_ بلى, فعلت! أنتِ تعرفين, أنتِ من قدمتِ لي الطعام!

_ أذاً لماذا هبط سكرك هكذا.... يا ألهي, إنّه في أرتفاع مفاجئ وانخفاض مفاجئ....

وذلك يقلقني جداً... عليك مراجعة الطبيب ياحبيبي الغالي....

_ لقد سئمت من المراجعات... دعيني أنعم الآن بحضنُكِ الدافيء أيتها الغالية .... أحبكِ يا صغيرتي الفاتنة.....

الفصل السادس والثلاثون

في أحدى الأمسيات وبينما كنتُ جالسةً تحت قدمي (فؤاد) أدلكهما له وقد وضعتُ وعاء الماء الدافئ تحتهما بينما كان يتأوه من الألم كلّما مررتُ أناملي فوق أنسجة ساقيه المتعبين وهو يردد مع ذلك الألم عبارات الشكر والإمتنان لي, ولمّا انتهيت مدّ يديه يبحث عن شيء, وصاح بي:

_ فاتن! أين أنتِ! أعطني يديكِ.....

ناولته يدي ظناً منّي أنّه يريد النهوض, لكنْ ولشدّة دهشتي, وجدته يقبلهما بحبٍ قبلات عديدة رغم أنّي حاولت سحبهما, لكنّه لم يوافق على ذلك وظل ممسكاً بهما بقوة وهو يقبّل كل أُنملةٍ على حده.....

_ فليحفظكِ الله لي يا حبيبتي....

_ فؤاد! لاتفعل ذلك أرجوك! إنّه واجبي!

فليحفظك الله لي ياحبيبي الغالي....

_ من كان يصدّق يافاتن! كنتُ أرعاكِ في صغركِ وأنتِ الآن ترعيني في كبري.... سبحان الله.... لكنك تتعبين كثيراً.... لاتظني أني لاأرى وأني لاأعرف مقدار تعبكِ بسبب عدم إبصاري!! أنا أعرف كل شيء....

_ حبيبي الغالي.... فدتك (فاتن)!

قبل كل شئ... أنا ابنتك قبل أن أكون زوجتك, وابنة خالتك قبل أن أكون حبيبتك.....

وأنا الآن جميعهن مجتمعات في امرأة واحدة كما أنت تماماً وقد أجتمع فيك شخص (ألأب) الذي فقدتُهُ, عندما رعيتني وشخص الحبيب والزوج الحنون علاوةً على كونك ابن خالتي.....

_ لاعدمني الله حنانك وحبك غاليتي....

حملتُ وعاء الماء وابتعدت فناداني بحنان:

_ فاتن! تعالي هنا بعدما تنتهين من وضع الوعاء .....

_ حسنٌ يا حبيبي....

عدتُ إليه فضمني بين ذراعيه وأخذ يقبّل خصلات شعري....

_ سامحيني يا غاليتي....

_ علام أُسامحك يا (فؤاد)! ما هذا الكلام يا حبيبي.....

_ سامحيني.... أنتِ تعرفين تماماً عمّاذا أتحدث.....

ولذلك, في وقتٍ ما, قمتُ بتدمير حبّنا بنفسي وإجبارك على الزواج من أخي, قبل أن أموت حسداً وغيرةً وحباً في آن معاً.... فاتن! أنا لم أعد.....

_ صه! كفى! أرجوك!! أنا لا أقبل أن تقول مثل هذا!

وضعتُ أناملي فوق شفتيه.... نظرتُ الى قسمات وجهه الملائكية المتناسقة رغم كبر سنّه, ورغم مرضه, إلاّ أنّه كان لا يزال وسيماً وجميل الطلّة والقسمات....

_حبيبي... يكفيني حضنك هذا عن كل الكون! عن كل شيء في الحياة.... أنا أحبك أيها الغالي, ويكفينا أنْ نحيا هكذا..... فلو خيروني بين حياتي هذه وحياةٍ مع أي شخص آخر سواك, في أفضل الإحتمالات وأحسن الظروف, لما أخترت سواك, ولو الف مرةٍ من المرات تكررتْ حياتي, فلن أختار سوى حضنك وحبك وحياتي معك.....

(وما كدت أكمل جملتي تلك حتى رأيت الدموع تترقرق في عينيه, وكانت تلك هي من المرات النادرة التي تضاف لتلك الليلة عندما كنت صغيرةً وأخبرته أنني سوف أسافر الى العراق- ولمّا بكى لأجلي وأنا في غيبوبتي في المستشفى- فدموعه لم تكن تنزل بسهولة أبداً إلاّ لأصعب المواقف لديه)....

مسحتُ دموعه بأناملي وأنا أشعر بمقدار ألمه وحزنه الذي قد أعتصر قلبه الحبيب... وبدون تردد وبدون شعور مني أحطت رقبته بذراعي ونظرتُ الى وجهه ملّياً قبل أن أشعر بأني قد عرفتُ شيئاً واحداً.... وهو أن الحب لايعرف زمناً, وأن الحب هو بالروح وليس شرطاً أن يكون جسداً, أبداً أبداً..... أحببتك يافؤاد عمري كله وسأظل أحبك مهما كان ومهما حصل ومهما طال الوقت وأنتَ مريض. فذلك يزيدني سعادةً وحباً وتفانياً.....

نظرتُ الى وجهي في المرآة في أحدى الصباحات وقد زحفت تجاعيد كثيرة تحت عيني وفوق وجنتي وشفتي.... لابأس بذلك ... رغم أنها تجاعيد غير ملحوظةٍ تماماً إلا عند التمعن بها, لكنها كانت قد طبعت بصمة الزمن لتقول لي, (لم تعودي صغيرةً يا فاتن)....

ونظرتُ الى خصلات الشيب الذي خط خطوطه فوق شعري الأسود الفاحم.... ضحكتُ مع نفسي- على نفسي.....

(أصبحتِ جدةً الآن يا فاتن.... ولاتزالين تفكرين! في أن تكوني مرغوبة وفاتنه مثلما كنتِ وأنتِ شابة..... يا للكِ من حمقاء مغرورة! ذهبَ ذلك الزمان! عليكِ أن تفكري في أولادك فقط وأحفادك القادمين من فارس و روزالي بعد أن يتزوجا.... عليكِ أن تفكري!! أن .....)....

وانخرطت فجأة في موجة بكاء هستيري.... أخذتُ أبكي وأبكي.... لستُ أدري مادهاني, لكنني شعرتُ باكتآبٍ شديد وشعرتُ أنني أريد حقاً أن أبكي وأبكي وأبكي.... رفعتُ رأسي وكفكفتُ دموعي ونظرتُ إلى فؤاد وهو نائم فوق سريره, لقد كبر حقاً وغزا الشيب أغلب شعره الفاحم الجميل, كما زحفت التجاعيد على وجهه الوسيم, لكنّه كان لايزال في نظري أروع وأوسم رجل في العالم كلّه, وتأملته وهو نائم وتأملت قوامه وبدون شعور مني رفعت الغطاء لأدثره به.....صحيح أنني كنت لا أريد سوى رضاه عني وحضنه الدافئ ولو وقتا قليلا أستقطعه من الزمن...لكنني في أعماقي كنت أشتاق لانوثتي الموؤودة، على الرغم من وجود زوج بقربي لكنه لم يك يستطيع الإبصار ولم يعد كذلك يرغب بقربي كزوجة له...ورغم أنني كنت أقنع نفسي أن قربه يكفيني وأنني لااريد شيئا من الحياة بعد رضاه عني ...لكنني في أعماق روحي وقلبي ولما استيقظ بمفردي فوق سريري المفرد في غرفة ثانية لأنه سبق وعزلني عنه كما ذكرت سابقا بسبب تقلب مزاجه ونومه الصعب في الليل ...فأقل صوت يمكن أن يوقظه ويزعجه...كانت أياما طويلة قاسية كالصقيع تمر على خريف عمري ...بعدما حل الربيع فؤادي، وجدت شتاءا قارصا يجتاحني دون هوادة...وكنت أخشى أن أقع في دوامة تبعدني عن كل ماتربيت عنه وتعلمته وما التزمت به بسبب فقداني لأهم شئ تحتاجه المرأة المتزوجة ....الا وهو اهتمام زوجها بها وعدم تعنيفها أو الصراخ عليها بسبب مرضه...لأنني كنت اخشاه وأخشى عليه من نفسه في آن معا نزق طباعه التي آل إليها بسبب عماه ...كنت دوما ماادعو الله كل يوم أن يمر اليوم دون أن يتعصب أو يصرخ أو يتألم...

الفصل السابع والثلاثون

مرت سنتان بعد تلك الحادثة, كبر فيها أطفالي, الذين لم يعودوا أطفالاً, وكبرت روزالي, وأصبحت في الثامنه عشر, وأكملت دراستها الثانوية, وكانت على استعداد لدخول الجامعة, بينما دخل (فؤاد) ولدي وتوأمهُ (فاطمة) الكلية قبلها وأختار كلّ واحدٍ منهما نفس الأختصاص

وهو (أدارة الأعمال), وكأنهما قد تشرّبا حبّ التجارة والعمل من والدهما منذ الرضاعة!! ولقد فرح (أمير) أيّما فرحٍ بقرارهما ذاك, لأنه كان يوّد أن يمسك (فؤاد) الصغير أعماله من بعدهِ, وكذلك (فاطمة) التي وعدها بأن يجعل لها فرعاً خاصاً من الشركة بإسمهما لتكون مديرته ما أن تكمل دراستها.... كنّا قد قررنا الأحتفال بعيد ميلاد توأميّ الواحد والعشرين في منزلي كما أعتدنا كل عام, ولكنّ عيد ميلادها جاء مع مناسبةٍ سعيدةٍ ألا وهي أعلان (فارس) قرار زواجه من (روزالي) وتقدمه للزواج منها أمام الجميع, ففي ذلك الأجتماع العائلي الذي ضمنّا جميعاً, فاجأني ولدي الحبيب (فارس) بإعلانه فجأةً وبعدما أطفأ توأميّ شموع كيكتهما, وصفقنا لهما جميعاً, فأذا به يقرع كأسه التي سكبتُ فيها الشراب الذي صنعته بيديّ من قبله لأجل المناسبة الغالية على قلبي, أقول, فأذا به يقرع كأسه ليتنبه الجميع إليه وهو ينظرإليّ نظراتٍ ملؤها الحبّ والأمتنان.....

_أعلن لكم اليوم عن قراري ...أن أكمل حياتي مع فتاة طالما تمنّيت أن تكون شريكةً لحياتي يوماً ما, وانتظرتُ كثيراً كي تكبر وتكون مسؤولةً عن قرارها, وأردتُ فعلاً أن أدعها تخوض تجربة الجامعة كي تقرر, أن كانت توّد البقاء كخطيبةٍ لي أم لا, ولكنْ.... غيرتي عليها وأنا أفكر في تلك العيون التي سوف تحاول سرقتها مني في الكلية, (وابتسم ضاحكاً, وابتسمت روزالي بخجل)....

ذلك أمرٌ بعيد! لا.... من المستحيل أن أدعها تذهب من يدّي هكذا! فأن كنتِ موافقةً ياابنة عمي الغالي, على الزواج من هذا الشخص الذي اسمه (فارس) وهو يكبرك كل هذه الأعوام, فقولي الآن, وإن لم توافقي فقوليها أمام الجميع.... الآن أيضاً, لأنني لم أخبر أحداً عن هذا, وقررت الآن وفي وسط هذا الـــ..... الذي ماذا أودّ أن أُسميه.... الرباط العائلي الوثيق, وهذا الحب والترابط الذي بين أفراد عائلتنا, وفي ظل هذه الأجواء السعيدة... أردتُ أن أُضيف فرحةً أخرى.....فهلّا... هلّا قلتِ لي.... جوابك؟

_ يا الهي! ماذا أقول! (أحمرت وجنتاها خجلاً).....

كنّا جميعاً ننظر إليها في دقائق هي الأصعب (ربما) في حياتها بالنسبة لها.... إذ كان تركيز الجميع عليها بحيثُ ارتبكتُ وأحمرت وجنتاها وحارت جواباً... نظرتُ أنا الى ولدي وشعرتُ بإحراجه لتأخر جوابها.... خفق قلبي خوفاً عليه.... نظرتْ روزالي باتجاهه والدموع تسيل من عينيها.... كان الإرتباك ظاهراً وجلياً على محياها... لم تستطع إلاّ ذرف

الدموع والإطراق وتردَّتْ كثيراً بينما وضع الجميع شوكاتهم فوق صحونهم التي قدمت (فروحة) قطع الكيك لهم بها, وظلّوا يرقبون (روزالي) وقد ران صمتٌ ثقيل الأجواء.... قالت روزالي أخيراً, وقد بلغ القلق بوالدها غاية رهيبة, لأنني نظرت إلى (هاني) فوجدته في حالةٍ لايحسد عليها....

_ لقد... لقد فاجأتني بطلبك هذا! لم أتوقع أنْ تعلن عن هذا الأمر في هذا الوقت بالذات, وأمام الجميع هكذا! كلا! أنا.... لم أتوقع هذا أبداً.... أنا أعتذر لك ومنك! أنا لا أستطيع أن أظلّ هكذا, وأنْ أخدعك!

_ أن تخدعيني!! عمّاذا تتحدثين! روزالي الغالية!

كانت الدموع قد قفزت من عيني ولدي, وشعرتُ بقلبِهِ قد (أنفطر).... شعرتُ أنّ قلبي يكاد ينخلع من صدري....

كاد (هاني) أن يقفز من فوق كرسيه, لكن (أمير) أمسك بكتفه وأشار إليه أن يصمت....

_روزالي! أريد توضيحاً أمام الجميع! حالاً وفوراً!

_ لا أستطيع! دعني أذهب الى غرفتي!

_ كلا! أنا لاأسمح لكِ! مطلقاً!

أخذ يهدد بسبابته وقد احتقن وجهه وأصبح أحمراً.....

كان (فؤاد) يعضّ على شفتيه ويشدّ على قبضتيه وهو يتألم بصمت, وكأن هناك بركاناً يريد أن يخرج منه فجأة.... نظرتُ الى (روزالي) وهي تنظر الى (فارس) بخوف وحزن وندم وحبٍ في آنٍ معاً....

_ أنا أحببتك! أحببتك منذ صغري.... ولكنْ! هل يمكنُ أن أقول أني أحببتك كأبي..... كشخصٍ يعوضني عن حنان أمي وأبي الغائب عني رغم حضوره, في أغلب الأحيان....

فهو قد تركني كأنني (شيء) لاحاجة له به, حتى وإن كان يتردد عليّ دوماً هنا منذ طفولتي, إلاّ أنني دوماً ما أردتُ أباً حقيقياً يضعني في فراشي ويحكي لي قصصي, وذلك ماكنتَهُ (أنت)!.... أنت من عوضني كل شيء! ولمّا أصبحتُ مراهقةً لتّوي, شعرتُ نحوك بمشاعر مختلفة.... شعرتُ أنني أنظر الى (فارس أحلامي), فماذا أريد أكثر من شخص مثلك؟ وهل سأجد بمثل مواصفاتك أحداً خصوصاً بعدما أنقذتني من ذلك الشاب الطائش, فأغلقت عينيّ وقلبي عن أيّ شخص سواك! حتى أنني تعجبتُ من رفضك الزواج مني لمّا كنتُ في ذلك السنّ, إذ رأيتك كل مافي هذه الدنيا ومالأطمح أن أناله في شاب أودّ أن أقترن به يوماً ما.... ولكنك أسديتي معروفاً حقاً لمّا قررّت تأجيل ذلك, وكنتَ محقاً, نعم.... كنتَ محقاً....فلربما يتغير قراري, وأنت لم تشأ أن تظلمني لقرارٍ وافقتُ عليه وأنا طفلة! طفلةٌ في الرابعة عشر لم ينضج عقلها غاية النضج ابدا , بل إنّ جسدها فقط هو من نضج!!

كنتُ أنظر الى (فارس) وهو محتقن الوجه, يتابع كلامها, وقد شدّ على قبضتيه كوالده تماماً حينما يغضب.....

كان (أمير) ممسكاً بكتف (هاني) الذي كان تركيزه كلّه منصباً على خطاب ابنته وعيناه مليئتان بالدموع....

أكملتْ:

_حسنٌ! (نَظَرَتْ إلى فارس فوجدته ينتظر منها أن تكمل) ...

_لقد كنتُ أحبك أنت وحدك, ولم أتخيل أبداً أن أفكرفي شخص سواك.... لولا... لولا ظهوره فجأة أمامي قبل شهرين... لقد أخذ يسألني عن ماأحب أن أكونه وأيّ جامعةٍ أريد أن أذهب إليها.... ووجدتني أنجذب بالحديث نحوه, بل وجدتني بعد عدّة محادثات معجبة به.... كما وجدته معجباً بي, واعترف لي بحبه لي منذ زمنٍ بعيد لولا..... لولا أنّه يخجل عن الإفصاح به.....

_ ماذا.... أعجابه بك منذ زمن بعيد! من هذا الوغد الذي عرفكِ منذ زمنٍ بعيد, ومتى تحدث إليك ولماذا لم تخبريني؟ هل هو زميلٌ لك في الثانوية؟ هه! أجيبي فوراً!

صاح (فارس) وهو يصرّ على أسنانه بغضب وكأنّه يزأر.....

إرتبكت (روزالي) وأخذت ترتعش وطأطأت رأسها والدموع تسيل منها عندما أمسكها (فارس) من ذراعها وأخذ يهزّها بعنف فقام (أمير) بسرعة ليبعده وحينها صاح (فؤاد) ولدي:

_ابتعد عنها! أرجوك! ليس ذنبها وحدها!

كان قد أمسك ذراع (فارس) بقوة وأبعده عن (روزالي), فنظر (فارس) إليه بدهشة عندما صاح فجأة:

_إنه أنا! نعم! أنا الوغد الذي أحببتها من زمن بعيد....

منذ كنّا صغاراً, من قبل أن تستحوذ عليها وتُعلن خطوبتك الميمونة, وكنتُ أنا مجرد فتى بائس لا أستطيع الكلام, ولا أستطيع الإعتراض أبداً...

_ يالهي! آرحمني يارب! هل هذا كابوس!!

لطم (أمير) وجهه بكفّه, وكذلك فعل (فؤاد) بألم في نفس الوقت دون أن يعلما, بينما كان (هاني) قد وقف إلى جوار ابنته وهي تبكي ليضمّها بين ذراعيه عندما وقف فارس مندهشاً مصدوماً أمام أخيه.... أما أنا فقد تقطعت نياط قلبي وشعرتُ أنّ صاعقةً قد سقطت فوق رأسي فأنهرتُ ساقطةً على الأرض مغشياً عليّ وكان صوت (فؤاد) و(أمير) آخر ماسمعت وهما يهتفان بإسمي بخوف وقلق شديدين فلقد حذرهما الطبيب من عدم إثارة أعصابي إثارةً شديدة, فلقد تحملتُ كثيراً من العذابات منذ صغري ولمّا كبرتُ, وجدتُ صدماتٍ كثيرةً في حياتي, ابتداءاً من صفعة (فؤاد) لي لأجل عشيقةٍ سابقةٍ, وحتى سقوط جنيني بسبب ضربته غير المتعمدة وهو مكسور الساقين بينما كنتُ أُناوله طعامه, وحتى ألمي المستمر وحزني الشديد على فراقه خمس سنوات تحمّلتُ فيها الأمرّين حتى أنني لم أسْلَم على نفسي من أخيه بسبب رفضي المستمر له, لأجل حبي وأخلاصي لفؤاد , وحتى إيذائِهِ لي بعدما أجبرني على الزواج من أخيه, ثم سفري الى مسقط رأسي وتعرّضي للعسر وأضطراري للتدريس الخصوصي, كنتُ أكتُمُ حزني في قلبي وروحي ولا أُبديه لأحد, وكان ذلك طبعي مما أثرّ تأثيراً سلبياً على أعصابي, التي لم تعد تتحمل صدماتٍ وآلاماً أُخَر.... (رحماك يارب بي.... كيف يحدث هذا! أهو بسبب ذنوبي, أوَ تعاقبني ياربي! هل أنا السبب فإن كنت كذلك فافعل بي ماشئت, لكنّ ولدي (فارس) ليس له ذنبٌ في ذلك, كي يتعذب! رحماك)...

كانت تلك أحاديثي لنفسي قبل أن أسقط على الأرض, إذ لم أحتمل أن أرى ولديّ وهما يصبحان عدويّن لدودين في لحظات, ولم أحتمل أن أُبصر تلك النظرات منهما لبعضهما البعض وأنا التي زرعتُ الحبّ بين أفراد أُسرتي وسعيتُ دوماً أنْ ألمّ شمل أبنائي وأن لا أجعلهم متفرقين!!

كانت (فرح) تبكي أمام سريري في المستشفى حيث نقلني (أمير) بسرعة بوساطة سيارته دون أن ينتظر مجيء سيارة الأسعاف وتبعه هاني بسيارته مع (فارس) و(فرح)....

الفصل الثامن والثلاثون

نظرتُ إلى (فرح) وهي تبكي بجوار سريري, مددتُ يدي إليها وأنا مندهشة من المكان الذي كنتُ فيه فهتفتُ فيها قائلةً:

_فرح حبيبتي! أين أنا وماذا جرى!

_ أمي الحبيبة! فدتكِ فرح ابنتك!

قالت (فرح) وهي تمسكُ يدي بيديها مقربةً وجهها مني لتطبع قبلاتٍ كثيرةً على جبيني وخديّ.... وبللت دموعها وجهي....

_حبيبة قلبي الغالية.... فدتك أمك! لاتقولي ذلك....

وهنا ظهر(أمير) من خلفِ ستارةٍ كانت تحيطني أنا و(فرح)

_ مرحى! لقد استفقتِ يا (فاتن).... حمداً لله!

_(أمير) ماذا حدث لي! هل يمكنك أخباري؟!

_ لقد سقطتِ على الأرض وفقدتِ وعيك... ليست المرة الأولى يافاتن..لكننا نخشى عليك كثيرا ..لأن الطبيب نبهنا آخر مرة أن لايصيبك إغماء بسبب الشد العصبي مرة أخرى...

_ ياالهي.... لاأنفك أفقد وعيي.... رحماك يارب! لكنْ ماذا حدث لولديّ....

آه...(أمير)! هل هما بخير! هل تشاجرا ! لابدّ أن تمنعهما من ضرب بعضهما البعض! إنهما أخَوان!

وأخذت الدموع تنهال من عيني كالمطر, بينما اقترب (أمير) من سريري وهو ينظر إليّ بقلق ويكلّم (فرح)....

_ لابدّ أن تهدئيها يا (فروحة)! أرجوكِ فالطبيب قد حذرنا من أي شدًّ عصبي جديد, لأنها كانت مهددّةً بالإنهيار العصبي.....

_أماه! إنهما بخير, ولولم تصدقيني, فهذا (فارس) هنا... خارج غرفتك, في ردهة الإنتظار, ينتظر رؤيتك.... سأرسل عمي ليطلبه فيأتي إليك....

_ (فارس), آه! يا حبيبي (فارس)! لقد انفطَر قلبه! حبيبي....

وأخذتُ أبكي بينما خزر (أمير) ابنتي (فرح) بنظرةٍ حادة, وخرج يطلب (فارس) كي يراني, وعندما عاد مع ولدي الحبيب, كنتُ قد كفكفتُ دموعي التي سرعان ماانهمرتْ دون إرادة لما بصرتُ به..... فصاح أمير...

_ ما الخطب يا (أمرأة)! كفّي عن البكاء رجاءاً!

نظرتُ ألى أمير فشعرتُ بالخجل ومسحتُ دموعي, بينما أنكّب (فارس) على يدي كي يقبّلها وهو يتألم مردداً...

_ أمي الغالية, عودي إليّ سالمةً, لاأريد شيئاً سوى سلامتك يا حبيبتي.... أرجوكِ, كوني بخير....

_ حبيبي وولدي الغالي.....

مَرَّرْتُ أناملي فوق خصلات شعره والدموع تنزل من عينيّ....

_ لاعدمتك أيها الحبيب الغالي....

ونظرتُ إلى (فرح) وهي تذرف الدموع فأشرتُ أليها بعينيّ كي تأتي إليّ فأضمها مع (فارس) فازداد بكاؤها وهي تهتف:

_ أرجوكِ يا أماه! لا أريد سوى رجوعك لنا سالمةً معافاة!

_ ليس فيّ شيء, صدقيني! يا حبيبتي....أنا لما أراكم بخير اكون فعلا بخير ...

_ فرح! فارس! أرجوكما! هلا تركتماني مع والدتكما قليلاً!

رفع (فارس) رأسه من فوق صدري وكان لايزال ممسكاً بيديّ وعيناي مغروقتان بالدموع فأذعن ونهض وكذلك فعلتْ (فرح) بينما خفق قلبي ذعراً, فلماذا قال (أمير) ذلك لهما ولماذا أذعنا له وتركاني بمفردي معه!؟

_ ما الأمر يا (أمير)....؟!

_ فاتن! أنتِ تعلمين كم أعزّك وكم أنتِ أثيرةٌ لدّي!

_ ما الأمر يا (أمير) أرجوك تكلم!! أنا لستُ على مايرام!

_ ولذلك أنا أكلمك على انفراد! أنتِ في حالةِ انهيار غصبي! لقد حذرني الطبيب من أية أثارةٍ عصبية! أنت لاتستوعبين الأمر! لقد نجّاك الله هذه المرّة وإلاّ....

أدمعتْ عيناه وهو يتكلم فنظرتُ إليه بألم وشعرتُ بحزن شديد....

_ فاتن! لا أُريد أن أفقدك! هل تسمعين! هلاّ أصغيتِ إليّ رجاءاً! ماحدث قد حدث, لاأُريدك أن تؤذي نفسك ولا أن تتعصبي لمّا تري (روزالي) مع ابننا (فؤاد)! لقد أختارا بعضهما, وانتهى الأمر.... إنهما ولداك كلاهما.... إن لم تكنْ لفارس فهي ستكون لفؤاد! لاتؤذي نفسك! أنهمرت الدموع من عينيّ عند كلامه ذاك فقلتُ بوهن...

_ وماذنب ولدي الحبيب (فارس)! ينتظرها طيلة تلك السنوات وقد أحبّها حبّاً جماً.... ماذنبه! أين العدلُ في هذا! كم هو مسكين! حبيبي (فارس)! لقد أراد أن يفاجئها, ففاجأتنا جميعاً بما لمْ نكن نتوقعه!

_ فاتن! صدقيني! فارس سيتفهم وسينسى الأمر.... سيتجاوزه إنْ صحّ القول لي, نعم.... حبيبتي... لأنّه أيتها الغالية فاتن, قد رباها كأبٍ حنون... وهو يفضّل مصلحتها على مصلحته....

_أوَ هكذا تكون جائزتُهُ ومكافأتُه!؟ كيف استطاعت!

وأنهمرت الدموع من عينيّ مرةً أخرى فجلس (أمير) على حافة سريري ونظر إليّ بغضب وهو يقول:

_ ماذا قلتُ لك! لاشدَّ عصبي! أنتِ تذكرين (فؤاداً)....

ماذا كان يقول دوماً.... أوَ لم يكن يقول, سعادتك تهمني أكثر من سعادتي وكان دوماً مستعداً لإعطائك حريتك على حسابِ نفسه كي لايشعر أنّه قد ظلمك.... وماتطليقه لك عندما كنّا نعمل في الشركةِ سوياً إلاّ لأجلكِ, أو لاتذكرين! ثم إنه لمّا طلقك مرةً أخرى وأجبرك على الزواج مني! لمَ فعل ذلك برأيك!!؟ لأنه يعتبرك ابنةً له, قبل أن تكوني زوجته.... لكنّه لم يحتمل بعد ذلك....

وأشاح (أمير) بوجهه عني كي لاأرى تأثرهُ بكلماته تلك عن زواجي منه.... شعرتُ بالحزن الشديد لأجله, ساد صمتٌ بيننا لدقائق ثقيلة الوطئ عندما نظر إليّ فجأةً....

_ أو تعرفين يافاتن ما الذي يزيدني تمسكاً بك وحباً رغم مرور هذه السنين... أو تدرين...

_ أمير... أرجوك!

_ كلا! كلا! أنا لا أغازلك, ولا أحاول ذلك حتى! كلا.... أنتِ عنصرٌ نادر.... ها أنذا أرى ابنة أخي في أوّل فرصة لها, تترك (فارساً) لأنها وجدت مواصفات أروع وأفضل منه! أمّا أنتِ.... فأبداً... أبداً, ودائماً.... (ونظر إليّ نظرةً مليئةً بالأحترام والحب) لم تتركي أخي, رغم كل شيء...

_ أمير! أرجوك يا أمير.... ليس هذا وقت هذا الكلام....

_صه! ودعيني أكمل! (وضع سبابته على شفتي)....

(شعرتُ بالإحراج الشديد فصمتت)... أكمل كلامه وهو ينظر إليّ ...

_ دوماً ما كنتُ متاحاً أمامك, ولطالما حاولتُ معك بشتى الطرق, أن أغويك... نعم.... أن تأتي إليّ... أن تتركي أخي, ثأراً منه, نعم, ربما, وثأراً لكرامتي, نعم, ولأنّه خطفك مني, وأنتِ أمام عينيّ ولم أعلم متى ذهبتما الى المسجد ومتى عقدتما قرانكما... كان ذلك منذ زمنٍ طويل, نعم صحيح... لكنّه لا يُنسى... الجرح... (وأشار الى صدره جهة قلبه).... إنّه هنا....

بقيتُ أرقبكما بغيرةٍ شديدة وأنتما تضحكان وهو يغازلك من بين سطر وسطر وأنتِ تخجلين إظهار ذلك أمامنا.... كنتُ أتظاهر باللامبالاة, لكنّ قلبي يستعر.... لماذا أقولُ لكِ هذا الآن! لأخبرك أمراً! أنا لا أريد أن أؤذيك, بل بالعكس, أريدك بخير وأن لاتهتمي ياعزيزتي (فاتن) فلربما أراد الله أن يُري (فؤادك) مامعنى حرقةِ قلبي عليكِ... لربما كان عقاباً لنا جميعاً وأنا و(أنتِ) وهو ! لاأدري!....

لكنّ ماجرى كان درساً لي, رأيتُ فيه مقدار عظمتك وازداد حبي لك... ولن أقول لك سوى أنني ماكنتُ لأحبك هكذا لو لمْ تكوني مخلصةً لأخي الأكبر مع كلّ علّاته غاية الأخلاص, لكنتِ كأيّةِ فتاةٍ عرفتها فأخذت رغبتي ولما انتهت ، شبعتُ منها, فانتهى الأمر... أعترف لك, نعم.... آه, أنتِ لاتدركين كم كبُرتِ في عيني ولكن كم تألمت لأجلك في آنٍ معاً, وأنا أراك

تبكين.... لقد عرفت أنك قد بكيتِ أيتها الغالية لمّا أخذتُ (فؤاد) وصعدنا الغرفة إليكِ, فوجدتُ آثار الدموع على وجهك... وأنا أعلمُ لم قد بكيتِ يا عزيزتي!!

_ يا الهي! يا (أمير) .... هل أنا مكشوفةٌ أمامك لهذا الحدّ....

_ فاتن! لسنا صغاراً! أرجوك.... لتعلمي أني أزددت وأزداد أحتراماً وحبّاً لكِ لأنك ترعين أخي.... من كان ليرعاه لولاك.... حتى أنا... لم أكن لأستطيع البقاء معه دوماً مهما كان الأمر.... أنت تمدّينهُ بالرعاية الروحية والمعنوية والجسدية معاً... أولا تعلمين أنني أعرف مقدار معاناتك, وأنني أعرف مقدار عجزِ أخي... لقد كبر وهو مصاب بالسكري منذ أمدٍ بعيد جداً... وأنا أعرف كم تقاسين بصمت....

_ رحماك يااالهي! (أمير) أرجوك كفى....

بكيت دونما شعور فنهض (أمير) بسرعة ونظر إليّ بحزن...

_ أعتذر منك أيتها الغالية..... أنتِ شخصٌ مقدس بالنسبة لي وسأظلّ أحيا على ذكرياتي الجميلة معك الى الأبد, وحتى آخر يومٍ من حياتي... وأعتذر منك, لكنني....أردتُ أن أقول لك, لاتؤذي نفسك رجاءاً, فلقد تمّ الأمر وأختارت (روزالي) ابننا ولذلك.... لنتمنى لهما السعادة..... عن إذنك... سأذهب لأتركك ترتاحين...

الفصل التاسع والثلاثون

وفعلاً... لقد تمّ الأمر, وبسرعةٍ هذه المرّة.... وكأنّ التاريخ يعيد نفسه, فقد جاءت روزالي متأبطةً ذراع (فؤاد) ولدي, كأنما هو (عمّه) نفسه عندما عاد معي من المسجد وقد عُقِدَ قراني عليه من قبل شيخ المسجد.... بلى, فقد تمّ الأمر, ونظرتُ إلى (فؤاد) وهو يقبّل يدي وفي عينيه آثار دمع, مردداً كلمات العفو والسماح قائلاً لي:

_ سامحيني يا أماه! أرجو منكِ الرضا والسماح وأن تباركي لي....

_ حبيب قلبِ أمك.... طبعاً أُبارك لك يا ولدي....

نظرتُ إليه بحبٍ وحنان فلاحت مني نظرةٌ الى روزالي سرعان ما انكسرتْ وتحولت إذ أشحت بوجهي عنها, لأنني لم أستطع أن أسامحها في داخلي رغم كلام (أمير) معي...

لم أستطع أن أسامحها وأنا أرى أنكسار نظرات ولدي كلّما نظر إليها, وعدم تحدثهما سوياً, إذ أنّ (فارساً) لم يعد يكلّمها ويتجنب أيّ حديثٍ معها... كما أنّه لم يعد يكلّم أخاه... علمتُ فيما بعد من فاطمة وأنا أستدرجها بالكلام لمّا جلستُ معها في غرفتي, إذ جاءت لرؤيتي بعد خروجي من المشفى وقبّلتني واحتضنتني فسألتها عما حدث بعدما أعلنت روزالي ما أعلنته... في البداية لم تحكِ لي شيئاً ثم وبينما كنّا نتحدث, وأنا أنظر اليها بارتياب, إذا بها تنفجر بالبكاء وهي تقول لي:_

_ لاتنظري إليّ هكذا, أرجوك يا أماه! لقد أوصاني أبي أن لا أقول لك شيئاً... أماه! سامحيني, لكنني لا أتحمل نظرات الشك في عينيكِ ولم أعتدْ أن أكذب عليكِ....

_ تكلمي يا حبيبتي دون خوف! لن أخبر أباكِ أبداً ولن أُخبر أحداً صدقيني... لكنني (أم) وأريد أن أعرف ماحدث...

_ أماه! لقد أمسك (فارس) بتلابيب فؤاد! أُقسم لكِ أنني لم أكن أعلم.... صدقيني... لم أعلم أنّهُ يحب (روزالي) ولم يخبرني أبداً! لأول مرةٍ, ينفصل توأمي عني ويخفي سراً...

_ ماذا حدث بعد أن أمسك فارس بتلابيب توأمك! قولي....

_ نعم! أنا آسفة يا أماه!

(وبكتْ مرّةً أخرى)...

_لقد تشاجرا وضربا بعضهما وَلَكما بعضهما لولا تدخّل عمي وأبي فكل واحد منهما قد أمسك بواحد من أخويّ ووضعا يديهما خلفهما وشداهما الى الخلف بقوة وبشقّ الأنفس بينما عمي (فؤاد) واقف لا يستطيع التقدم نحوهما, لكنه صرخ بفارس أن يتعقل, فأخذ فارس يزبد ويرعد, ويتوعّد (فؤاد) توأمي أنّه لن يسامحه على فعلته الوقحة تلك وأنّه لو كان رجلاً فعلاً لما نظر الى خطيبة أخيه...

أعتذر منك يا أماه! لاتبكِ أرجوك! كل ذلك بسببي!

(كنتُ فعلاً أبكي دون أن أشعر, فذلك الأمر لم يك هيّناً أبداً عليّ)... ولذلك لم أستطع أن أنظر مجرد نظرةٍ واحدةٍ الى (روزالي) لأنني شعرتُ في داخلي أنها قد فرّقت بين ولديّي وأنّ جهودي كلّها وعمراً كاملاً قضيْتُهُ في تربيتها على الحبّ والأخوة.... قد باء بالفشل بسببها... لأنّ مافعلاه كلاهما, روزالي وولدي (فؤاد), لم يك شيئاً سهلاً أبداً... لقد شعرتُ أنّ قلب ولدي (فارس) يقطر دماً... لقد أضاع عمره ينتظرها.... لم يعد (فارس) يجلس معنا ولم يعد يشاركنا _(وجوده) , فلم يعد ولدي صغيراً... كيف أستطاعت أن تنسى في جلسة واحدة مع (فؤاد) ولدي, أو أي شخص غير ولدي, كيف أستطاعت أن تنسى كلمات (فارس) ولدي, أو أن لاتتذكر حنانه وحبّه لها, وحياتهما معاً.... من منّا كان ليصدّق أنّ (روزالي) لن تكون زوجةً لولدي (فارس), كنتُ لأقول, إنّه مجنون! رباه! كيف يمكن لها أن تنسى وتنكر كلّ ذلك ! لا أقول أنّ ولدي (فؤاد) غير جذّاب أو وسيم أو أنه لا يمكن لأي فتاةٍ أن تقع في حبّه من الوهلة الأولى, ولكنْ.... أن تُنكر كلّ الحبّ الذي كان بينها وبين (فارس)!! لم أستطع أن أغفر لها أبداً وشعرتُ أنّي قد أسأت الاختيار لمّا جعلتها تحيا تحت سقفي وتأكل وتشرب من طعامي ومشربي وتتربى بيننا!... لماذا فعلتُ ذلك! لقد جلبتُ ثعباناً دسّت السم في أحشاء كل شخصٍ من أفراد أسرتي! لم أعدْ أطيق النظر إليها... لم أعد أستطيع أن أكنّ لها أيّ حبّ أو

عاطفة... أصرّ أخيراً (أمير) أن يقيم لولدنا (فؤاد) حفل زفاف لكنني أخبرته أنني لن احضره..

جاءني (فؤاد) الصغير مرتدياً بدلة الزفاف وكان أنيقاً للغاية ووسيماً جداً.... أمسكتُ بوجهه بكلتي يديّ و قبلّتُهُ فوق جبينه, نظر إليّ والدموع تترقرق في عينيه...

_ ألن تحضري حقاً يا أماه! لماذا! (نظر إليّ بندم)

_ حبيبي! تمنيت لو كنتُ أستطيع.... سامحني....

_ حسنٌ يا أماه! إفعلي ماترينه مناسباً.....

تركني وذهب, فجلستُ على الكرسي أبكي بمفردي...مرّتْ ربع ساعه, كان الجميع قد ذهب الى قاعة الزفاف التي استأجرها (أمير) ليقيم (زفاف) ولدنا وليحضر فيها كل المعارف ومن أراد الحضور من الأصدقاء وأقاربهم, وبالتأكيد, كانت (فرح) و(فاطمة) وكان (هاني) و(أمير) ضمن الحضور ماعداي أنا وفارس و(فؤاد) الذي تركته نائماً في غرفته.... كنتُ جالسةً انذاك في مطبخي المطل على الحديقة الغناء أنظر الى الورود الجميلة عبر البوابة الزجاجية المطلة عليها, وكانت النوافذ الزجاجية مطلةً من الجهتين عليها, عندما دلف من داخل المنزل إليّ, ولدي (فارس).... رفعتُ رأسي نحوه... نظر إليّ بسرعة ثم تدارك نظراتي وهو يلتفت نحو الثلاجة....

_ لقد عطشتُ حقاً... ألم يبقَ أيُّ عصير في الثلاجة....

_ بلى! هنالك عصير صنعته بيديّ ومثلّجٌ أيضاً....

_ سَلَمَتْ يداك.... شكراً يا أماه, لقد وجدته! لكن....

(جلس أمامي الى طاولة الطعام ونظر إليّ عمداً هذه المرّة)...

_ ماذا! ماذا هناك يا ولدي؟!

_ لماذا أنتِ جالسةٌ هنا! أنتِ تعلمين عمّاذا أتحدث!

والتقت نظراتنا, فلم نستطع إلاّ أن نبعد نظراتنا عن بعض....

لُذنا بالصمت لدقائق قبل أن يتحدث (فارس).....

_ أماه! مهما كان, فهو ولدك.... وهذا عرسه! سوف يبقى الأمر محزناً له, ولن ينسى عدم حضورك! لسوف يشعر أنك تفضلينني عليه! هل فهمتني!

رفعتُ نظراتي الى ولدي, فوجدته يتكلم وعيناه تنظرانني بألم فعرفتُ مقدار الحزن الذي يحمله قلبه وضخامة الألم الذي يحمله كاهله, قلتُ له:

_ كيف تريدني أن أذهب وأتركك هنا .... كيف تريد مني أو أوافق على مافعلاه بك! لا... لا أستطيع أن أسامحهما مهما كان.... لن أغضب على ولدي لخوفي عليه....

لكنني لا أستطيع ... لا لا.... لن أتركك هنا وحدك....

_ أماه! حبيبتي.... أقول لك شيئاً....

نهض (فارس) ليجثو أمامي ويضع يدي بين يديه....

_ أرجوك حبيبتي.... أنتِ لن تسامحي نفسك... هيا بنا سآخذك بنفسي إن كنتُ أنا السبب في عدم ذهابك....

سنذهب ونحضر سوياً.... هل يرضيك هذا, وهل سيجعلك تذهبين!! هه! ردّي عليّ الآن يا أماه!

_ حبيبي! هل تتكلم بجدّية! هل ستذهب الى هناك!

قلتُ وأنا أذرف الدموع فهزّ رأسه موافقاً ونظر إليّ:

_ فلنذهب ولنأخذ الأذن من والدي ولنخبرهُ أين نذهب..مارأيك؟

_ أجل ياحبيبي... بارك الله فيك يا ولدي...

قلتُ وأنا أضحك بينما كانت الدموع تسيل من عينيّ... نظر (فارس) إليّ بحنان ومسح دموعي بأنامله وقبّل رأسي....

الفصل الأربعون

_ أماه! أنا لم أعد طفلاً أبداً.... أنا الآن قد وصلت الأربعين! هتف (فارس) بي وهو يشغل سيارته ليأخذني الى الحفل...

نظرتُ إليه بدهشة وقلتُ له بعد هنيهه لمّا وجدّتُهُ لا ينظر لي...

_ لماذا تتحدثُ هكذا! أطال الله في عمرك وحفظك يا ولدي....

_ أنا أقول لكِ هذا يا أمي الغالية, لتدركي أني أكبر من هذه الأمور كلها.... أنا لم أعد صغيراً ولربما أعذرها حقاً لأنّها أختارت (أخي) كونه أصغر مني بكثير ولربما يشبهها أكثر, ويفهمها أكثر وإلا لماذا فضلته في جلستين! صراحةً يا أماه! أجد أنَّ الحق معها, فأنا كبيرٌ جداً عليها.... الكل يعرف ذلك.... ولربما وكما علَّمْتني دوماً يا أماه فما يريده الله لنا هو الخير حتى لو كان فيه أذىً لنا أو فيه ألما مؤقتاً أوأذى لفترة ما.... فعسى أن تكرهوا شيئاً والله يريد لنا به خيراً كثيراً.... لربما....

(وتنهد وهو يضرب المقود بيده بحسرةٍ تفطّر لها قلبي)....

_ لربما ياأماه سأصاب بالسكري مثل أبي وستضطر حينها لرعايتي, ولسوف أظلمها حقاً.... يا أماه!! حقاً سأظلمها.....

صحيحٌ أنني أحببتها جداً.... ولكنّ حبّي لها كطفلةٍ لي, ربيتها على يديّ, وحنان الأب في قلبي تجاهها, قد غفَرَ لها كلّ مافعلته, وإنني يا أماه.... لأعذر أبي الآن, وأفهمه.... أفهم تصرفه معكِ عندما طلّقك وأجبرك على الزواج من عمي (أمير)! نعم!! لقد.... تغلبت أبّوته تجاهك على حبّك كزوجةٍ له لمّا رأى أنّه سيظلمك في عمرك الباقي معهُ, لأنك ستكونين مجرد ممرضةٍ له, يا أماه, هذا وهو لا يكبرك سوى خمسة عشر عاماً فما باللكِ بي أنا, وأنا الذي أكبرها بواحد وعشرين سنه! إنها طفلة! ماذا دهاني؟ وكيف.... لكن... صدقيني.... لقد أحببتها.....

ضرب بيده بقوة فوق المقود ووضع رأسه عليه فعرفتُ أنّه كان يبكي.... وفعلاً عندما رفع رأسه, كانت الدموع لاتزال معلقةً بأهدابه.... هتف وهو يمسحها بينما ضممته الى صدري وقلبي يعتصر ألماً عليه....

_ أمي الغالية.... لم ولنْ أجد مثلك أمرأة في هذا العالم..... أنتِ أمرأةٌ نادرةُ الوجود, ولذلك أنا .... لا ألوم أبي على حبك ولا عمي أيضاَ يا أماه!

_ صه ياولد! كفى....

قلتُ ذلك بسخرية فرفع رأسه نحوي ناظراً إليّ للحظات قبل أن ننفجر بالضحك سويةً.... هتفتُ بعد حين....

_ على ذكر والدك.... كيف نتركه لوحده! فأما أن نذهب لنحضر الحفل كلّنا ونستمتع بوقتنا, وإمّا أن لا نذهب! ماقولك؟

_ أمي الحبيبة.... لقد رفضتِ الذهاب لعرس ولدكِ (فؤاد) لأجلي....

_ حبيبي الغالي.... كنتُ أنتظر يوم سعادتك يوماً بعد يوم و أرنو لتتويج حبك بالزواج من أبنة عمك, لأرى أحفادي منك, لكنّ كلامك يا حبيبي جعلني الآن أخجل من نفسي, فمن نحنُ لنعترض على مشيئة الله.... صدقني, لقد دفع الله عنك شراً وبلاءاً في زواجك هذا.... كما قلتَ أنت..... لنذهب ونجلب أباك.... ما رأيك في هذا ياولدي الغالي....

نظر (فارس) إليّ نظرات الأعجاب والأمتنان قبل أن يهتف....

_ أمركِ سيدتي الجميلة, رغم كونك في الستين إلاّ أنك أجمل أمرأة في الكون....

_ حبيبي الغالي....

_ ماذا هناك يا فاتن!

هتف (فؤاد) وهو يفتح عينيه ناهضاً من فوق فراشه.....

_ من معكِ؟؟؟

_ إنه أنا يا أبتِ....

_ فارس, حبيبي.... تعال هنا يا ولدي.....

_ أبتاه..... ماذا هناك... أنا بخير....

نظرتُ الى فؤاد يتلمس وجه ولده بيديه ثم يضمّه بقوةٍ الى صدره... كانت هناك دموع في عيني (فؤادي).... صاح فجأة

_ كنتُ أتمنى أن يكون هذا يوم عرسك! أنا آسف جداً....

آسف لك يا ولدي وأعتذر منك لأنني حاولتُ أن أخفف ألمك, لكن العبارات خانتني... لم أستطع قول شيء....

_ أبتِ! أيها الغالي.... كفى أيها العجوز الوسيم!

صاح (فارس) وهو يرفع رأسه من فوق صدر أبيه وهتف به:

_ هل أنتَ جادٌّ يا والدي الحبيب! ماذنبكَ أنتَ!! كلاَ!

إنّه أمرٌ مقدّر وأنا راضٍ بما قَدّره لي الله..... إنها لم تخترني, ولو كانت قد اختارتني لما ارتضيتُ إلا بحبها لأنني أحببتها فعلاً..... ولكنْ.... لابأس الآن... فهي ستكون ابنتي وابنة عمي واختي الآن, لأنها ستتزوج بأخي الأصغر....

_ حبيبي الغالي (فارس)! لاأعرف ماذا أقول!

هتف (فؤاد) بألم, بينما صاح (فارس) فجأة.....

_ هيا يا أماه! هلّا أبدلتِ الثياب لهذا العجوز الثمانيني ,

كي نذهب سويةً لحفل زواج ولدك وابن أخيه....

_ ماذا! ماذا تقول يا فارس, يا ولدي!!

_ مثلما سمعتَ تماماً.... هل تأتي معنا أم لا.... أنا لن أحرم أمّي من حضور حفل زواج ولدها, وأيضاً!! لن أفُوّت فرصة حضور زفاف أخي الأصغر.... أنا حملته بين ذراعيّ وهو طفل صغير.... أنا يا أبت أكبر من أن أكون مراهقاً أو شخصاً غراً, لقد كبرت ونضجت, وأعرف الحياة جيداً... لا بأس عَلَيّ....

قال ذلك وهو يربت بيده على يدي والده....

ذهبنا سويةً الى الحفل بعد أن ألبست (فؤادي) أجمل وأروع بدلة تنفع لحضور حفل زفاف راقٍ كحفل زفاف ولدي الذي ما أن رآني حتى شعرتُ أنّ قلبه قد أرتاح وأنّ فرحته قد اكتملتْ.... قفز نحوي تاركاً عروسه ليقبّل يديّ ورأسي.... كنتُ سعيدةً جداً بسعادته.... نظر بسرعة نحو أخيه (فارس) الذي قال له بأقتضاب بعد أن شكره بخجل على جلبي الى حفل عرسه وزفافه....

_ مبارك لك يا أخي....

فترقرقتِ الدموع في عينيّ (فؤاد) الصغير الذي لم يصدّق ماقالهُ (فارس) فاندفع نحوه يحتضنه ويقبّله لأجد (فارس) قد تصرف بكل نضوج وظلّ مبتسماً بينما (فؤاد) الصغير يقبلّه ويشكره, ثم نظر إلينا كلينا بسعادةٍ وغادر عائداً مجلسه... بعد قيام (فؤاد) بعقد قرانه على (روزالي)-عُزفتُ الألحان والنغمات التي أخذ الحاضرون يرقصون عليها رقصاتٍ رومانسية إذ أخذ (فؤاد) بيد (روزالي) التي لاحت منها التفاتةٌ نحونا, فوجدتُ عيني (فارس) تلتمعان ببريق عجيب ثم خبا ذلك اللهب وأُغلق عينيه وأشاح بوجهه عنها.... كانت في تلك الليلة كحورية البحر الجميلة, تنثر جمالها في كل مكان....

لا, لن أستطيع وصف جمال (روزالي) الذي أوقع ولديّ في حبها, بشعرها الأشقر المشابه بشقاره شُقْرةَ شعر والدتها, وبتلك الزرقة الجميلة في عينيها والذي يزيدها بهاءاً ورونقاً هو

ثوبها الأبيض وطرحتها البيضاء.... كانت نظرتها نحو (فارس) ألماً ممزوجاً بندم وحزن وحب في آنٍ معاً.... لقد أحبّته كثيراً طوال سنوات عمرها, لكنني لم أفهم كيف تسنى لولدي الأصغر ان يقنعها في فترةٍ قصيرة أن تحبه وتختاره؟!

أخذ (فؤاد) الصغير بيدي عروسه يراقصها, عندما تفاجأت بيدي (فارس) تمتدان نحوي, نهضتُ من فوق كرسيّ حيث جلستُ الى جوار (فؤاد) وبقربنا جلس (أمير) وهاني على طاولة واحدة.... رفعتُ رأسي الى (فارس) وأنا بين ذراعيه....

أبتسمتُ بسعادة وهو يبتسم لي.... ردّدتُ في سري ثم تمتمتُ له, بحيث أنّه سمعني إذ قربت شفتي من أُذُنه وهمستُ له ونحن نرقص مع بعضنا....

_ هل تعلم كم أنا سعيدةٌ اليوم..... سعيدةٌ بك, سعيدةٌ لأنني ربيتُ أنساناً حقيقياً.... يُفضّل الغير على نفسه.... سعيدةٌ لأنني وصلتُ نهاية رحلتي, فلا يهمني ماسيحدث بعد هذا, فأهم شيء هو البقاء مترابطين كأسرةٌ واحدة مهما حصل...

((الخاتـــــمة))

بعد سنوات يمكنكم أن تزوروا منزلي.... أنا جالسةٌ أكتب في كتابي هذا وأحفادي يلعبون حولي.....(فؤادي) جالس بقربي وقد ناهز التسعين من العمر....

_(أمير) وهاني يلعبان (الطاولي) بقربنا.... ابن هاني يجلس بجوار (فرح) ابنتي وبين يديها طفلها الصغير بينما يلعب طفلها الأوسط بينهما وتجلس حفيدتي الكبرى قربها ترعى أخاها الأوسط وتراقبه كي لايسقط أو يؤذي نفسه....

أمّا فاطمة فقد جلست تحمل طفلين توأمين ناولت أحدهما لأخيها التوأم الذي اخذ يرضعه بوساطة زجاجة الحليب.....

كان ذلك المشهد أجمل ما يكون, ولعلّ الموت لو جاءني بعدها فلن أبالي, لأني قد أطمأننتُ على أولادي و رأيتُ أحفادي ... لكنْ.... هل نسيتُ أحداً في هذا المشهد!!

رباه!! نعم.... إنهما (فارس) و(روزالي).... فبعد مرور مدّةٍ طويلة جداً من زواج (روزالي) بولدي (فؤاد) الصغير, وبعد أن رزقا بتوأم جميل كان كلاهما ذكرين أسميناهما (أمير) و (هاني)..... بعد كل هذا, وبعيداً عن مشهدي الأخير, أقول.... بعد أن أصبَحَتْ روزالي أمّاً ومسؤولةً عن رعاية توأم, تركتْ المنزل وغادرت مع صديق أميركي, دون وداع, ودون مقدمات, فوجدتُ أنّها قد شابهت أُمُّها ولذلك لم تظلم.... (فمن شابه أباه فما ظلم).... كان حزني شديداً على ولدي (فؤاد) الذي لم يك في صدمةٍ من أمره... لأنّه في البداية تعذب كثيراً ولسنوات حتى أقنعها بإنجاب الأطفال, فقد اشترطت عليه إكمال كليتها ثم ولمّا أنجبت التوأم بعد التوسل من قبلنا والمعاناة من قبل ولدي, ومحاولتنا إقناعها, من قبل جميع الأطراف.... أقول:

بعد أن مرتّ أشهر على ولادتهما, (وقد كانت مشاكل (روزالي) و(فؤاد) وصياحهما في ازدياد), فأصبح الكل يسمع صوتهما لمّا يتشاجران في غرفتهما, بل زاد الأمر سوءاً, إذ

أصبحا يتشاجران أمامنا, وكان علينا أن نهدئ من روعهما كل مرّة ونعيد الأمور الى نصابها, وعلى كل حال, فقد كان (فؤاد) غير مصدوم من فعلها إلّا قليلاً, لأنّ تصرفاتها المسبقة قد مهدّت لذلك الأمر.... بدأت تخرج دون إذنه, وأخذت تُهمل طفليها وتتركهما على والدهما وعليّ, ومما زاد الطين بلّةً تأخرها عن العودة الى المنزل, ولمْ يكن (فارس) يكلمها بعد زواجها من أخيه, إلّا على مضض أو بقدرٍ قليل....

لم يبق الأمر طويلاً, فقد عرف (فؤاد) أنّ روزالي قد تعرفت على شاب أميركي وبدأت مشاكلهما تزداد تفاقماً بشكل كبير حتى اتهمها (فؤاد) يوماً ما بخيانته.... فكانت تلك الطامة الكبرى, إذ طلبت الطلاق منه فهددها أنها لن تحصل بطلبها الطلاق على توأميه, فوافقت بعد حين ورحلت....

أمّا ولدي (فارس) فلم يحضر تلك الأحداث الأخيرة لأنّه كان في شهر عسل مع أمرأة اختارها وأختارته, زميلةٌ معه في العمل من أصول عراقيه,

عمرها مقارب لعمره, اختارها بعقله لا بقلبه رغم أنها لم تكن قليلة الجمال, ولكن- هيهات لها أن تقرب جمال (روزالي)- وسافرا سويةً في لحظة كتابتي لخاتمة قصتي مع (فؤادي) عندما حـــــــــل الربيع فؤادي يوماً ما.... فؤادي الذي عصفت به رياح الخريف والشتاء حتى أذبلته ولم يعد يزهر فيه أي شيء....

ذلك أنني كنت أتحمل نزق طباع فؤاد وتغير معاملته معي كل حين واهماله لي وعدم كلامه معي إلا حينما يريد هو وبمزاجه الخاص ...كل ذلك جعلني أعيش وحدة مضاعفة وأشعر بخواء نفسي رهيب....

ولما كان أمير يأتي لزيارتنا وينظر إلي بعينيه الحنونتين....كنت استذكر أيام زواجي منه وكيف كان يرعاني ويخاف على مشاعري ويراعي الله فيّ....رغم أنه_لم يكن ملتزما التزاما دينيا حقيقيا!!! وكان ذلك يمزقني من الأعماق لأنني كنت أعيش تناقضات كثيرة مابين حبي لفؤاد واخلاصي له..ومابين حب أمير لي وتعطشي لمن يروي انوثتي المهمشة المهملة لسنوات طويلة ...كنت لليال طويلة أحتضن وسادتي وأبكي لوحدي لما أختلي بنفسي في

جوف الليل ...صحيح أنني لم أعد صغيرة ..لكن مراهقة المرأة الثانية تبدأ بعد الأربعين...ولقد وجدت نفسي وحيدة تتصارعني رياح الخريف بعدما حل الربيع فؤادي..وجدت خريفا أعقبه شتاء قاس....قاس جدا وكنت كل ليلة أسأل الله أن يقويني ويؤتيني السلوى كي أنسى احتياجي كأنثى لرجل يحتويني ويحبني ...كنت أسأل الله كل ليلة وانا افترش مصلاي أن يجبر خاطري ويسليني عن احتياجي وفطرتي التي خلق الله النساء في كل الدنيا عليها وأن يعوض صبري خيرا في اولادي واحفادي ...ولذلك كنت أجهد نفسي في العمل نهارا وبشكل مضاعف...كي انام بسرعة ما أن احتضن وسادتي وكي لاافكر بفؤاد...ولا بأمير...وكي لا أتذكر أي شيء من تلك الذكريات الجميلة التي كان فؤاد فيها يحتضنني ويحبني ويسمعني كلمات تسعد أي أنثى في الكون!!!

ثم أتذكر اهماله لي وصراخه في احيان كثيرة عليّ عندما أدخل غرفته ثم اعتذاره مني بعد ذلك لما أعود لأرعاه وأقدم له الطعام وهو لايرى شيئا ...أقول أنني كنت أجهد نفسي كثيرا_

كي لااتذكر فؤادا ولا أميرا ولا أي ذكرى جمعتني معهما....لكن نظرات أمير وكلماته وهو يناديني بياض الثلج خاصته...همساته الناعمة وهو يهتف بي لما اناوله الشاي أو الطعام...نعم

كنت استذكر كيف كان يقبّل خصلات شعري قبل أن ينام لما كنا متزوجين وكيف كان يضع شعري تحت خده وهو ينظر إلي بسعادة لاتضاهى وحب عظيم ويظل يعتذر مني لمّا اختلى بي في تلك الليلة التي على حسب تعبيره _تجرأ بلمسي لشدة شوقه وحبه لي ... ولأنه وجد صدّا مستمرا مني رغم غياب أخيه فؤاد وتأكده وقتها بنسبة كبيرة أنه قد توفي ...كان يكرر اعتذاره مني كل ليلة وانا اقول له أن لا يذكر الأمر مرة أخرى فيظل يقول لي بصوت خاشع ونظراته الحانية تذيب قلب أقسى أمرأة في الدنيا...

_رغم أنني نادم على ايذائك أشد الندم ورغم أنني لم أشأ ايذاءك وقتها ورغم أنني لم أكن في وعيي حينها ...لكنني سعيد بتلك اللحظات التي منحتني توأميّ اللذين جمعاني بك وجعلاني والدا وأباً....حبيبتي الغالية ...أنا أعتذر منك ألف مرة ...سامحيني...بياض ثلجي الجميلة...

كم كنت أقاسي في تلك الليالي من الإهمال والصراعات في داخلي ..فرغم كل شئ تبقى المرأة تحنّ لكلمات تشعرها أنها أنثى وأنها مرغوبة حتى ولو كبرت الف سنة ولو أن ذلك تعبير مجازي إن امكنني القول...إلا أنّ داخل كل أمرأة أنثى تصرخ راغبة في الحب والحنان والرعاية حتى لو كبرت وصارت جدة أو كبر احفادها...فهي بحاجة لذلك الإنسان الذي يحتويها ويضمها بين ذراعيه ويرعاها ويشعرها أنها هي الأنثى الوحيدة لديه...

عندما كان فؤاد يصرخ بي في احيان كثيرة ..كنت التجئ للصمت واتحمل نزق طباعه وانا ألبسه جواربه أو ثيابه...ثم ولما أخرج من الغرفة ...اظل أبكي بصمت واضم وجهي بين يديّ كي أحبس شهقاتي قدر الإمكان...كان ذلك بادئ تغير طباعه..أما مع مرور الوقت...أخذت اعتاد المسألة ولم أعد أبكي...اتحمل ثورته وكلماته الجارحة عن عدم معرفتي أو اتقاني لرعايته...ثم أولي بوجهي مبتعدة عنه...لم أكن أعرف كيف ومتى تغير هكذا...لكن ومع كل ذلك ...كان له بعض الكلمات التي تعوضني نوعا ما عن سوء طباعه ...المهم هو أنني يجب أن اذكر كم مرة كنت أبكي بمفردي لشعوري بالوحدة المضاعفة والإهمال من قبل أقرب شخص إلي...شعور لااستطيع وصفه كفاية...لكنه يقطع نياط القلب ويمزق الروح من الداخل ويدمي الفؤاد....فألتجئ بدون شعور مني إلى ذكرياتي مع أمير...وكيف أنه كان يرعاني وينتظر صدور نظرة رضى من عيني كي تبتسم عيناه...نعم ..كانت عيناه تبسمان لي كل صباح ...لقد أحببته في أعماق روحي ولكنّ حبي له لم ولن يصل معشار حبي لفؤاد....فؤاد الذي غزى قلبي منذ طفولتي وسيطر بدون منازع على كل مشاعري ووجداني....إلا أن لأمير مكانة خاصة لااستطيع انكارها في قلبي...هل كنت أجد فيه عوضا عن سنوات عجاف عشتها في حياتي؟؟؟لست أدري....كان يدللني كثيرا ...وينتظررضاي عنه في كل مرة يقترح أمرا ما عليّ....

نظرات أمير كانت تشعرني بدغدغة سعادة خفية داعبت وجداني دوما ...لكنني لم أستطع أن أترك حب فؤادي الذي رغم تجهمه معي وعدم كلامه واهماله لي...بقيت أحبه واعشقه واكاد أقبّل الأرض التي يمشي عليها...

وعلى الرغم من كل ماذكرت مسبقا...

فالآن وعندما تنظرون إليّ, وأنا أجلس بجوار (فؤادي) الحبيب, وهو ينظر الى الفراغ أمامه بعينيه الجميلتين.... فلسوف ترون السكينة منعكسةً على قسمات وجهي والسعادة ترقص في عينيّ....

فتلك أسرتي الحبيبة, وهذا هو الحبيب الذي اخترته واختارني وكان من حسن حظي أن وجدتُ الحبّ عنده في دنيا نبذتني منذ صغري وتركتني بين أياد ظالمة.....

التفتّ الى فؤادي وهو يمسك يدي فجأةً ويبتسم إليّ.....

_ هل تكتبين قصتنا.....

_ نعم يا حبيبي.... إنني أكتب قصتنا يا حبيبي... ولقد وثّقتُ فيها أبرز وأهم مامرّ على حياتي معك أيها الغالي, وقصّة حبنا الخالدة..... علّها تخلد مع مرور الأجيال حتّى وإن لم يقرأها سوى أحفادي, فستظل إرثاً لنا, ولربما يحالفني الحظ وأطبعها, ويعلم جميع الناس قصتنا, فتخلد مع حبنا الذي لن ينتهي حتى لو مِتُ أيها الغالي.....

_ وماذا أسميتها يا فاتنتي الصغيرة..... لم تخبريني أبداً...

_ الآن أسميتها لمّا انتهيت منها.... أسميتها يا حبيبي

((عندمـــــــا حـــــــــل الربيـــــــــع فـــــــــــــؤادي)) يا (فؤادي)!

_ حبيبتي الغالية... لا عدمتك يا حبيبتي.....

ورفع يديّ الى شفتيه يقبّلها, فشعرتُ بسعادة لا مثيل لها وقبّلت رأسه بعد أن قبلّت يده وهتفتُ به....

_ لاعدمتك أيها الحبيب الغالي .... وسأظلّ أُحبك ألى الأبد.... وكم أنا محظوظةٌ بحبك.....

_ رغم أنني لا أنفعك شيئاً, تقولين أنكِ محظوظةٌ بي,

بل أنا الذي يسمونه محظوظاً كما قال (أمير) دوماً....

محظوظٌ بحبك لي واختيارك إياي.... يا حبيبتي, وفعلاً.... لقد حل الربيع فؤادي الكهل, بحبك لي ورعايتك إياي, فلا حرمني الله منك ومن أسرتي التي كونتها بفضل الله وبفضلك....

(((النهايــــــــــــــة)))

عندما تنظرون إلى تلك القصة, ولمّا أقصّ عليكم نهايتنا, فلابدّ وأنّ بعضكم لاحظ في الجزئين الأول والثاني منهما أنّ لسان حال القاص كان هو من يروي عن (فاتن) و(فؤاد) وفي أغلب الأحيان, كانت (فاتن) هي المتحدثة عن نفسها....

ولابدّ وأنكم تساءلتم عن ذلك في أنفسكم, وهنا سأجيبكم يا أعزائي, فإنَّه أنا, من قمتُ بأداء وصية الكاتبة, وطباعة مذكراتها على شكل رواية مؤلفةٍ من ثلاثةِ أجزاء وكنتُ في بعض فصول الجزء الأول أتحدث بلسان القاص بدلاً عن لسانها, ولكنكم ستدهشون, وستقولون من تكون أنت ياترى لتحكي عنها ذلك.... نعم, إنّ ظنّكم في مكانه تماماً.... إنّه أنا بالذات, كما توقعتم.... أنا الأرثُ الذي أرادت له أن يستمر من بعدها عن طريق أن أحتفظ بمذكراتها فأورثها لأولادي, ولكنني لم أستطع أن أكون أنانياً وأحتفظ بذلك فقط لأطفالي, كلا! إنه لمن الأنانية أن أُبقي هكذا موهبةٍ مدفونة, وكلمات نبعت من قلبٍ صادق وتجارب عمر كامل دون أن أجعلها كنزاً تتوارثه الأجيال كلّها في كل أرجاء العالم, ورواية تحكيها الأجيال, وإرثاً يستمر مدى الدهر لكلّ البشر على السواء, فأنّه لمن النادر جداً, وخصوصاً في عالم كعالمنا المادي هذا, أن نجد حباً كذلك الحب وصدقاً وعمقاً في المشاعر كتلك التي كتبتها (فاتن) عن (فؤادها)....

ولقد طبعتُ روايتها دون تلاعبٍ مني بأحداثها أبداً, بل أضفتُ بعض الأمور التي وجد القارئ أنّها ليست بلسان حال (فاتن) والتي كان لابدّ لي أن أشرحها أو أن أوضحها.... ولكنكم لحدّ الآن لستم متأكدين من أكون (أنا)... أوَ لم تحزروا بعد؟! حسنٌ.... دعوني أعترف لكم بأمرٍ واحد, وهو حذفي لمذكرات والدتي الأخيرة عن قصتي مع (روزالي) ومعاناتي بعدما تزوجت (أخي), فأنا لم أستطع أن أحتمل إبقاء ذلك الفصل, كي يقرأه أبنائي أو حتى أبناء أخي من بعدي, لأنّ ذلك الفيض من المشاعر والإفراط في شرح معاناتي بأسلوب والدتي الرائع جداً, من الممكن أن يثير العداوة ويغرس الحقد في قلوب أبناء العمومة على بعضهم الآخر, وذلك أمرٌ لم تردهُ والدتي ولا أُريده أنا أيضاً.... لا أستطيع الأنكار أني بكيتُ مراراً وأنا أقرأ ما كتبتْ عني وكيف كانت تشعر بي لمّا تجلس (روزالي) بجوار أخي على مائدة الطعام, رغم أنّها لم تبين لي يوماً ذلك- رحمك الله يا أماه! كم بكيتُ وأنا أقرأ وصفها لآلامي ولنظراتي وهي تنكسر أمام جمال روزالي الأخاذ بينما أرى أخي الأصغر يدللها أو يغازلها..... ولذلك سافرتُ ..... لذلك لم أستطع المكوث في المنزل حتى قرر (فؤاد) العيش مع (روزالي) في شقةٍ أستأجرها عمي (أمير) لهما من أمواله الخاصة, ريثما يستطيع (فؤاد) الصغير أن يسدد دفعاتها من عمله مع والده في أحدى أفرع شركته التي توسعت وكبُرَتْ في أربعٍ من ولايات أميركا, وكان على رأسها ولاية (متشيغان) لكثرة عدد المهجرين العرب والعراقيين (المسلمين) فيها, وشركته تلك التي أسسّها بنقود والدتي بادئ ذي بدء لمّا باعت منزل جدها وأبيها وربحت القضية ضدّ زوج عمها التي لم تكن في البداية ترضى أن تبيع المنزل.... أقول- كل ذلك حدث بعد أعوام من زواج أخي و (روزالي) التي كانت في البداية متمسكة بمنزل والدتي الذي تربّت فيه ونشأت, على يديّ- لكنني أقولها ولحد هذه اللحظة التي أخطّ بها هذا الكلام, وأعلم أنّ زوجتي لربما تقرؤه, لكنني لا يمكن أن أنكر, أبداً, وجود حبها في مكان عميق دفنته في أقصى أعماق قلبي السحيقة حيث أغلقت الصندوق الذي دفنته فيه ورميت المفتاح (حينها) كي لا أفتحه مجدداً, ذاك لأنني لا أريدُ أن أصف, دون أن ينزف قلبي من جديد, عودتها بعد تركها لطفليها التوأم, ولكنْ متى؟

لقد عادت لتجدني بعد سنوات من تركها المنزل, لمّا طلبت الطلاق من أخي, لأجل (حبّ جديد).....

عادت لتجد توأمها قد أصبحا في العاشرة, أسماهما فؤاد أخي (هاني) و الآخر (أمير), كما ذكرت أمي سابقاً في قصتها, فإذا بهما ينظران بدهشةٍ إليها ليقولا لوالدهما بآستغراب:

_من هذه يا والدي؟ ماذا تفعل هنا؟

كانت روزالي ولا زالت, فتاةً انفعالية لكنها ذات رباط جأش, قفزت الدموع من عينيها في البداية كما لاحظتُ مباشرة لأنني اعرفها واحفظها عن ظهر قلب... إلاّ أنّها تمالكت نفسها بسرعة لتقول:

_ أنا أمكما يا حبيبيَّ, جئتُ لأراكما..... فقط.....

_ أوَ ليس لنا الحق في رؤيتك أيضاً يا ابنتي!

هتف عمي فجأة وهو يخرج من المطبخ فتفاجأت (روزالي) ولم تتمالك أعصابها إلا بالبكاء والإندفاع نحو عمي (هاني) الذي احتضنها وربت على ظهرها بينما دفنت وجهها بين ذراعيه وفوق صدره.....

كنتُ قد عدتُ للعيش في منزل أمي وأبي بعد أن تركت روزالي المنزل منذ وقت طويل ولكني لم أذكر عودتي له قبل ذلك بكثير, عندما استأجر عمي (أمير) شقةً لها مع أخي الأصغر ولكنْ, ورغم ذلك فقد كانت (روزالي) تعاود القدوم لمنزلنا كل حين, بحجة الأشتياق لأجواء العائلة, وفي الحقيقة, فهي في أعماق ذاتها- كانت تشعر برغبتها الدائمة في العودةِ الى أحضان عائلتنا (والعودة إليّ أيضاً رغم أنّها لم تكن تُظهر ذلك) – وكيف لي أن أتأكد, لربما, يشكّ القارئ ويظّن أني أبالغ, لكنّ الأمانة في نقل أحداث رواية والدتي جعلتني أعترف بأمر لم أُخبر به أي بشر أبداً, مطلقاً, وكي أبرئ ذمتي أمام الله وأمام نفسي وأمام زوجتي التي طالما شعرت بالغيرة كلّما ظهرت روزالي في حياتنا.... نعم.... أعتقد أنّ عليّ ذكر ذلك رغم كل شيء!!

فلقد جاءتني ذات ليلة وفتحت باب غرفتي ودلفت دون أن أدري ولفّت نفسها إلى جواري وكأنها طفلةٌ صغيرة عندما كنتُ أحكي لها قصصاً أو أدثرها, لعلها فعلاً كانت مشتاقة الى ذلك (الأب) الذي كُنتُهُ يوماً ما, ولكنْ لا... انتفضتُ فجأةً وهي تحيطني بذراعيها! كيف لي أن أسمح لها بذلك..... إنها زوج أخي, ومن المستحيل لي أن أخون أخي – رغم أنّه كان ينظر إليّ نظرات الحذر والغيرة في كثير من الأوقات (لعلمه أنّ روزالي لم تحبّه صدّقاً كما أكتشف فيما بعد)...

شعرتُ بالأسى عليها! كيف هانت نفسها عليها إلى تلك الدرجة.... صحتُ بها وهي تلف خاصرتي وتضع رأسها على صدري ويا للسماء (كم كانت جميلةً ناعمةً رائعةً!).....

_ ماذا تريدين ياروزالي!

_ أن تحبّني كما كنتَ سابقاً! أنا مستعدة لترك (فؤاد) !

_ ماذا تقولين! هل أنا لعبة بين يديك!

_ صه ! كفى!

وضعتْ أناملها على شفتيّ! كان إغواءاً من نوع رفيع... لم أستطع الكلام وتسارعت نبضات قلبي, كدتُ أن أشهق رعباً وكم كان اختباراً صعباً.... عيناها ساحرتان وشعرها ناعم أشقر جميل وجسدها الممشوق بين ذراعيّ وهي تضع عطراً مفضلاً لديّ (فهي تعرفني تماماً)

شعرتُ أنّي أذوب بين ذراعيها وأمام نظرات عينيها وصوتها الرقيق الغنج, وأخذ العرق يتصبب مني بينما هي تتقرب مني أكثر فأكثر, لكنني تذكرتُ فجأةً أنّ هذه الفتاة ليست سوى ابنتي التي ربيتها وشعرتُ بالحزن فجأةً متذكراً أنّ صغيرتي فقدت براءتها, حتى و إن كان ذلك قد تم على يد (أخي) ألأصغر, تألمتُ كثيراً واعتصر قلبي, وبتلك الذكرى انتفضت, ولملمتُ شتات شجاعتي المبعثرة بين ذراعيها وعطرها وكلماتها وقبلاتها الصغيرة فوق وجنتيّ, أبعدتها عني بقوة وقلتُ لها بهدوء شديد بينما وجدتُ دموعها تنهمر فوق وجنتيها وقد تكوّرتْ كهرةٍ صغيرة تضم ساقيها بذراعيها, وهي تنظر إليّ بدهشة:

_ روزالي! لقد تركتني واخترتِ أخي ولا يمكنني أن أخون أخي! مستحيل لي ذلك.... اذهبي رجاءاً....

لملمتْ أشلاء عارها المنكشف بكلماتي تلك ونهضت لتعدّل ثوبها المكشوف الذراعين وأعلى الصدر, لترتدي فوقه شالاً يغطي ما انكشف من جسدها, كانت أيقونة جمال (ولا زالتْ), وأي رجل في مكاني, ماكان ليستطيع مقاومة ذلك الجمال الرقيق, البض, والغض, والبريء والساذج والفتيّ في آنٍ معاً.... نعم, أقول جمالها برئ.... فمن ينظر إلى وجهها يظنّ أنّه ينظر ألى ملاك!....

أنكفأت على نفسي بعد مغادرتها, كانت قد استدارت ناظرةً إليّ مرّتين علّي أُغير رأيي أوأعدل عن كلماتي, فأناديها لتأتي إليّ, لكنني لذتُ بالصمت وكان قراري حازماً.....

في صباح اليوم التالي, لاحظتُ نظرات الحقد والكره في عيني أخي (فؤاد).... شعرتُ بحدسي أنّه قد فهم ماجرى, وأنّه قد افتقدها لمّا نهض من نومه, فلّما بحث عنها وجدها قد عادتْ إليه ولستُ أدري, هل علم بما حدث معي أم لا, لكنني خمّنتُ أنّه قد شعر بذلك,

وظنّ ظناً شبه يقيني, أنّها كانت عندي, لكنّه عَلِمَ أيضاً (كما خمّنتُ) أنني لم ألمس شعرةً منها....

وها أنذا أحكي الأمر هنا لأوثقه وليعلم أخي أنّي لم أَخنْهُ يوماً_ وأنّ الله لايهدي كيد الخائنين... وبدأت المشاكل بعد ذلك تكبر بينهما- أي بين أخي و روزالي- وكأن ماحدث معي كان الشرارة التي أوقدت الحرب.... لقد تأكدتُ مع مرور السنين أنّ (فؤاد) أخي قد علم بما فعلته روزالي معي, رغم أنّه لم يتكلم بالأمر حتى معها!!

ففي أحدى الليالي, كنتُ أمرّ صدفةً بقرب غرفة والدتي لمّا سمعتها تتحدث مع (فؤاد) أخي عن حياته مع (روزالي) وكيف أنّ عليه أنْ يعاملها بلطف دون صراخ. وماكان من عادتي الإستماع (خلف الأبواب- رغم أنّ الباب كان شبه مفتوح), لكنّ كلمات (فؤاد) وهو يحكيها بتعصب وبصوتٍ عالٍ, جعلتني أقف رغماً عني وأنا أحمل كوب الحليب الذي

جلبته من الثلاجة لأصعد غرفتي به (وكانت تلك طبيعتي لمّا يهجرني النوم, أن أشرب كأساً من الحليب كي أنام أسرع عند الأرق)....

_ أماه! عن أي علاقةٍ زوجيةٍ تتحدثين! لاتقارني حياتك مع والدي بحياتي! أرجوك! لقد كنّا في بداية زواجنا عندما وجدتها, بعد رجوع (فارس) من أحدى سَفراته المتكررة التي كان يهرب بها منّا, قد ذهبت الى غرفته.... واستمعت لها وهي تحاول إغواءه.... وبقيتُ قرب الباب لأقتحم غرفته وأصرخ به, لكنني وجدتها تفتح الباب وهي تبكي فابتعدت خلف إحدى قطع الأثاث في الممر بين غرفتي وغرفة (فارس).....

وقفتْ لعدّة دقائق تبكي وانكفأت على نفسها ثم نهضت تكفكف دموعها وعدّلت شالها واتجهت نحو غرفتي لتدخلها, فقررتُ تكملة مسرحيتها تلك, وعدتُ الى الغرفة وكأنني لم أعلم شيئاً ولمّا سألتني أين كنتُ, أخبرتها أنّي كنتُ عطشاناً وهبطتُ الى المطبخ!

أماه! لقد حاولت خيانتي مع أخي لو لا أنّه رَدَعها!!

وأنا لم أكلمها عن هذا الأمر مطلقاً, لأنني..... لأنني....

وسمعته يبكي فجأةً, وأكمل بين نشيجه العالي.....

_ لأنني أخجل من أخي! فأنا.... أنا من أخذها منه!!.....

قولي لي ماذا أفعل لها..... لقد أستأجر لها والدي شقةً رائعة, فلم تبق فيها إلاّ قليلاً وكلّما ذهبنا, تقول لي, أريدُ العودة الى منزل العائلة!!

لقد ضلّت (روزالي) تحبّني- أنا على يقين.... حتى هذه اللحظة....

وهي تبحث عني, في شخص كل رجل تحاول أن تبني معه علاقةً جديدة, أو حتى أن تتزوجه ثم تهجره وتطلقه بطلبِ منها, فهي لاتبالي مثل والدتي بالدين, رغم محاولات والدتي المستمرةِ أنْ تربيها على الخوف من المعصية وكلِّ ما تعلمته في بلدها هناك, في (العراق) من عادات وتقاليد.....

فروزالي تربتّ تربية أميركية على يديّ أنا.... ولعلّي أنا الذي كنتُ سبباً في ذلك نوعاً ما, كوني قد تركتُ لها الحرية في كل شيء ولم أكنْ أُجبرها على الإلتزام بأيّ أمور دينية- لأنني أنا نفسي لم أكن ملتزماً, وأنا أعترف بذلك... فلستُ أنا بالملاك الطاهر!!....

ولعلّي على سرّ والدي مشيت, فمن شابه أباه ما ظلم, إلاّ أني بعد زواجي وحصولي على طفلين رائعين, تبتُ الى الله ولم أعد أقيم أية علاقةٍ خارج أطار زواجي, بل أصبحتُ وفياً جداً لزوجتي ولا أستطيع خيانتها مطلقاً لا بأطار شرعي ولا غير شرعي.....

لقد أطلت المقام والكلام وأعتذر لكم, أعزائي القرّاء الكرام, ولكنّ خاتمتي هذه المخصصة لي, كان لابدّ أن توجد هنا, لأعترف للعالم كله, لا لأخي فقط, ولأخبر عن تفاصيل صغيرة أعوّض بها عن تفاصيل كثيرة حذفتها عن حياتي مع روزالي بعدما حصل في الفصل الأخير من مذكرات والدتي وروايتها عن حياتها وعني وعن أسرتها....

في داخلي وفي قراءة ذاتي.... دوماً ما أن تعود بي الأيام الى حيث كنتُ أحتضن (روزالي) لمّا كانت طفلةً وأحكي لها الحكايات.... ولكنْ, مهلاً.... لم أكمل لكم ماذا حدث لمّا جاءت لتجد ولديها قد أصبحا في العاشرة من العمر.... نعم, نعم, لقد فاتني ذلك وأنا أقصّ عليكم قصتي معها لمّا حاولت أغوائي ذات يوم....

كانت دوماً ماترمقني بنظراتها الساحرة(من تحت الأسطر), ودون أن يعلم أحد لأنني (أعرفها حقّ المعرفة)....

وكان قلبي بخفق بقوة لكل نظرةٍ منها, إلاّ أنّه سرعان ما ينقبض ويتذكر أن مفتاح الصندوق المقفل قد ضاع بعيداً.... وكنتُ أفكر دوماً... لعلّ قصة حبنا, أنا وروزالي, كتب لها أن تكون قصةً حزينة, لم تكللّ بالنجاح.... أو لعلّي في يومٍ ما أُقرر أن أجد المفتاح لأجعلها زوجةً ثانية لي, حتى ولو دون علم زوجتي؟ لستُ أدري....

هل عفوت, لا.... أنا لا أستطيع فعل ذلك؟ فمن يخون مرّه يخون ألف مرّه, وقلبي لم يعد يستطيع مسامحتها أبداً, وكلّما حاول, وبّختُهُ وزجرْتُهُ وقلتُ لهُ: (أيها الأحمق! هل تريدُ أن تكون مجرد تابعٍ حقير لها)....

عندما عادت الى المنزل في ذلك اليوم, ونظر طفلاها إليها لأول مرة بعد هجرها لهما, ونظرتْ إليّ من طرفٍ خفيٍ, علمتُ حيتها أنها لم تأتِ لأجلهم, بل كانت ترتجي أن تراني أحنّ إليها وأُعيدها حبيبةً لي, لكنْ هيهات, فليس ذلك (فارس) ولا يمكنتي أن أكون هكذا في يومٍ ما, خاصةً وقد تركتني (هي) لأجل أقرب الناس إليّ, فشقّت بيننا وادياً كبيراً كان للتو على وشك أن يزول وتظهر السهول بوردها وأعشابها مكانه, عندما ظهرتْ هي, وكان (فؤاد) أخي هناك (معي) في نفس المكان ..كنّا جالسين عندما التفتت إليّ ونظرت الى (فؤاد) بسرعة لثانيتين قبل أن تقول لي بصوت حازم وهي تنظر إلى عينيّ:

_ فارس! هل يمكنني أن أتكلم معك لدقيقتين؟

_ حسنٌ! ماذا! أنا!

تلعثمتُ والتفتّ نحو (فؤاد) بسرعة فوجدته يتظر إليّ نظرةً خاصة سرعان ما أبعدها عني وغض ببصره تحو الأرض....

ألتفتُّ نحو عمي (هاني) فوجدته ينظر إليّ أيضاً.... علمتُ أن عليّ تدارك ذلك الأحراج فنهضتُ لأخذها خارجاً....

_ أين ستكلمني أذاً!

_ في الحديقة! أين تريدين ذلك أذاً!

(هتفتُ بغضب) كانت والدتي هناك جالسةً بين عمّي وهما ينظران إليّ (أقصد عميّ ووالدتي بينما عينا والدي تنظران الى الفراغ وأذناه تصغيان إليّ كما كان واضحاً من قسمات وجهه وهو واجمٌ ينظر الى الفراغ أمامه ممسكاً بيد أمي)....

نظرتْ (روزالي) إليّ ثم إليهم واحمرّت وجنتاها! علمتْ أنّها قد أحرجتني أمام أسرتي وشعرتُ بالحزن لأجلها, لكنني أصررتُ على موقفي وخصوصاً وأبنا أخي ينظران إلينا بعد أن ألقت عليهما (روزالي) تحيةً فاترة وقبلتهما قبلةً باردة.... وقفتُ أمامها في حديقة والدتي أمام مطبخها....

_ ماذا هناك ياروزالي.... ماذا تريدين أن تقولي لي على إنفراد؟

_ لقد أحرجتك يافارس! أليس كذلك! أنا أصبحتُ مصدر إحراج..

قالت بألم وحزن وهي تنظر إليّ بحبٍّ وهيام ثم هتفت:

_ لقد عدتُ إليك!! أولا تريدني أن أعود إليك يافارس...

أما تعبت من هذه اللعبة السخيفة؟ أنا أحبك وأنت تحبني! أوليس كذلك!؟! لكنْ... أنا تركتُ صديقي, ولن أعود لأي رجلٍ سواك!! أرجوك سامحني... كنتُ غبيةً عندما فضلّتُ (فؤاد) عليك.... كنتُ مجرد فتاة ساذجةً غضةً ولم أكن أعرف ماهي مشاعري الحقيقية... نعم... ظننتُ أني أحبّه هو, لمّا تكلم معي قبل تلك الحفلة التي أردتُ فيها الأعلان عن قرار زواجك مني, نعم, لقد شعرتُ بالحبّ تجاهه حينها وغرّتني كلماته المعسولة وأعجبني تغزّله بي ونظراته إليّ أيضاً, كانت أفكاره أقرب إلى أفكاري فهو....

وحينها قاطعتها وأنا أقول وقلبي يعتصر ألماً....

_ لأنه أصغر مني بكثير وهو بمثل سنك, أليس كذلك!

_ لا! أنا لم أقصد ذلك! (هَتَفَتْ بألم وكادت أن تبكي)....

_ حسنٌ! على ذكر العمر.... فلعلك لم تدركي أنّ زوجتي التي هي في مثل عمري يا صغيرتي العزيزة و(ابنتي) الغالية, تنظر إلينا الآن من منافذ المطبخ متسائلةً عن السر الذي دفعك لمحادثتي على أنفراد؟ فماذا تقولين.... عزيزتي؟!

وهنا, وعندما قلتُ لها كلامي هذا, نظرت إليّ بحنقٍ وغضبٍ شديدين وتوردت وجنتاها وانتفخت أوداجها فصاحت بألم :

_ حسنٌ! لقد جئت لرؤية توأمي كما قلتُ سابقاً, وسوف آتي كل وقت أشاء فيه لأراهما, على الرغم من نظرات زوجتك لنا عبر النافذة أو النوافذ, هل تفهم.....

وسارعت بالدخول الى المنزل بينما جلستُ متهالكاً على مقعد في وسط الحديقة وقلبي يعتصر ألماً وحزناً....

وكما قصّتْ عليّ أختي الصغرى (فاطمة) فيما بعد, فقد دخلت (روزالي) حانقةً الى المنزل لتقول لتوأمها أنّها تريد رؤيتهما دوماً وأنها سوف تأتي لتصحبهما للخروج معاً, قالت ذلك وثم التفتت إليهما فجأةً وهي تضع حقيبتها على كتفها:

_ هل تريدان القدوم معي الآن؟!

وبين دهشة الوَلَدين وارتباك الأم, نهض عمي (هاني)ليربت على كتف ابنته وهو يقول لها بصوتٍ حانٍ:

_ لربما في المرّة القادمة, عندما تزورينا في وقتٍ أقرب....

_نعم, نعم! أجل! شكراً يا أبتِ (ابتسمتْ له ثم عبستْ) وداعاً إذاً..... حبيباي, سأذهب الآن, أنا أحبكما, ... لاتدعا أحداً يخبركما بشيءٍ آخر هل تفهمان....

قالت ذلك وهي تحتضنهما بينما هما ينظران بدهشة ولم يجيبا بشيء, ثم التفتت نحو الجميع وألقت التحية وعيناها تكادان أن تنفجرا بنهرٍ من الدموع (حسب كلام فاطمة)....

وهكذا استمرت روزالي بالقدوم الى المنزل كلّ فترة بعد غيابها الطويل جداً عن أبنيها منذ أن كانا رضعاً,

لمّا دخلتُ المنزل بعدها, (إذ شاهدنها تخرج حانقةً جداً) وجدتُ عمي قد دفن رأسه بين يديه وأخذ يبكي بحرارة,

فأسرع عمي أمير يواسيه ونهضت أمي تحوه تكلمه, بينما وجدتُ أبي قد أكفهر وجهه وبان الحزن الشديد على ملامحه, وسرعان ماكلمني وكأنّه قد علم بدخولي للمنزل(كأنما يراني!)

_ اذاً! فقد خرجت غاضبةً منك! ألم تستطع أن تكلمها كأبٍ حنون أو أن تدعها تعود الى أحضان أسرتها التي تحبها؟!

كان لابدّ لك أن تعرفها, فأنت تعرفها أكثر منّا جميعاً يا ولدي, فأنت من ربيتها على يديك!

_ نعم ياعمي! كان لابدّ له أن يوافق على عرضها وأن يوافقها على هواها, وأن يجعلها صديقته وخليلته وأنا واقفةٌ أنظر اليهما عبر النافذة ...أليس كذلك!

هتفت زوجتي فجأةً وقد ظهرت حاملةً صينية الكعك والشاي بين يديها كما علمتها والدتي أن تفعل- لأن تلك كانت عادتنا كل أمسية- فنظرتُ اليها شاكراً لأنها خلصتني من مأزقي الذي أوقعني فيه أبي, وهناك, نظر الجميع إليّ كي يتأكدوا من صدق كلامي وصاح (فؤاد) أخي بي فجأة:

_ أصحيحٌ ذلك الأمر, أم أنّه مجرد تكهنّ من زوجتك وغيرةٌ وشكوك؟ تكلم؟؟؟؟

لم أتكلم... لم أستطع أن أقول نعم أو لا, لكنّ عينيّ تكلمتا بذلك, والتفتّ نحو زوجتي لأقول لها بصوت شاكر.....

_ عزيزتي..... شكراً لك.... هلّا ناولتني كوباً من الشاي....

قلت ذلك وجلستُ بجوار والدتي, التي بادلتني نظرات المواساة والحزن والألم مع قليل من الحيرة والندم....

كانت والدتي تفهم شعوري تماماً.... ووجدتُ يدي والدي منقبضتين بقوة فوق ذراعي الكرسي الذي يجلس عليه, ليواري الألم الذي بات يرتسم على ملامح وجهه وقد علم أنّه قد آذاني وأحرجني بسؤاله ذلك رغم أنّه لم يقصد شيئاً سوى مواساة أخيه (هاني) الذي ظلّ واجماً بعد سماع كلمات زوجتي وارتسمت علامات الدهشة والحزن الشديدين على وجهه.....

ولقد بكيتها.... نعم.... بكيتها وأنا أنام قرب زوجتي تلك الليلة.... كنتث أشعر بألم شديد.... فبكيتْ....

نعم..... بكيتُ رغم أنني لم أبكِ على أمرأةً من قبل....

في عيد رأس السنة, اجتمعنا سويةً وجاءَ زوج فرح وابن عمي مع فرح مثل كلِّ مرّةٍ حاملين الكعك والحلوى التي صنعتها فرح لهذه المناسبة العائلية تتبعهما ابنتهما الكبرى, وكانَ توأما (فؤاد) يسكنان معنا- في بيت الأجداد- وجاءت فاطمة مع زوجها الذي كان اميركياً مسلماً من أصول عراقية يعمل مع عمي أمير في شركته وأعجب بها و اعجبت به و(تمت الزيجة)

كانت أمي قد أتمت عملها في المطبخ, كما عودتنا على حلوياتها التي احببتها منذ الطفولة وهي عبارة عن مايسمى بالعراقية (الكليجة), والتي كنتُ أستمتع بطعمها عندما تضع أمي لب الجوز مع التمر في منتصفها.... كانت حلواي المفضلة وقد صنعتْ الشاي معه كما يحبّ والدي أن تقدمه له..... لكنها هذه المرّة لم تقدم له سوى الشاي رغم أنّه توسل إليها تقريباً ...غير أنها أصرّت ألاّ يأكل أي قطعة فامتعض كالأطفال بحركات من وجهه ابتسمتُ لها دون أرادة.....كان (فؤاد) أخي جالساً ينتظرني لأكمل معه ربط الزينة على شجرة الميلاد, فذهبتُ مسرعاً إليه حينما لاحت مني التفاتةٌ إلى عمّيَّ العجوزين وهما يلعبان الشطرنج كعادتهما.....

جلسنا جميعاً عند مائدة العشاء نتسامر ونضحك ونتبادل الأحاديث, عندما طُرق الباب فجأةً فصحتُ أنا بصوتٍ مرح بينما زوجتي تنظر إليّ وعن يمينها وشمالها طفليّ الحبيبان, ونظراتها تشعّ محبةً وسعادةً ورضا....

_ سأفتح أنا الباب.... لا يقومَنّ أحدٌ من مكانه!

_ مرحى لك يا أخي!

هتف (فؤاد) مازحاً وهو يلكزني في ذراعي فنهضتْ....

فتحتُ الباب وأنا أضحك, لمّا تجمدّت ضحكتي برؤيتي ذلك الجمال الباهر الذي طالما خفق له قلبي...

_ مساء الخير يافارس! هل يمكنني الدخول! أنا أتجمدّ!

ماتت الكلمات عند شفتيّ وتلعثمتُ... لكنني أجبتها بعد دقيقة من الصمت الذي شعرتْ هي به بشكل واضح....

_ نعم! تفضلي بالتأكيد.... إنّه منزلكِ... (فنظرت نظرةً خاصةً إليّ وابتَسَمت).....

تفاجأ (فؤاد) وهو يراني أدخل من غرفة المعيشة الى المطبخ حيث اجتمع الكل حول المائدة.... وكانت غرفة المعيشة مفتوحةً على المطبخ نوعاً ما من ناحية المطبخ البارد الذي لايستخدم فيه الطباخ إلا من الجهه الأخرى, فنظرتُ الى (فؤاد) بنظرات بريئة أُعلنُ له فيها براءتي من معرفة مسبقة لتلك الزيارة المفاجئة.... ولقد استاءت زوجتي جداً برؤيتها لروزالي وانقلب مزاجها عكسياً, ولاحظ الجميع ذلك بمن فيهم (روزالي) ذاتها وبقيتُ أنا لا ألوي على شيء حتى جلس الجميع في الصالة وحملوا أقداح الشاي التي قدَّمتها والدتي لهم بعد تناول الطعام..... ولقد لاحظتُ نظرات روزالي لي بين الفينةِ والأخرى طوال فترة العشاء بينما كان عمي يسألها عن أخبارها وبينما كانت هي تتحدث مع توأمها وتسألهما كل حين عن أخبارهما وعلمتُ أنّ زوجتي متنبّهةٌ تماماً للأمر, ولذلك كنتُ حذراً للغاية (لأن لايظهر أي شيء مثير للريبة عليّ أمام زوجتي).... ولكنني رغم

كل احتياطاتي وحذري, لم أستطع أن أمنع روزالي من الجلوس بقربي برغبةٍ منها ومحادثتي أمام زوجتي التي كانت جالسةً بشكل ملاصق لي....

_ عذراً! هل يمكنني الجلوس ومحادثة ابن عمي.... كيف حالكما!

هتفت روزالي فتململْتُ في جلستي بينما بان الحنق على وجه زوجتي ونظرات الغضب موجهةٌ نحو روزالي...

_ حسناً, ماذا تريدين! نحن في أحسن حال.... أنا وزوجي الحبيب منسجمان وسعيدان للغاية, ولقد كنتُ أتساءل متى تتزوجين؟

التفتُّ نحو زوجتي وكدْتُ أن أصرخ بها حينها, بعدما كانت تمسك بكتفي وتسند رأسها عليه بدلال مصطنع أمام روزالي, التي كانت كلماتها عذاباً لزوجتي حينما قالت:

_ حسنٌ, كم أنا سعيدةٌ لأجلكما... أمّا عن زواجي, فقد كنتُ أنتظر أخذ رأي الرجل الذي رباني وابن عمي, وزوجك الغالي, من بعد إذنك طبعاً.... (ونظرتْ الى زوجتي) فارتبكتْ الأخيرة..... كانت (روزالي) قد طلبت منها النهوض بعيداً عنّا بشكل دبلوماسي للغاية! نظرتْ زوجتي باستغراب وارتباك ثم نهضت بغضب وهي تتمتم:

_ لديك عشر دقائق فقط لتشرحي له وسأعود ..

قالت ذلك وهي تحمل قدحي الشاي الخاصيّن بي وبها, بينما نظرتْ (روزالي) إليها نظرة المنتصر.... هَتَفَتْ بها بعد حين.....

_ كما تشائين وشكراً لك.....

وما أن ذهبت زوجتي حتى هَتَفَتْ بصوت متضرع....

_ هلا قبلتَ أن نعود أصدقاء! ولو مجرد أصدقاء! سامحني يافارس بحق كل عزيز عندك, بحقّ كل السنوات التي عشناها معاً, أرجوك أن تسامحني وأن تقبل صداقتي المجردة من أيّ مصالح.... دعني أكتبُ لك الرسائل وأنا بعيدة..... دعني أكون صديقتك, تسأل عني وأسأل عنك. ابني عم مقرّبَين عشنا سويةً وربيتني بين يديك! أنا لا أستطيع البعد عنك....

قالت ذلك وأغمضت عينيها الجميلتين فكدتُ أن أذوب....

سقطت الدموع من مقلتيها وبسرعةٍ وضعت يديها على وجهها لتبعد تلك الدموع التي جعلتني أقول دون أن أشعر....

_ طبعاً أُسامحك! أنا أسامحك يا عزيزتي....

_ حقا! أو حقٌ ماتقول!! يا الهي! لا أصدق!

أمسكت بيديّ بحماس وقبّلتهما بسرعة فسحبتهما بتوجس لأنّ زوجتي ظهرت فجأةً تنظر إلينا بغضب وحنق.....

نهضت روزالي مرتبكة وتشكّرت من زوجتي بإسلوبها...

_ لقد أخذتُ من وقتكما! شكراً جزيلاً لك:

جلست روزالي بعدها بين عميّ أمير وهاني تتجاذب أطراف الحديث وهي سعيدة تنظر إليّ من طرفٍ خفي كل حين, ولقد أسعدتني سعادتها ودغدغت مشاعر خفيةً في طيات روحي وغياهب وجداني, ووجدتني أنظر أليها أيضاً من طرفٍ خفي دون أن أدري .... ولكنْ ماذا دهاني....

بعد تلك الحادثة.... زادت غيرة زوجتي وزاد شكّها بي, وأخذت تتحول أطباعها الى طباعٍ نزقةٍ للغاية, ففي كل مناسبة, كانت تربط (روزالي) بأي مشكلة أو أمر رغم أنّها لم تكن معنا, وتغادر باستمرار ولا تأتي المنزل إلّا قليلاً بين الفينة والأخرى, ولكنّ ذلك لم يكن يهمّني.... أبداً....

لأن روزالي أخذت تبعث لي كل يوم رسالة عن يومها تسرد فيه كل تفاصيل حياتها_ مع تفاصيل توبتها من (مرافقة الفتيان) _ إن صحّ لي التعبير عن ذلك .... وكانت تحكي وتثرثر في رسائلها كثيراً على الواتس آب حتى دون وجود سطر واحد أردّ به عليها وحتى دون أن أُظهر لها أنّي قرأت رسائلها إلاّ بعد حين طويل ولمّا أختلى بنفسي بعد يومين, أو لمّا تكون الرسالة طويلةً جداً فأضْطَرُّ الى فتحها في التطبيق.... كلّ يوم, تقصّ عليّ أدقّ تفاصيل حياتها وكأنها تتحدث مع صديقتها, أو مع نفسها, وحتى أنها تشورني في الأمور وتسألني, دون أنْ تجد جواباً, وكانت تكتب لي بين فترةٍ وأخرى:

((يكفيني أنك تقرأ رسائلي وتفتحها..... سأظل أكتب لك حتى ولو لم تجبني بسطر واحد, يامن ربيتني منذ طفولتي, أنا أعتذر دوماً لك عن جحودي,,,, شكراً لأنك سامحتني.....

لاتعلم كم يعني لي ذلك, وكأنه جبلٌ وقد أُزيح عن كاهلي))

كنتُ كالطفل الذي يبحث عن صدر أمّه, أفتح جهازي كل حين, حتى وأنا جالسٌ على مائدة الطعام, أو في السيارة, أو في الصالة, لأبحث عن رسالةٍ جديدة منها..... كنتُ سعيداً في سرّي بتلك الرسائل المليئة بالثرثرة عنها, أين ذهبتْ ماذا أرتدتْ , ماذا أكلتْ..... تفاصيل حياتها كلها....ولعلّ أمي قد تنبهت للأمر, تلك الذكية الحنونة.....أما زوجتي, فقد تنبهت بشكل أكبر وأكبر, وكشفتني ذات مرة بحملة تفتيش لجهازي النقّال أكتشفت فيه كل رسائل روزالي, فكانت هنالك زوبعة كارثية من الصراخ عليّ والتنكيل بي وسباب روزالي, انتهت بخروجها من المنزل حاملةً حقيبة ثيابها وقد أخذتْ طفليّ معها الى منزل والديها ورغم كل محاولاتي للدفاع عن نفسي بأن قلتُ لها أني لم أرّد على روزالي ولو بكلمةٍ واحدة, لكنها لم تتوقف عن البكاء والصراخ عليّ واتهامي بالخيانة وسوء العشرة وتهديدي بطلب الطلاق وأخذ طفليّ مني رغماً عني لأنّها _حسب تعبيرها_ ستعين محامياً شاطراً جداً سيعرف كيف (يُدفعني الثمن) على حدّ كلماتها بالضبط!! هكذا كان عليّ أن أدفع ثمن رسائل لم أرّد عليها, وأن أدفع ثمن مجرد قراءتي لرسائل من ابنة عمي, التي ربيتها منذ الصغر, وكان لزاماً عليّ تطليقها بعد ذلك لأنها كسبت القضية ضدي,بعد عدة جلسات في المحكمة, التي حكمت علي بمبلغ لها كتعويض عن (كل ضرر نفسي)

سببّته.... وكسبتْ هي قضية الحضانة أيضاً, فأصبح لابدّ لي من أخذ رخصة منها لرؤية طفليّ في مواعيد محددة ووقت مُعيّن في الاسبوع....

يا الهي .... لقد ألفيتُ نفسي فجأةً بلا زوجة وبلا أسرة وطفليّ بعيدان عنّي.... عشتُ انتكاسة نفسية وأغلقتُ جوّالي ورميته بعيداً في درجي كي لا أفتحه مجدداً.... أخذتُ إجازةً من عملي وأعتكفت في غرفتي .... شعرتُ أنني عدتُ الى نقطة الصفر من جديد..... أن ترى بناءاً بنيته لسنوات ينهار أمام عينيك ليس بأمرٍ سهل أبداً.....

لقد أطلت كثيراً في سرد ماحصل لي, كي أعوضكم عن تلك الصفحات التي لم أنقلها من مذكرات أمي, فحذوت حذوها وأخذت أتخّذ طريقتها في سردي النثري, لكنني سأكتفي بهذا القدر ولن أدعكم تتعبون أكثر في تتبع مجريات حياتي, لأنني بعد ذلك كلّه... أعود فأشكر والدتي إذ ورثت منها أسلوبها القصصي وتلوتُ عليكم بطريقتي كلّ مشاعري وما مررت به من آلام عندما تركتني (روزالي) وحتى لحظة كلامي هذه وتدويني لهذه الكلمات....

ففي أحد الأيام... نُقر باب غرفتي.... كنت أسعل وأنا فوق فراشي مستلقٍ ليس لدي سوى استرجاع الماضي والندم على ماحدث معي ومع زوجتي وجلد ذاتي لأني خسرتُ رؤية طفليّ بسبب خطأ غير متعمد....

_أدخل!

(هتفتُ بمن طرق الباب) فَفُتح الباب فجأة....

_ حبيبي الغالي (فارس)هل تريد فطوراً!

_ كلا يا أماه! ألف شكر لك.....

_ حسنٌ, لقد جلبتُ لك الحليب على أية حال مع قليل من الكعك....

فتحتُ لأمي الباب ودلفتْ هي حاملةً صينية كبيرة فيها قدح شاي وأبريق وبيض مقلي وخبز وحليب وجبن....

_ أماه ماهذا كلّه! ثم أنني أستطيع القدوم للأكل؟!

_ كلا, كلا,! أنت يومياً لاتتناول الفطور لمّا ننتظرك,ولذلك توجب عليك الآن الأكل... هيا, هيا....

_ أماه! أنا لستُ صغيراً! أرجوك!

_ والآن! عليك أن تستعد لأمرٍ آخر....

قالت أمي فجأةً بعدما أجبرتني أن آكل وظلت ترقبني...

_ أماه! ها أنذي! لقد انتهيت! أنظري! هذا قدح الشاي!

_ أجل.... حسنٌ اذاً... لقد جلبتُ لك ضيفاً عزيزاً....

_ من يكون هذا الضيف! ماذا تقصدين يا أماه!

_ لقد ذهبتُ إليه وجلبتُهُ بنفسي هل تفهم....

_ ماذا تقصدين يا أماه! ولماذا تذهبين لتجلبي شخصاً!!

_ لأنني أمك, وأعرف خبايا نفسك أكثر من نفسك وأعلم أنك رغم كل مكابرتك هذه, فأنت غارقٌ حتى أذينك في حبك القديم الذي مهما حاولت تناسيه فلن تنساه! سَلني أنا....

_ ولن تنسى من أحببتها أنت كم هي تحبك!

فجأةً هتف صوتٌ ما.. لتخرج روزالي من خلف الباب كملاك نزل هابطاً من السماء.... بقيتُ متعجباً لا ألوي على شيء, عندما تقدمت روزالي من سريري تحمل بين يديها شيئاً ما تبين لي أنّه علبة صغيرةٌ حمراء فتحتها لأجد خاتماً من الألماس, أمسكت يدي, جثت على ركبتها أمام سريري وابتسمت والدتي بينما أخذت روزالي تقول:

_ فارس العزيز! هل تسمح لي أن أطلب يدك لتكون زوجاً لي بقية عمري, أُكرّسُهُ لك وأكون خادمةً تحت قدميك إن أصابك سوء, ونعيش فيه على السراء والضراء أيها الغالي,

صه, دعني أكمل! إنّه خاتم والدتك , وإرث العائلة, وهي من جلبتني من شقتي وقالت لي أن أطلبك للزواج, لأنني لن أجد مثلك مهما حاولت, وكل رجلٍ كنتُ معهُ, وجدتُ نفسي أغرق في بحر سحيق ليس له قرار.... أرجوك, سامحني واقبل أن تتزوج من هذه المخلوقةِ التي كسرتْ قلبك يوماً ما .... هذه المخلوقة التي تركت توأمها دون أم فكررت مأساتها التي عاشتها دون أن تعلم, لأجلك! نعم لأجلك, كي تنسى ثمرة زواجها الفاشل من أخيك لمّا فضَّلته عليك (وذرفت الدموع).... هل تقبل الآن بي..... بكلّ مساوئي وبكل وأخطائي....

نظرتُ إليها وهي لاتزال تمسك يدي ونظرت الى امي وذرفتُ الدموع....(نعم, أقبل يا حبيبتي).....(نعم أقبل)...

حسن...حتى هذه اللحظة ....عزيزي_عزيزتي القارئ والقارئة...توقفت عقارب الساعة عند زواجي من روزالي الحبيبة والذي إقامته والدتي لي بإصرار منها وجعلته حفلا عائليا بحتا بيننا فقط ...كان والدي جالسا وهو ينظر إلى الفراغ بعينيه الزرقاوتين الجميلتين والسعادة مرتسمة على شفتيه...ناداني انا وأمي وعمي أمير...لست أدري لم فعل ذلك وكأن قلبه قد اعلمه أمرا....ذهبنا إليه وهو يجلس على كرسيه الأثير...كنزته الزرقاء المحببة إلى أمي والتي تلبسه اياها في كل مناسبة عائلية أثيرة تزيد من زرقة عينيه جمالا واشعاعا...كان سرواله الأسود الضيق دوما مايضيف لمسة ساحرة على مظهره الخارجي رغم كبر سنه ...فقد كان ولازال حتى تلك اللحظة التي احدثكم بها...وسيما وأنيقا...ولقد حرصت أمي غاية الحرص على أناقته دوما...رفع أبي رأسه إلي وقال وهو يمد يده نحو والدتي ليضعها بين يديه ويقبلها أمامي وأمام عمي أمير ...

_دعوتكم ثلاثتكم في هذا اليوم المبارك..يوم زواجك من محبوبتك وبنت عمك التي احببتها منذ كانت طفلة صغيرة، كي أشهدك ياولدي الاكبر الحبيب على ما سأقول...

لقد ظلمت والدتك كثيرا...أحببتها من كل قلبي...نعم..لكن حبي كان نرجسيا...لم أرض لأخي أن يحوز بحبها وقتما تركتها وهجرتها وأهنتها ...عاقبني الله بك..نعم...صه...دعني اكمل...نعم ...اخي أمير...أنت قد ضحيت كثيرا لأجلي...وتركت من أحب قلبك بصدق لأجلي ولاتظنن اني لااعلم شيئا..أنا أعرف كل شئ...صحيح أنني لم أعد أرى منذ زمن بعيد..لكنني ابصر كل شئ...أمير أرجوك...

ومدّ يده ليأخذ يد عمي الذي كان مذهولا...

_فارس ..أريدك أن تشهد في يوم زواجك هذا أنني اوصي أن تتزوج والدتك من عمك أمير إن جرى لي أي شيء أو توفاني الله إلى رحمته....

_فؤاد !! أرجوك...

قفزت الدموع من عيني والدتي بينما ادمعت عينا عمي أمير .. وضع والدي يد والدتي فوق يد عمي وضمهما معا بقوة رغم أنهما حاولا منعه..وقال بصوت حازم...

_لقد تحملت فاتن الكثير مني ....لقد عانت لسنوات بين هذه الجدران من اهمالي لها دون أن تشتكي...وكانت صابرة حامدة دون أن تتكلم ...كنت أعوض عن نقصي وشعوري بالعجز بالصراخ عليها في كثير من الأحيان ولم تكن تفعل شيئا سوى الصبر عليّ وتحمل نزق طباعي...احبتني بكل كيانها حتى نست نفسها ...تماديت في اهمالها لما كانت تواسيني لأنني كنت أشعر بعجز مضاعف كلما حاولت مواساتي أو التحدث معي كي تسليني حتى أنسى احزاني...ارجو ان يغفر الله لي كل مافعلته معها ....صحيح أنني مريض وأنّ مرضي هو أحد ألاسباب الرئيسية التي جعلتني أهمل والدتك ...لكنني لست غير واع لما كنت أفعله....احبها واغار عليها كثيرا وفي نفس الوقت ولما أشعر بالعجز وأنها تحتاج إلى وجود رجل يشعرها بأنوثتها واتذكر أيام شبابي معها ..لا أعرف كيف اتصرف ...فأراني بدل أن اعوضها حنانا وحبا....اجدني ازداد اهمالا لها وعنها ابتعادا...

فاتن ...لقد أطلت الكلام...لكنك تستحقين من يقدرك ويحبك حقا حقا ...حبا غير أناني مثل حبي..لقد كنت انانيا معك في آخر عمري وانا أعترف لك بذلك ....صحيح أنني أيضا تصرفت في بادئ علاقتنا أيضا بكثير من الأنانية...لكنني زدت ذلك كثيرا لما زاد

مرضي...وكأنني أسقط مرضي فيك واعوض عن ألمي بإيلامك...لأنك كنت شابة جميله وانا عجوز...لأنك كنت في ريعان شبابك وانا في قمة عجزي....

أمير...أرجوك..اعتنِ بفاتن كثيرا ...عوضها عن كل لحظة ألم وبكاء عانتها معي..أنا احبكم جميعا ...أنت اخي الوفي الذي لم تتركني أبدا والذي فضلتني على نفسك....فاتن...أمير يحبك من كل قلبه...أنت حب حياته الذي سرقته انا منه...أحبك منذ الطفولة وانت تعلمين....أحبيه لأجلي ...وعوضيه عن كل سنوات العمر واقضيا سنوات حياتكما القادمة معا بحب ووئام....اوعداني الآن وأمام فارس...هيا...

اشاح عمي بوجهه عن والدي بينما يده لاتزال بين يدي والدي ممسكة بيد والدتي التي كانت تنظر والدي غير مصدقة ماتسمع وهي تبكي...

صاح والدي بصوت غاضب مكررا..

_أوعداني الآن...هيا...

_فؤاد ..كف عن هذا الكلام ياخي الأكبر...

_كلا ...لن أكفّ عنه ودعني ارتاح قليلا ...أرجوك ياخي ...

قالها والدي بصوت متهدّج...

التفت عمي إليه وهو يسمع نبرة صوته ليقول دون إرادة منه....

_أعدك ياخي ...

_وأنت ياغاليتي الحبيبة ...فاتنتي الصغيرة...تكلمي أرجوك ودعيني اكون سعيدا في يوم زواج ولدي الأكبر...

_لا ..لااستطيع...أنت دوما تفعل ذلك بي...

_كلا... حبيبتي ...أنا أفعل ذلك الآن لأجلك واشهد الله على مافي فؤادي... هيا ...اريحي قلبي العجوز...

مسحت امي دموعها بيدها الثانية وكانت لاتزال يدها الأخرى بين يدي والدي ممسكة بيد عمي أمير...

كفكفت دموعها وقالت على وهن وبسرعة مقتضبة...

_نعم ..أعدك...

_الآن أنا قد ارتحت كثيرا...شكرا لكما...

هتف والدي بسعادة...

بقي مبتسما طول الليل وانا اراقص روزالي على نغمات يعزفها عمي هاني على البيانو ....كانت حفلة جميلة جدا ...كنت أسعد إنسان لأنني اقترنت بمعشوقتي وحبيبة قلبي الأبدية التي أحببتها منذ كانت في لفافتها...لما أغلقت الباب علينا في تلك الليلة واختلينا ببعضنا وتشابكت اناملي مع اناملها وهمست لها فوق سريري أننا قد اتحدنا اخيرا برباط مقدس أبدي...قالت لي أن روحينا دوما ماكانتا متحدتين..لكن جسدينا فقط من كانا مبتعدين ...ولذلك كنا نعاني طوال الوقت من بعدنا عن بعضنا البعض...قالت لي انها مذنبة وأنها تشعر بالعار لما فعلته من تركي وهجري ...مررت اصابعي بين خصلات شعرها الأشقر الناعم وقلت لها أني قد غفرت لها كل شئ...لأن حبي لها أكبر من كل خطيئة ...وأنني انا نفسي لست منزها من العيوب والخطايا....وأنني أيضا عرفت علاقات كثيرة وتبت إلى الله توبة نصوحا ....كانت ليلة جميلة حقا...لأن روحي قد سعدت فيها وارتاحت..لكن الصباح جلب لي حزنا وألما لم يكن في الحسبان فقد استيقظت على صوت نحيب وصراخ وأنين...

هرعت نحو الصوت فوجدت مصدره غرفة والدي ووجدت الباب مشرعا وأمي ساقطة فوق صدر والدي الذي كان وجهه فاقعا و قد فارق الحياة ...كانت والدتي ممسكة بيده بقوة وهي تصرخ وتبكي بشكل هستيري بينما كان عمي أمير وعمي هاني يحاولان رفعها عن صدر والدي وافلات يديه من بين يديها ....بكيت بصمت وانا أقف قرب الباب ...لم أعرف ماذا أفعل..هل كان والدي يعلم أنه سيموت ...هل كان ينتظر يوم زفافي من ابنة عمي كي يفارق الحياة وهو مرتاح؟؟؟

جاءت روزالي وهي متلفعة بشالها الأزرق لترى المشهد فوقفت قربي وشهقت وأخذت تبكي دون شعور....كم كان مشهدا حزينا....لقد مات ذلك الأسد...

_مات فؤاد...أمير ...هاني ...لقد مات فؤاد...مات فؤادي ..لا ..لا ...مات فؤاد...

كانت أمي تصرخ وتردد بتشنج دون شعور وعمي أمير يحاول تهدءتها...

ومات والدي الحبيب ....

وانتهت قصة حب فاتن وفؤاد ....لكنها لن تنتهي أبدا أبدا وستظل تروي احداثها الأجيال...

((تمت))